رواية

الجنازير المقدسة

عبد الله الأسد



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد
اسـم الكتاب : رواية الجنازير المقدسة
المـؤلف : عبد الله محمد سعيد الأسد
رقـم الإيداع : ٢٠١٦/١٦٦١١
الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٥٦٥-٢٦-٥

الطبعة الثانية ٢٠١٨



متى استعبدت الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟!

هذه إحدى القذائف المدوية التي أطلقها الدين الإسلامي بلسان عمر بن الخطاب على ظاهرة الرق، التي كانت من أساسيات الحياة الجاهلية ، وما زال الإسلام يحاربها حتى جعلها كفارة للظهار واليمين والقتل الخطأ، كما أن بلالاً الحبشي (الأسود) كان مؤذن الرسول ﷺ ومن أقرب أصحابه ومن أحاديثه ﷺ :«أن الله لا ينظر إلى صوركم وألوانكم، وإنما إلى قلوبكم وأعمالكم»، و«لا فضل لعربي على عجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى»، وهكذا بقية الأديان السماوية، ولكن بعض أتباع هذه الأديان استحل الاستعباد، بل جعله تجارة رابحة، تحقق الملايين دون اعتبار لمشاعر هؤلاء الذين أوقعتهم ظروفهم في شرك الرق، أو إحساس بمعاناتهم النفسية والاجتماعية، ومنها اختلاط الأنساب والطبقية والحقد والاجتماعية.. إلى غير ذلك مما تثيره رواية الجنازير المقدسة، التي أحدثت طبعتها الأولى أصداء واسعة وردود أفعال متباينة ، مما حدا بالكاتب عبد الله الأسد للإسراع بإصدار الطبعة الثانية الخالية من كل ما شاب الأولى من شوائب ؛ لذلك وغير ذلك يسعدني أن أقدمها لك عزيزي القارئ، واثقًا من أنها ستشغل حيزًا كبيرًا من اهتمامك وتفكيرك ومكتبتك.

د. حسين عبد العظيم

ناقد أدبي وفني

husseinabdelazem@gmail.com

(١)

علي بعد خطوات مني، وأنا أجول بنظري متمعنا وجوه المسافرين التي غلبت عليها السحنة غير المتجانسة مع بشرتي، جلست شابة في مقتبل العمر، مدهشة الجمال، كأنها ملاك نزل لتوه من السماء؛ ليجالس البشر في قاعة واحدة، بشرتها البيضاء المشبعة بالسمرة، هندامها وشعرها الأشقر، جعلوني أتخيل أن كل القاعة تنظر صوبها لتستمد من طاقتها الجمالية دون مقابل، كأنها إلاهة إغريقية نحتت من المرمر، أكمل «مايكل أنجلو» نحتها للتو، تمنيت أن تكون من بين المسافرين إلى بيروت.

ليتها معي في نفس السفرية المتجهة إلى بيروت، طائرة الخطوط الجوية السودانية السفرية رقم ٩، من سحر وجه تلك الشابة المتحدي، أصبت بلوثة، سيطرت على كل حواسي، يا لحظي العاثر، لا أستطيع الحديث معها كما كنت أتحدث مع بنات الإنجليز والأوروبيات خارج السودان، عندما كنت طالبا بجامعة درم، أقف عاجزا أمام حواجز وأعراف اجتماعية تفصلني عن هذه الحورية الصاخبة الأنوثة والجمال الملائكي، يا إلاهي ... إنها من فصيل سكان مدينة الخرطوم الأجانب، أثرياء المجتمع وصفوته، المتأففين من بقية شعب السودان الأسمر، في تلك الحقبة من تاريخ منتصف الخمسينيات في السودان.

التزمت حدودي الإثنية، أمسكت حبال مشاعري المحبطة، انصرفت عن التمعن في جبروتها الملائكي الجبار، بل استبعدت تماما حتى لمحة طرف منها نحوي، في المقابل، شغلت نفسي بقراءة وثائق هامة جمعتها؛ لأكتب عن مأساة ملك اليمين، جدتي «مستورة»، أم والدي.

لم تقلع الطائرة في ميعادها، نتيجة لرداءة الجو، كان على جميع المسافرين المحبطين الانتظار ساعة كاملة، أما أنا فشعرت بالملل والضياع بين الأوراق المبعثرة بين يدي، صعُب علي إدارة فضولي المتطلع لفك طلاسم شغفي بهذه الشابة الساحرة، مرة أخرى رجعت أتمعن في إبداع الخالق، سألت نفسي هل حقيقة أنها خُلقت من طين كما خلقت أنا؟!!، تركت قراءة الوثائق ،واصلت التأمل.

ارتفع منسوب فضولي، عندما رأيتها تتصفح مجلداً ضخماً، حاولت جاهدا معرفة عنوانه، قمت من مكاني أتسكع وراء الكرسي الذي تجلس عليه، كانت فاتنتي منكبة على الصفحات باجتهاد، لم تأبه بعيون البشر التي كانت تلتهمها من كل الاتجاهات دون مقابل، والمجلد الذي من كبر حجمه غاص بحمله في حجرها، باءت محاولتي بالفشل في معرفة عنوان الكتاب، لكن تحرك داخلي إصرار أقوى لإيجاد شعرة تواصل بيني وبين تلك الشابة، وفي لحظه انتباه كسرت الركود والإحباط لدى المسافرين، ووسط ضجيج الأطفال غير الآبهين، التفت فجأة، لسماع نداء من الإذاعة الداخلية:

على ركاب الطائرة السودانية المتجه إلى بيروت، السفرية رقم ٩، التوجه إلى بوابة المغادرة.

هب المسافرون بعد سماع النداء بتفاؤل وانشراح واستعداد بعد الإحباط الذي سيطر عليهم ساعة كاملة، كلٌ يتفقد حقيبته ويستحضر جوازه وبطاقة المغادرة الأخيرة، الصالة تهتز أركانها بالحركة والتداخل والانتظام في صفين، أمام بوابة يقف عليها ضابط جوازات يحمل ملامح سحنتي السودانية البلدية، كسبت الرهان لمواصلة اندهاشي ومتابعتي وفضولي عندما بدأت الشابة الحراك من مقعدها ببطء ،تأكدت أنها من المسافرين في نفس الطائرة، تتبعتها بدقة متناهية قبل أن تقف بقوامها المتناسق، وضعت قلما كان في يدها اليسرى في آخر صفحة كانت تطلّع عليها، أغلقت المجلد الضخم، الذي تبين لي عنوانه بوضوح.

رأس المال، كارل ماركس:

تحول كل تطفلي ولهثي واستفهامي المبعثر، إلى تعجب، ماذا تريد هذه الأيقونة المؤنثة الإرستقراطية الملائكية بكتاب رأس المال؟ يسارية هي؟! لا أصدق، هذا مستحيل، هل المجلد مقرر أكاديمي في التخصص الذي تدرسه؟ احترت فعلا، شغلت نفسي بصفحة جديدة زادت تطفلي نحو هذا اللغز المستعصي، رغبة أجهلها تماما تدفعني لمعرفة المزيد.

رأس المال من أصعب الكتب التي قرأتها، لم أفهم منه الكثير في القراءة الأولى، قرأته بالإنجليزية مرة ثانية بتمعن بحكم دراستي في علم الرياضيات، حتى تمكنت من فهم محتوياته المعقدة، كيف لهذه الصبية أن تكون بذات صلة قريبة أو بعيدة بهذا الكتاب؟! لابد في الأمر شيء لا أعرفه، فضولي يتوسع بلا حدود، ناورت التحرك من خلفها حتى اصطفت بالجانب الأيمن نجحت في الوقوف خلفها في صف مراجعة التذاكر لعلي أراها عن قرب، كان لي ثمة شعور ممغنط يدور بيني وبينها في صمت كلما اقترب جسدي المارد منها، شعرها الأشقر المرتب بعناية، يتدلى خلفها، يتبعثر حينا ثم يرجع إلى وضعه حينا آخر، يكاد يلامس ربطة عنقي الحمراء بفعل الهواء المنبعث من مراوح السقف بصالة المسافرين.

لاتزال الفوارق الإثنية حينها في بلادي تلعب دورها في الخرطوم عاصمة السودان الذي نال استقلاله عن الحكم الإنجليزي المصري في نفس العام، لا تزال الفوارق في مجتمع الخرطوم بالذات، لا تسمح لأمثالي بالتطفل أو التطاول أو كسر الحواجز بين لون بشرتي ولونها البلوري، رغم أني لا أقل عنها برجوازية في شيء عدا لون بشرتي، والذي يشغل منصبًا كبيرًا، كان يشغله قبل السوَدنه أحد الإنجليز، نعيش في أحسن أحياء الخرطوم، زيادة على وضعي الأكاديمي المميز، لماذا سيطر على شعور مؤكد بأن هذه الساحرة، تبادلني مؤشرات وذبذبات مغنطيسية رصدتها أجهزتي، التي لا تخطئ الجنس اللطيف أبدا، بحكم تجاربي التي عشتها في بريطانيا، وفي جامعات من أنحاء أوروبا شرقها، وغربها، وفي بيروت، ولي ما لي من المعارف والصديقات المنتميات إلى عائلات ثرية ومتعلمة في الوسط الجامعي، فلماذا هذه الشابة بالذات؟!! قوة خفية كانت تدفعني، هل هو جمالها المحرم؟ أم هذا المجلد «رأس المال»، الذي أفهمه جيدا وأدرك صعوبة فهمه على شابة في سنها.

بينما أنا في طابور المراجعة الأخيرة للتذاكر أقف خلفها مباشـــرة، كانت منشغلة بين حقيبتها التي تحملها على يدها اليمنى والمجلد الكبير على يدها اليســـرى، في لحظة أرادت أن تمكن يدها من المجلد، وقع القلم الذي وضـعته في الصـفحة التي كانت تتصـفحها، فما كان مني تلقائيا إلا الإســراع والانحناء بقامتي الفارعة إلى القلم في الأرض، وصـلت يدي قبل يدها، لامســت أصــابعي كفها المخملية الناعمة في نقطة التقاء؛ لرفع القلم، نجحت في التقاطه قبلها وتقديمه لها، ابتسمت، قالت بأسلوب مؤدب، لا يخلو من الاهتمام:

- شكرا.

كان ردي:

- عفوا.

لم أقل أكثر من ذلك، رغم أنني كنت أود قول الكثير .

يا الله إنها تتجه معي إلى حافلة ركاب الدرجة الأولى، أرى الحافلة أمامي تكتظ بســرعة؛ لشــغل المقاعد بأســر مع أطفالهم كانت لهم الأولوية، وأنا خلف ســاحرتي الشــقراء، أعد خطواتي، دخلت بعدها، وقفت بجانب المقعد الذي جلست عليه، بادرتني مبتسمة:

- تفضل.

الفرحة تجمع شتاتي وتكهناتي وفضولي في بوتقة اللحظة:

- شكرا.

جلســت بجانبها، في المقعد الوحيد المتاح، حمدت الله على هذه الخطوة الصدفية السريعة، التي ستقودني لمعرفة ما كان يدور في خاطري، ارتبكت في البداية، لكني لم ألحظ أي ارتباك من جانبها، بل كررت شكرها لي مرة أخرى، فقلت لها:

- دعيني أساعدك.

تناولت مجلد «رأس المال» منها الذي ثقل حمله على نعومتها الأنثوية:

- شكرا.

أردفت سؤالي الثاني:

- هل تدرسين في بيروت أم زيارة خاصة لأهلك هناك؟!

وأنا أسحب الكتاب من يدها بهدوء:

- يا سيد ... أنا سودانية ولست لبنانية ... نعم أدرس في بيروت.

- مرحبا بك ... أنا خالد إبراهيم الناير دكتور محاضر في الرياضيات بجامعة بيروت الأمريكية.

- صدفة طيبة يا دكتور ...أنا اسمي ليليان أحمد الشاهر أكملت كلية تحضيرية، وسأبدأ عامي الدراسي الأول، بكلية الطب الجامعة الأمريكية ببيروت، وأنت يا دكتور... إن شاء الله تكون قضيت وقتا جميلا بالسودان.

- لا بأس قضيت وقتي بين مدينة الدامر مسقط رأسي، والخرطوم حيث يسكن أهلي، ولحسن حظي قابلت أصدقاء الطفولة في الدامر، وأعدنا ذكريات جميلة جدا ... وأنت كيف كانت عطلتك في السودان؟

- قضيتها في البيت مع الأهل بين أمدر مان والخرطوم، تزوج خالي من زميلته في جامعة الخرطوم بعد تخرجهما الشهر الماضي فرحنا بهما.

وصلت الحافلة إلى أسفل مدرج الطائرة ،انتظرنا حتى صعد الأطفال مع ذويهم ،قدمت أمامي ليليان ،تابعتها بتمعن مفترس وهي تصعد سلم الطائرة خطوة خطوة، وأنا أحمل مجلد ماركس الضخم، على يدي اليمنى، وحقيبتي وحقيبتها على كتفي.

أجلستها المضيفة في المقعد رقم ٩ المحاذي للشباك، سألتني إذا كنت أريد أن أشغل المقعد الوحيد الشاغر والمجاور لها، فلم أتردد بعد وضع حقيبتي وحقيبتها على الرف، انشغلت المضيفة بترتيب أماكن الأطفال المنتشرين على ممرات الطائرة، انشغلت أنا بضالتي ليليان التي بعثتها السماء دون جهد أو عناء؛ لتجلس بجانبي، لإشباع فضولي للتعرف عليها، كل شيء ترتب بقدرة السماء حسب ما تمنيت، قلت لها بعد التمهل وربط الحزام:

- أريد معرفة هذا الكتاب الكبير الذي تقرئين !! هل هو مقرر دراسي؟

ضحكت:

- كلا إنه هدية من خالي العريس الذي كنت في عرسه الأسبوع الفائت.

- حقا إنه شديد التعقيد، لكن سأكمله؛ لأنني معجبة بالكتّاب اليساريين في السودان مثل خالي وغيره من كتاب اليسار.

- يا ليليان ،يبدو لي أنك من عائلة برجوازية؛ فمالك وكتب ماركس؟!

ابتسمت بانشراح ظهر على وجنتيها الورديتين:

- يا دكتور خالد لنترك موضوع هذا الكتاب، فما هي اهتماماتك أنت وكتبك التي تفضلها؟!

- من نوع هذا الكتاب بجانب الكتب العلمية والرياضيات.

- حسنا ... لعلنا قد التقينا في نقطة، حدثني كيف تعيش في هذه المدينة الصاخبة بيروت؟! أنا لا أعلم الكثير فيها بحكم سكني في داخلية تديرها الراهبات.

كنت أعيش اللحظة بكل حواسي، أمسح باستراق النظر جغرافية وجهها الملائكي، أخبرتها بتطويل مقصود بداياتي بتلك المدينة الحضارية بيروت وعدم تأقلمي معها، كما أخبرتها عن معرفتي الأكاديمية بمجلد رأس المال:

- تريدين أن تفهمي هذا الكتاب؟

ضحكت:

- طبعا،

- على استعداد لشرحه لك.

- يشرفني ذلك، سأكون جاهزة الأسبوع القادم بعد تغيير سكني لداخلية الطالبات بكلية الطب بالجامعة الأمريكية.

- جميل ... وسنكون في اتصال بحكم عملي في الجامعة.

- أنا شغوفة جدا بهذا الكتاب، أمامنا أربع ساعات من الزمن لنصل إلى بيروت، فهلا أعطيتني مقدمة نشغل بها وقتنا؟

- حسنا ... استمعي لي جيدا، أنا شخصيا بحكم دراستي، أختلف مع ماركس في كثير من النقاط التي وردت في هذا الكتاب، مع احترامي لمبادرته الشجاعة في محاربة الرأسمالية، ولعلمي أن الماركسية فكر ومشروع متجدد يتطور مع الزمن، بعكس الكثير من الآراء والمشاريع الفكرية والدينية غير القابلة للتطور نهائيا... عندما كتب كارل ماركس هذا الكتاب، كان الزمن غير الزمن، فالنظريات والدراسات الاجتماعية ليست قوانين ثابتة، إنما تتغير مع الزمن والتكوين الاجتماعي، أيضا كتب ماركس هذا المجلد، عندما كانت هولندا الدولة العظمى وتملك اقتصادا فاق الدول الأوروبية بأكملها، هولندا الآن بها اقتصاد، أقرب إلى ما دعا إليه ماركس.

أوقفتني:

- مهلا يا دكتور أريد أولا، فهم ما ورد في الكتاب، ثم أتعرف على رأيك.

- حسنا يا ليليان هذه مواضيع جافة، نتركها الآن ونحن على باب التعارف، هل لك معرفة بقراءة الكف؟

- لم أجرب ذلك فهل تعرفها أنت؟
- نعم
- اقرأ لي كفي.
- لاحظت أنك عسراء، أليس كذلك؟
- نعم، اجتهدت أمي أن أستعمل يدي اليمنى، لكنها تنجح.
- وأنا كذلك يا ليليان، وافق شن طبق.

ضحكت ليليان، مدت يدها اليسرى، استلمتها بيدي اليسرى أيضا، وكأني ألامس نعومة الحرير المخملي الخالص، بعد جسها والتطلع إليها عدة ثوانٍ قلت:

- ستعيشين يا ليليان طويلا، وسترزقين بعشرة أطفال،

ضحكت، سحبت يدها بسرعة:

- فأل الله ولا فألك يا دكتور ... طفل واحد مشكلة، فكيف بالعشرة؟!
- أنا أمزح معك يا ليليان.

مرت أربع ساعات لم نشعر بها ونحن في حبور ودهشة وضحك وحوار، أعلن قبطان الطائرة وصولنا إلى بيروت، طلب ربط الأحزمة.

التفت إلى ليليان، سألتها:

- هل يقابلك أحد في المطار؛ لتوصيلك؟
- نعم ... سائقة من الراهبات تقوم بمهمة استقبالي دائما... وأنت كيف تصل إلى بيتك؟
- في مثل هذه الزيارات القصيرة التي أقوم بها أترك سيارتي في موقف المطار، ليست هنالك مشكلة في وصولي إلى البيت، لكن أود الاطمئنان على مواصلاتك قبل توجهي إلى بيتي.

- شكرا يا دكتور لا أريد أن أثقل عليك...

- لا ... لا يا ليليان، أنا سعيد بالتعرف عليك، حقا استمتعت بالنقاش معك، سأكون جادا في تدريسك هذا الكتاب الصعب.

هبطت الطائرة ،نزلنا معا، أحمل عنها حقيبتها و كأني أحمل مستقبل حياتي ،أحمل عنها أيضا كتاب رأس المال الضخم وفي دواخلي إحساس مجهول كأن حياتي بدأت في ذلك اليوم الصدفي بدون ميعاد أو مقدمات، إحساس خاطب مشاعري في العمق برموز تشابكت كأني أعرف ليليان منذ الطفولة.

بعد المرور على الجوازات والجمارك، انتظرت معها حتى حضور الراهبة العجوز، ساعدتها في وضع الحقائب على السيارة، قبل أن أودعها، سلمتها بطاقة عملي الشخصي بها عنواني وتليفوناتي في البيت والمكتب، شكرتني ليليان على اهتمامي بمساعدتها، أيضا شكرتني الراهبة على مروءتي، بلغة إنجليزية بلكنة إيطالية:

- حقا السودانيون لهم أخلاق طيبة لا يشاركهم فيها شعب آخر.

ركبت سيارتي، أسرعت إلى شقتي، عرجت علي مطعم النجمة لشراء قهوة وسندوتشات، وصلت متأخرا؛ لازدحام بيروت بالسواح والعشاق وبائعات الهوى في مساء السبت، البارات الليلية مكتظة بمختلف الجنسيات، وصلت شقتي وجدتها كما تركتها مرتبة، راجعت البريد الذي اكتظ به صندوقي، أيضا البريد الصوتي، نمت نوما عميقا، أفقت على جرس التليفون الساعة العاشرة والنصف صباحا، توقعت التليفون من ليليان، لكنه كان من مكتب الترجمة في المركز الثقافي الأمريكي.

(٢)

طُلب مني الحضور فورا؛لموضوع مهم، أسرعت بعد أخذ حمام دافئ، توجهت إلى سيارتي في جراج العمارة، في الطريق تناولت القهوة وساندويتش داخل السيارة، بدأت استعراض التعارف الميمون ،المشوب بالحذر والاستفهام مع ليليان.

وصلت في موعدي مركز العمليات والتنسيق الأمريكي ببيروت أو المركز الثقافي، تجمع ضخم بداخله نادي ثقافي وفندق كبير وملاعب رياضية، نواد، بارات، مراقص، دور سينما، دور عبادة، صمم خصيصا؛ لراحة الجنود الأمريكان الذين يعملون في بلدان الشرق الأوسط وشبه الجزيرة العربية، أكملت مراسم الدخول، توجهت لركوب طائرة الهليكوبتر باص مع مجموعة من الأمريكان وزملائي المترجمين، اتجهنا إلى قاعدة الجيش الأمريكي وسط الجبال خارج حدود لبنان.

القاعدة نسيج من الخيال العلمي يبهر أي إنسان حتي شخصي، دكتور الرياضيات، من خلال زياراتي المتعددة للقاعدة، لأول مرة أشاهد أسلحة ثقيلة، مدرعات، مجنزرات، دبابات، طائرات، معدات غريبة ،أجهزة معقدة لم اقرأ عنها حتى في الكتب أو المجلات العلمية، رغم اطلاعي الواسع على كل جديد في عالم الاختراعات، شاهدت في مكتب الترجمة جهاز التلكس لأول مرة وجهاز الكمبيوتر الذي نسمع به، شاهدت الصور المرسلة من الأقمار الصناعية بواسطة صحن دائري مثبت على سقف أعلى مبنى في القاعدة، الأجهزة التي تعمل في القاعدة حقا بهرتني، يا إلهي!!! كيف وصل هؤلاء الأمريكان إلى هذا المستوى الذي يضع عالم الشرق الأوسط على الأقل خمسة قرون خلفهم؟!

المهمة التي طلبوني لها في ذلك اليوم، هي ترجمة رسالة مسجلة لمراسل يتكلم العربية وصورته على جهاز تلفاز ضخم، تكلم المراسل عن قرارات جمال عبد الناصر عن تأميم شركة قناة السويس وفكرة بناء السد العالي، كنت أستمع إلى كلمات عبد الناصر وأشعر بالاعتزاز والفخر ،كأني أرى انتفاض العالم الثالث قد بدأ من مصر، سيصل سريعا ويتقدم على أمريكا وأوروبا

قمت بما لزم من الترجمة ،لم أكن الوحيد الذي يترجم بل كان هنالك صديقي كاظم الطويل العراقي ولبناني و صومالي نقوم سويا بالترجمة لموضـــوع واحد يدخل على جهاز حاســـوب يقوم بطبعه وجمع المعلومات وتوحيدها في صـــياغة موحدة تعرض على أنا الوحيد؛ لوضعها في شكل نهائي.

بعد انتهاء المهمة، رجعت مع المجموعة بنفس الهليكوبتر إلى حيث أتينا، رجعنا إلى المركز الثقافي الأمريكي، كعادتي كنت أتجول كما أشاء في المناطق المسموح بها، لكن في ذلك اليوم تفاديت الدخول للمرقص؛ لأن أصـــدقائي من الزنوج الأمريكان كانوا يشـــغلونني بالترجمة في التفاهم مع صديقاتهم اللبنانيات، يطلبون نصحي في شتى الأمور الغرامية والشخصية؛ لجهلهم الكامل لمعتقدات وعاداتها الدول العربية.

في ذلك اليوم لم أتجول، أخذت سيارتي، رجعت متعبا إلى شقتي بعد عمل مضـــن طيلة اليوم، كالعادة، راجعت الرســـائل الصـــوتية المسجلة رســـالة من أبي، رســـالة من صـــديقي جســـتن ابن السفير الهولندي، لم أجد أي رســـالة كما توقعت من ليليان، أصـــابني إحباط لكن قلت لنفسي: عليك الانتظار.

جلست إلى مكتبي؛ لأواصل مسودة قصة جدتي «مستورة»، جدتي المُسْتَرَقَّة، ملك اليمين، بدأت أعيد قراءة صور الوثائق التي جمعتهـــا أثنـــاء رحلتي الأخيرة إلى الخرطوم من دار الوثـــائق الســـودانية ومقارنتها بالوثائق التي جمعتها ســـابقا من جامعة درم بالإضـــافة إلى بعض روايات دونتها في الدامر من بعض المسنين عن جدتي «مســـتورة» رحمة الله عليها، بدأت كتابة الخطوط العريضة لتسلسل قصتها المؤلمة.

نعم ... جدي الناير، لا ســـامحه الله، طرد جدتي التي كانت ملك يمينه، حسب الشرع الإسلامي، طردها من منزله؛ لأنها استجارت بالحاكم الإداري الإنجليزي بمدينة الدامر أيام الحكم البريطاني، حصلت على ورقة حريتها بموجبها أصبحت حرة قانونيا، وليست من بين رقيق جدي المملوكين له حسب الشرع الإسلامي، نتيجة لامتلاكها ورقة الحرية

طالبت المحكمة في الدامر التي يرأسها قاض إسكتلندي، طالبت جدي بتوثيق زواجه الشـــرعي بجدتي، التي كانت ملك يمين وأصــبحت حرة بموجب ورقة الحرية التي مُنحت لها، رفض جدي متمســكا بتعاليم الإســـلام؛ لأن له أربع زوجات حرائر ولا يمكنه إضـــافة خامســـة، بدون رحمة في قلبه، نزع منها طفلها الصــغير وطردها بحجة أنه ابنه الوحيد وأن جدتي لا تملك المقومات المادية لتربيته خارج نطاق بيته الكبير، هامت المسكينة دون مأوى يحميها من جور الزمان، عدا ورقة الحرية التي عضـــت عليها بالنواجز، خرجت من حوش جدي مجبرة تحمل في قلبها مصيرًا مجهولاً وألم الفراق لضناها الوحيد.

كان ذلك الطفل هو أبى إبراهيم.

عاش أبي تحت رعاية زوجة جدي الأولى (نعمه) بنت الفحل عم جدي، نعمة كبيرة الســـن ،يقال: إنها كانت عاقرًا، وبوجود أبى معها في أواخر عمره، تمكنت من السـيطرة على ثروات الأســرة، نجحت في دحر زوجات جدي الثلاث، أقنعته بطلاق الصغرى سنا ثم الثانية ثم الثالثة في أقل من ســنه، انفردت بجدي؛ لتكون زوجته الوحيدة، كان جدي وقت ذاك في آخر ســـنوات عمره، توفى بعدها بسنتين بعمر فاق التسعين.

بعد طرد جدتي، مكســورة الخاطر، لا حول ولا قوة لها، رحلت المسكينة إلي الخرطوم ثم سافرت إلى قرية قبيلتها بعيداً عن الدامر؛ لحماية ورقة الحرية التي منحت لها، فضــلت العيش وســط اهلها، قلبها لايزال يدمي ويتقطع على ابنها الذي نزع منها قهراً وجهرا وكان عمره سنتين، بعد رحيلها إلى قبيلتها وإقامتها سنين، حظيت بزواج شرعي، رزقت بابن واحد، هو عمي أبكر.

وبعد وفاة جدتي في قرية قبيلتها، بحث عمي أبكر حسب وصية أمه، عن أبى، حضر إلى الخرطوم، تعرف عليه، نقل إليه خبر وفاة أمهما، أي جدتي، كان أبي وقتها متزوجاً من أمي (عزة) بنت عمه.

ترك جدي النابر ثروة طائلة، من الأراضي الزراعية حول النيل، والبيوت والمواشي والرقيق، كلها تحت التصرف الكامل بيد الحاجة نعمة، زوجته الأولى، التي تربى أبي في كنفها، توفيت نعمة بعد جدي بعشر سنوات، فآلت كل الثروة إلى أبى.

جدي الشيخ المؤمن القاسي، أورثني عقدة عنترة بن شداد وعقدة زيد الدريدي أبطال الأساطير العربية التي تعكس الفهم العربي المريض اللون الأسود، قصة جدتي عرفتني أن الرق نظام اقتصادي متوحش، أهان كرامة الإنسان على مر العصور، حتى ظهور الآلة، التي كانت المحرر الحقيقي للرقيق، ليس من باب الرحمة أو النزعة الدينية، إنما لسبب اقتصادي بحت، هو عدم الجدوى الاقتصادية للرقيق، فإن (جرار) واحد يقوم بعمل مائة رأس من الأرقاء.

يا ربي ... لا تفارقني قصة جدتي، مأساة مفجعة متكاملة الأطراف، توجد مستنداتها في دار الوثائق السودانية ومركز الوثائق في جامعة درم، احتفظت بألمي وحسرتي وبكل ما عرفته، كنت حينها في سن الثلاثين، بعد رجوعي من دراساتي الجامعية في بريطانيا وحصولي على درجة الدكتوراه في الرياضيات.

بدأت الدوافع الحقيقية المره التي عششت دواخلي، تجبرني على معرفة من أنا وما هو أصلي، وما صلتي بالعرب؟ الذين أشعر بالبعد عنهم منذ طفولتي، وعن كل ما هو عربي أو من يدعي أنه من أصل عربي، حتى اللغة التي أتكلم بها، في كل المراحل الدراسية كنت أحمل عقدة اللون، كان لي عدد محدود من الأصدقاء بالرغم من رغبة الكثير في التقرب مني؛ لتميزي الدراسي، كنت في كل المراحل الدراسية الأول على الجميع، وأنا طالب بمدرسة وادي سيدنا، عبرت بوضوح لأستاذ الدين، عن بغضي لكل المذاهب الدينية التي أباحت الرق، التي أهانت وسمحت باستعباد الإنسان، حينها، وصمني الأستاذ بالزندقة وأمر بجلدي لولا تدخل ناظر المدرسة مستر لانج الإسكتلندي الجنسية أوقف الجلد، في داخل الفصل اعترضت مدرس اللغة العربية الأستاذ سنادة الذي أمرنا بحفظ قصيدة المتنبئ التي أساء فيها إلى السود وصبَّ جام غضبه على الحاكم كافور الإخشيدي الأسود اللون.

لا تزال ذاكرتي تحمل بحوثي في مكتبة مدرسة وادي سيدنا العامرة، راجعت بدقة، نظرة الإسلام للرق من أمهات الكتب والتفاسير عبر التاريخ الإسلامي، صعقت بما وجدته من معلومات منذ ذلك الوقت، معلومات ربما تكون مدسوسة علي الإسلام، مثلا:

- العبد لا يصلي الجمعة كي لا ينشغل عن خدمة سيده، عن النبي قال: «الجمعة حق واجب على كل مسلم إلا أربعة: عبد مملوك، أو امرأة، أو صبي، أو مريض».
- لا يحج العبد إلا بأذن سيده.
- لا يتزوج العبد إلا بأذن سيده، عن النبي قال: «أيما عبد تزوج بغير إذن مولاه فهو عاهر».
- ينكح العبد اثنين وليس أربعة كالحر، يطلق طلقتين ،تحرم عليه زوجته وليس ثلاث كما سمح للحر، وعدة المطلقة الأمة شهرين بدل أربعة.
- العبد ليس من حقه تزويج ابنه أو ابنته إلا بإذن سيده.
- لا يرى فقهاء الإسلام بأسا بملك اليمين أن ينزع الرجل الجارية من عبده يطؤها.
- إذا استولد المسلم عبدة كان ولدها بمنزلة ربها.
- العبد في حال تم عتقه ولاؤه للمسلمين شاء أم أبى.
- (الافتداء بالعبيد): يمكن أيضا في الشريعة الإسلامية استخدام العبيد فدية بدلا من الأموال.

حقيقة أدركتها مؤخرا، ليس الإسلام وحده الذي عامل العبيد بهذه النظرة، بل اليهودية والمسيحية أيضا، حتى الفلاسفة الأوروبيون اشتركوا في ظلم المستعبدين، جمهورية أفلاطون المثالية حكمت بحرمان العبيد من حق المواطنة.

كانت الساعة العاشرة مساءً وأنا أسبح في تاريخ المعلومة وأدون منذ بداية تاريخي الدراسي، أثناء كتابتي يرن التليفون، كانت لفرحتي ليليان فتاة حلمي الشقراء:

- أهلاً دكتور خالد.
- أهلاً ليليان الحمد لله على السلامة.
- متأسفة لعدم اتصالي خوفا من إزعاجك، وأنت متعب من رحلة العودة.
- لا والله ... كنت أريد التأكد من وصولك بالسلامة.
- ماذا قررت في موضوع السكن.
- حقا ... زرت داخلية البنات التابعة لكلية الطب لم تعجبني.
- فما العمل؟!
- أبحث عن شقه وحدي أو الاشتراك مع صديقة سودانية أهلي يعرفونها من أم درمان تعمل في سفارة عربية.
- خيرا ... إن شاء الله أي مساعده أنا حاضر، ما برنامجك غدا؟ يستحسن نناقش موضوع سكنك بروية، نتقابل في كافتيريا الجامعة الساعة العاشرة، سأحضر لآخذك من مكان أقامتك.
- فكرة حلوة، لكن دعها للساعة الواحده، بعد الانتهاء من مقابلة سكرتيرة القبول الساعة العاشرة والنصف، لا لزوم لتعبك، دبرت أمر توصيلي.
- وهو كذلك، شكرا على التليفون ،غدا نلتقي.
- مع السلامة.

بعد تليفون ليليان عج تفكيري بأجندة جديدة تتربع على عرشها ملكة جديدة في حياتي اسمها «ليليان» رغم التشويش الذي كنت أنتظره منها عرضا في حياتي، أصررت في تلك الليلة على مواصلة كتابة قصة جدتي.

بدأ تعليم والدي، عندما تولت الحاجة نعمة تربيته، عنيت بالدرجة الأولى أن يتعلم أحسن تعليم، درس القرآن وحفظه في مسجد والدها الفحل، وواصل تعليمه في الخرطوم، عندما انتقلت أختهت آمنة المتزوجة بناظر مدرسة الدامر الأولية، والذي عين مشرفاً على التعليم الأولي بوزارة المعارف السودانية، كان ذلك بعد وفاة جدي، بفضل نعمة، نال والدي قسطا منظما في التعليم، كان من أوائل خريجي كلية جردون التذكارية، سافر بريطانيا؛ لحضور عدة دورات دراسية في القانون البريطاني.

جدتي الضحية المظلومة التي لم أرها في حياتي، هي موضوع قصتي ... قيدتها جنازير الرق الحديدية القاسية، ظلمها التاريخ العربي المسلم ،ظلمتها كافة الأديان، عقدت عزمي أن أثأر بأي طريقة كانت لدموعها ولقلبها المقطع، قررت أن أهب علمي ومعرفتي ووقتي ومالي؛ لشرح قضيتها للأجيال القادمة، ليعرفوا لماذا هذه القسوة التي تعامل بها المجتمع الإسلامي ممثلا في جدي النايرـ؟! حتى أبي نفسه ابن الأمة، كان عاجزا عن أن يقنعني بما حدث لأمه، كان مغيبا، في مجتمع تقيده الشريعة والدين، مجتمع تقليدي يسيره النص فقط دون فهم ولا يعرف معنى الإنسانية.

الغريب أن المستعمر الإنجليزي لعب دور المنقذ من بطش الدين، كان يلقنهم معنى الإنسان ويطالبهم بإنهاء الرق، بريطانيا التي يقول التاريخ عنها إنها زودت أمريكا الإسبانية بـ ٤٨٠٠ زنجي سنوياً حتى عام ١٧٤٣، وأثرت ليفربول من تجارة العبيد، وكانت تلك وسيلتها لتحقيق التراكم الرأسمالي الأولى.

ربما يكون أجداد صديقي الزنجي الأمريكي مايكل جيبر الذي عرفته في القاعدة الأمريكية، من أهل جدتي ومن نفس القرية التي سُلبت منها؛ لذلك أشعر بقربي إليه أكثر من أي عربي عرفته حتى الآن، بكل أسف، كل ما أسمعه من أبي المثقف، ما حدث لأمه هو قضاء الله وقدره ،يجب أن نتقبله دون اعتراض، قلت له يوما، أرفض ذلك؛ لأن الله لا يمكن أن يريد لجدتي الذل والهوان والتحقير والزجر وهي مسلمة تؤمن به وتصلي له.

جدتي لم تكن سبية في فتح إسلامي، لتصبح مما ملكت أيمانهم، بل نهبها تجار الرقيق المسلمون، قيدوها بجنازير الرق الحديدية القاسية، من وسط قريتها الآمنة، باعوها قهرا لتجار الرقيق وهم في طريقهم إلى مصر لبيعها مرة أخرى، ولبيع الصبية الصغار لخصيهم، بمرور تجار الرقيق، عبر شمال السودان، باعوا جدتي وهي طفلة صغيرة لم تبلغ السادسة، مع بضاعتهم لأحد أثرياء شيوخ الدامر وأولياء الله، وبعد وصولها سن البلوغ، اشتراها جدي منه.

(٣)

أبشع ما قرأته في البحوث التي قمت بها، هو خصي الصبية من العبيد، كان من الممكن أن يحدث لي شخصيا، ومن المؤكد أنه حدث لأفراد عائلة جدتي.

في العهد التركي، كانت تأتي قوافل النخاسين من غرب أفريقيا وشرقها ووسطها، ومعها كميات ضخمة من العبيد الإناث والذكور، في طريقهم إلى أسواق النخاسة في مصر الخديوية، وكانت عملية الخصي كما تسمى «عملية الجب» تجري في مدينتي أسيوط وجرجا، يباشرونها على نحو ثلاثمائة من الارقاء صغار السن، الذين تتراوح أعمارهم من ست سنوات إلى تسع كل عام، ولا يقتصر القائمون بها على بتر عضو التذكير وحده، بل يبترون بالموس جميع الأجزاء البارزة المرتبطة به ثم يصبون في الحال على مكان البتر الزيت المغلي ويركبون أنبوبة في الجزء الباقي من مجرى البول، وبعد الزيت، يلقون على مكان الجرح مسحوق الحناء ثم يدفنون الفتى في الأرض إلى ما فوق بطنه، وبعد أن يتركوه في هذه الحالة يومًا كاملًا، يخرجونه من التراب، يدهنون مكان الجرح بعجينة من الطين والزيت، ربع الغلمان الذين تجري عليهم هذه العملية لا يعيشون بعدها.

يتم إرسال هؤلاء الخصيان من الصبيان، إلى القصور لحراسة الأميرات ونساء الوجهاء، وبعضهم إلى مكة والمدينة؛ لحراسة الكعبة وحراسة قبر الرسول.

وجدت في مدونات التاريخ الإسلامي أن تاريخ الخصيان، يعود الى عهد معاوية بن أبي سفيان، فهو أول من وضع خداما للكعبة المشرفة من العبيد، وأول من اتخذ المخصيينّ لخدمة الكعبة هو يزيد بن معاوية، وأول من رتب المخصيين في المسجد الحرام هو أبو جعفر المنصور، أما خصيان الحرم النبوي الشريف، فيعود تاريخهم إلى زمن صلاح الدين الأيوبي، فهو أول من عين خصياناً لخدمة المسجد النبوي الشريف.

يرن التليفون أضع قلمي:

- أهلاً
- أهلا دكتور خالد أنا جستن.
- أهلاً كيف أحوالك؟!
- بخير ... فكرت أنا وصني في زيارتك مساء الغد.
- أهلا بكما، ليكن اللقاء عندي بعد الساعة العاشرة.
- حسنا.
- إلى اللقاء.

لم اواصل الكتابة، فضلت النوم مبكرا، في الصباح توجهت إلى مكتبي في الجامعة لأول مرة، بعد غياب أسبوعين، راجعت بعناية كل ما يلزم محاضرة يوم الأربعاء القادم، اتصلت ببعض المساعدين، طلبت حضور الآنسة كلوديا، المساعدة الأولى، وهي التي تعمل تحت إشرافي؛ لنيل الماجستير في الرياضيات، طلبت منها أن تظل في مكتبي لتنظيم ملفات الطلاب، والرد على المكالمات أثناء غيابي، قررت انتظار ليليان مبكرا في الكافتيريا، تمشيت بهدوء؛ لأن مقابلتنا ستكون بعد نصف ساعة، عند وصولي فوجئت بوجودها قبل موعدنا في الكافتيريا.

- أهلا ليليان ... يبدو أنك حضرت مبكرا؟!
- نعم، انتهيت من مكتب القبول في وقت قياسي، اتصلت بمكتبك، ردت على سيدة

- إنها كلوديا من الأردن، تحضر للماجستير وتعمل معي في المكتب.

- لقد طلبت كوبا من الشاي قبل حضورك، ماذا أطلب لك؟

- قهوة من فضلك ... كيف حالك بعد تعب السفر؟

- الحمد لله ... لكن موضوع السكن يزعجني لأبعد الحدود.

جلست على الكرسي المقابل لها، بدأت التمعن والتدقيق في وجهها الملائكي الوديع، لاحظت مع ضوء النهار حقيقة زرقة عيونها الناعسة، تتحرك بهدوء يتسرب إشعاعها إلى دواخلي كأشعة الشمس وهي تبدأ في المغيب تاركة الدهشة والضوء الكافي لإسعاد النفس، شغلني سر عيونها الذي يوحى ببعض مجاهل تاريخ أصلها الذي أجهله تماما، تاريخ لم يشعرني بأنه تاريخ هجين عربي ملوث بالدم والحروب وتقسيم السبايا والرقيق.

بعد تداول مبسط في موضوع سكنها، انتهينا سويا إلي خيار شراكة السكن مع السودانية محاسن التي لها علاقة جوار قديم مع أسرتها، تعمل بأحدى السفارات العربية في بيروت، من الناحية الأمنية بالنسبة لها هو الأحسن في مدينة تضج ليل نهار بالسواح والطلاب ورجال الاعمال.

أخبرتني ليليان عن السيدة محاسن، مطلقة، تعمل مستشارة قانونية في سفارة عربية، رجع زوجها السابق إلي السودان، اختارت الإقامة مع ابنتها الصغيرة، والاستمرار في العمل والتمتع بمرتب محترم والسكن المدفوع بواسطة السفارة.

قررت ليليان أن نزور محاسن سويا في نفس اليوم بعد ساعات العمل، قبل التحرك إلى شقة محاسن أخذت ليليان إلي مكتبي عرفتها على كلوديا التي فضلت الخروج من مكتبي، تركتني مع ليليان، وجدت نفسي مع ليليان لأول مرة في مكان وحدنا، لم أعرف من أين أبدأ؛ لأعرف عنها، أو كيف أعرفها بنفسي بطريقة أسرع، شعرت بأنني منتهك تماما مشروع قصة جدتي متوقف أمام هذه الشابة التي دخلت أو أدخلتها بفضولي في حياتي بالصدفة، استمررت في التداول مع ليليان.

- يا ليليان من الأحسن أن أوصلك إلى شقة محاسن وأنتظرك حتى تنتهي من التفاهم معها، أنا لا أعرفها وربما أيضا تستثقل وجودي معك، دعيني أظهر لاحقا بعد أن تؤجري منها الحجرة.... فما رأيك؟؟

- أنا لا أرى فيها شيئًا يا دكتور إلا إذا عندك شيء آخر.

- لا تنسي أن محاسن تشتغل في سفارة، وربما تكون مراقبة من جهة أمنية، فوجودي معك ربما يعقد الموضوع.

- لا مانع أن نتحرك بعد نصف ساعة ،هذا هو العنوان.

كتبت العنوان، بحثت في خارطة بيروت التي كانت في مكتبي، عرفت الطريق بوضوح.

سألتني ليليان:

- متى نبدأ دراسة كتاب رأس المال.

- الأسبوع القادم، لننتته من استقرارك أولا.

- على فكره، لم أناقش موضوع السكن مع أهلي، دعني أذهب إلى مكتب البريد للاتصال بهم ثم أرجع فوراً.

- لا لزوم أن تضيعي وقتك .... ممكن تتصلي من هنا.

طلبت من السنترال خط السودان، تركت ليليان في اتصال تليفوني مع أهلها خرجت؛ لأتيح لها حرية الكلام.

رجعت بعد ربع ساعة، كانت ليليان قد أنهت الاتصال، شعرت بأنها غير مرتاحة، خرجنا سويا من المكتب إلى موقف السيارات حيث أوقف سيارتي المرسيدس المكشوفة ذات اللون الأحمر القاتم:

- تفضلي .

- سيارتك ما شاء الله حلوة، لو أمكن تغطيها.

- لا مانع هيا بنا.

- يا دكتور، أبي غاضـــب من فكرة تغيير مكان ســكني، لكن مادام أمي اقتنعت مؤكد أنها ســـتقنعه ،هذه عادته تحفظ زائد عن اللزوم.

- لوكنت في مكانه ســأعمل الشـــيء نفســه... أكيد أنه يخاف عليك.

- هل أفهم أنك رجعي أم ماركسي؟

- ممكن تقولي إنني رجعي إلي حد ما، نحن في الســـودان رجعيون بالفطرة، ألا تعتقدين ذلك؟؟

- ما قلته يا دكتور حقيقة؛ لأن زواج خالي الذي أهداني مجلد رأس المال، خلق لنا مشكلة في العائلة

- خير....... أي نوع من المشاكل؟

- أمي وأبي وأخي، لم يكونوا راضـــين عنــه؛ لأنــه تزوج ســـودانية من قبيلة الشـــايقية؛ بدلا من الزواج من أفراد أســـرتنا الألبانية الأصل، زوجته فتحية الرائعة الجميلة؛ أصلا زميلته في الجامعة؛ خالي شخصيه قوية لم يهتم؛ ابتعد عن جميع أهلي، كان اعتراض أخي، صارخا ،على فكرة أخي إسلامي متشدد.

- هذا هو رقم العمارة ،أنا في انتظارك.

نزلت ليليان وأنا في انتظارها داخل سيارتي عند موقف العمارة الخارجي، أثناء انتظاري، بدأت أفكر في موضـــوع زواج خال ليليان الذي لا أعرف تفاصـــيله، لكنه أثار كوامني الإثنية المعقدة، أعاد إلي شـــريط التاريخ المؤلم لجدتي، قلت لنفســـي، هذا عالم متشابك نعيش فيه بعشوائية، قصة زواج خال ليليان أضافت علامة تعجب وفرحة في دواخلي ،قربتني إلى أمنيتي الجديدة ليليان.

في أقل من ربع ساعة نزلت ليليان من العمارة مبتسمة، أخبرتني بموافقة محاسن، لكنها لم تتطرق إلي موضوع تكلفة الحجرة، قالت: إن محاسن ستتصل بها بخصوص التفاصيل، ميعاد الانتقال سيكون الجمعة القادمة.

توجهنا معا إلى مطعم بجوار شـقتي، تعودت تناول وجباتي فيه، جلست مبهورا بجمالها الملفت، فرحا بجلوسـها أمامي دون حواجز أو خوف، كأني شـــاعر يناجي طيفا لفتاة أحلامه، يطلي بالكلمات لوحة من أبيات الشـعر المنمق الرصـين، كنت شـحيحا في إعطائها معلومات عن شـــخصـــي، لم أكذب عليها قط لكن احتفظت بما لم أسـأل عنه، هكذا تعلمت من البريطانيين، كلمتني دون تردد عن أهلها آل الشـاهر، من أصـول البانية، هم أكبر تجار الأقمشـة في السـودان، أنا أعلم ذلك بحكم شـهرتهم ومحلهم الكبير في شـارع الجمهورية في وسط الخرطوم.

غضبت منى عندما قلت لها:

- حسـب علمي أن أهلك جاءوا السـودان؛ لمعاونة الحكام البريطانيين في إدارة السودان كالمصريين و الأتراك والسوريين والأرمن وغيرهم، يديرون البنوك والقضـاء والتعليم ويسيطرون على الصادر والوارد داخل شركات من أصول بريطانية،

قالت بصوت حازم:

- أرجوك يا دكتور أن تعرف، أهلي جاءوا السودان هربا من الاضـطهاد، الذي عانوه من الدولة العثمانية، أجدادي لم يجدوا مفرا إلا أن يكونوا ضـمن الجالية الشـامية أو السـورية الموجودة في السودان التي تقصدها.

- متأسـف يا ليليان، لكن هذا ما نعرفه نحن سـكان البلد الأصليون.

- سـكان البلد الأصـليون هم الجنوبيون، إذا أردت أن تتكلم عن التاريخ يا دكتور، أنتم تنظرون إلى اللون فقط؛ لذلك لم تفرق بين الأرمني والسـوري والمصـري، صـدقني نحن نعيش تمدقا تاريخيًا اجتماعيًا حتى الآن، عليه، ليس هذا الوقت المناسـب لمناقشة هذا الموضوع.

-

- ليليان أنا مـــتأسف، يبدو أنك أخذتي الموضوع بحساسية، وأنا أتكلم لمجرد الكلام، ربما يصعب على تدريسك رأس المال، إذا أنت بهذه الحدة، أليس كذلك؟

ضحكنا سويا:

- لا تتهرب من وعدك، الكتاب فيه رياضـــيات ومعادلات أكبر مني، أنت دكتور رياضيات.

- وهو كذلك، لنر الأسبوع القادم.

شعرت بأنني ثقيل الظل، غير قادر على إدارة الحوار كعادتي ، شعرت بفشلي الكامل في نقل شخصيتي إلى ليليان في ذلك اليوم، اتضح لي أنها ليست بالسهلة أبدا، إنها تتمتع بدراية غير عادية، لا تتصنع الحديث أمامي، شعرت بالضعف أمامها، تجاربي السابقة متشـــابهة إلى حد بعيد، في الحوار مع الجنس اللطيف، في أي بلد زرته، هل أنا أمام طالبة أم معلمة!! يجب إعادة إســـتراتيجيتي نحو ليليان، فهي رقم آخر تختلف عن غيرها من بنات حواء، حان وقت مغادرة المطعم، فشلت في تقديم نفسي إليها بالصورة التي أردتها، ربما أظهرت جهلي ببعض قضايا الوافدين إلى السودان عامة.

نهضت ليليان من مقعدها ،قالت:

- لا أزال أسكن تحت رعاية الراهبات، يجب الوصول قبل السابعة مساء إلى منزلي، هيا بنا يا دكتور.

- حسنا فلنشرب شايًا أو قهوة قبل مغادرتك.

- الشاي أو القهوة تؤرقني، أفضل الذهاب.

- وهو كذلك، اتركي لي مهمة نقلك ،ســأقوم بترتيب ســيارة الشحن وعمال التغليف.

- يا دكتور أنت مشاغلك كثيرة مما رأيته في مكتبك اليوم.

- لا يهمك، كلها ساعات.

-

تفاعلت كيمياء صاخبة مبهمة دارت بيني وبين ليليان، استحسان صامت يدفعنا لارتباط وليد، بالرغم من انبهاري وإشباع فضولي يسير بخطوات سريعة، لكني فقدت مقدرة القيادة كما كنت دائما مع من تعرفت بهن من بنات حواء، ليليان بصمة صدفية صادقة تسربت في دواخلي وغيرت اتجاه مجهودي في مواصلة مدوناتي الذي أكرسه لكتابة مأساة جدتي التي ظلمها التاريخ، في الطريق تناقشنا في الدين وأعجبت كثيرا من المداخلات التي شاركتني بها، وهي المرادفة حقا لتفكيري الشخصي، وصلنا إلى منزلها، أوصلتها إلى الباب، انتظرت حتى دخلت، ودعتها ثم اتجهت إلى سيارتي المحاذية للعمارة.

(٤)

تفارقنا ولم نتفق على موعد، وبدأت رحلة العودة إلى منزلي الذي يبعد عشرين كيلو مترًا من مسكنها، وفي الطريق عرجت على متجر اشتريت ما لزم لضيافة جستن وخطيبته صني الأمهرية من مأكولات ومكسرات وزجاجة ويسكي بلاك ليبل وزجاجة فودكة فنلندية وكرتونة من بيرة بلزينر التشيكية.

قبل وصولي طلبت بالتليفون السيدة أم محمد خادمة منزلي؛ لتسبقني إلى الشقة، وهي التي تقوم بالنظافة وتقوم أيضا بتحضير الأكل لضيوفي، طلبت حضورها فورا، فعلا وجدتها بدأت بالتحضير قبل وصول الزوار بما لزم من المشويات أعدت سفرة شهية، وبعد نصف ساعة وصل «جستن» ابن السفير الهولندي وخطيبته الدكتورة «صني» الإثيوبية، ملكة جمال الجامعة الأمريكية المنتخبة، «جستن» شاب ذو ميول ماركسية، يساند القضية الفلسطينية ومن الذين عملوا في حملات الإغاثة في إثيوبيا والسودان.

«صني» كانت أقرب الفاتنات إلى قلبي، حين بدأت العمل في الجامعة، أقامت معي في شقتي أكثر من ثلاثة أشهر في علاقة حب حميمية، لدرجة أني كنت أذهب معها إلى الكنيسة الإثيوبية في بيروت لحضور القداس أيام الأحد، لم أكن متأكدا عندما طلبت الزواج منها في بداية علاقتي بها

لكنها صـــــارحتني بـأنـها لا ترغب في الزواج إلا بعد إتمـام دراستها، عندما ارتبطت بـــ«جستن» صارحته بكل ما حصل بيني وبينها، مما وطد علاقتهما معا بدون عقد.

قضينا سهرة ممتعة في شقتي، أعدنا ذكريات الماضـي، استمعنا أسـطوانات ري شـــارلز واســتيف وندر، تعاطينا ما طاب لنا من المشروبات، عند الثانية صباحا وبعد إصرار مني، نام «جستن» و « صـنـي» في حجرتي الخاصـة، اخترت لنفسـي حجرة الضـيوف، صـعب علي النوم وأنا أسـمع الضـحكات تنبعث من حجرة نومي، فجأة بدأ أمامي شريط حياتي الماضـي مع «صـنـي»، أخيرا فضلت الجلوس بعيدا على مكتبي المجاور للصـــالون؛ لمواصـــلة كتابة قصتي، أضفت إليها عدة أسطر:

اجتماعيا في مدينة بيروت، وجدت مكاني التلقائي، بدون عناء مع الجنود الأمريكان السود المقيمين في القاعدة الأمريكية والمركز الثقـافي بحكم عملي معهم مترجمًـا، لم يحملوا عقـدتي؛ لأنهم لا يتكلمون العربية ولا يفهمونها، كنت أتبادل معهم الأفكار السياسية، فوجدت أن ما يربطني بهم، أكثر مما يربطني باللبنانيين بل بقية العرب، وهذا ما دفعني للبحث عن ذاتي، سألت نفسي:

- لماذا نتكلم العربية في بلدي أصلا ؟!

وبعد شـعوري بالنعاس رجعت إلى حجرة الضـيوف، غبت في نوم عميق، أفقت مبكرا دخلت الحمام، لدهشـــتي، وجدت نفسـي وبدون قصـد أمام صـنـي تغتسـل عارية كما خلقها الله، تراجعت بسرعة بعد أن تجمعت الصورة التي أعرفها بأكملها سابقا، همست بكلمة سـوري، ردت صـنـي، بضـحكة خافتة، أحكمت قفل الباب، عندها تذكرتها أمامي قبل أربعة أشـهر، نفس الجسم الرائع الأسـمر بتضاريسه المثيرة.

بعد ذلك المشهد في ذلك الصباح الجميل، قلت لنفسي:

- ما أسـعدك يا «جسـتن» وما أتعسـك يا خالد! لماذا تخليت عن هذا الملاك الأسمر ؟!!!

خرجت صني من الحمام حضرت إلى المطبخ معها جستن كل منهما يغطي جسده بفوطة من الحمام ،تبادلنا السلام الصباحي، بعد ذلك أسرعت بعدهما إلى الحمام، دار شريط الذكريات في مخيلتي، استعرض أمامي أروع النساء اللاتي دخلن معي هذا الحمام، بداية من زوجة الملحق العسكري المغربية قبل زواجها، كانت وقتها طالبة تحت محاضراتي، لم تكمل دراستها بسبب الزواج، أصبحت الزوجة الثانية لرجل يكبرها بأربعين سنة، تذكرت المارونية المتدينة المجهولة الهوية، سعدية الحلبية كما يحلو لي مناداتها، من مدينة الأبيض، تزوجت بابن عمها بعد تخرجها، لم أسمع عنها بعد ذلك، ثم صني الصولجان الأمهرية.

توقف الشريط، أفقت من أحلامي على ماء الدش الذي بدأ يبرد، أدخلت جسدي العملاق في معطف الحمام، انضممت للمجموعة في المطبخ، شربنا الشاي ،بعده القهوة الأثيوبية، قامت «صني» بإعدادها بكل الطقوس الأمهرية والأواني الخاصة، التي تركتها عندي بعد انتقالها إلى شقة «جستن».

في الصباح تركت جستن وصني في الشقة ، ذهبت إلي الجامعة، لهما المعرفة الكاملة بجغرافية المكان، كنت على موعد؛ لمقابلة أستاذ زائر من جامعة ستانفورد الأمريكية لمناقشة ماجستير الآنسة كلوديا.

بعد نصف ساعة من وصولي إلى مكتبي في الجامعة يرن التليفون:

- أهلاً

- سلام دكتور؟ ليليان معاك.

- أهلا ليليان ما الأخبار؟!

- اتصلت بك في البيت، ردت على زوجتك... متأسفة ما كنت أعرف أنك متزوج.

- من زوجتي؟ .... تقصدي صني ...لا، إنها خطيبة صديقي «جستن»، ابن السفير الهولندي.

- على أي حال سامحني متأسفة.

- يا ليليان الموضـوع بسـيط لا يوجد إشـكال، أعرفك عليهما قريبا.
- المهم موضوع نقلي يوم الجمعة لاغ.
- خير إن شاء الله.
- أمس جاء أخي من السودان، سيقوم بالواجب.
- خيرا ... لكن ... أرجو ألا تكوني غاضبة.
- لا إشكال، شكرا على كل شيء قدمته... مع السلامة.
- من صوتك أشعر أنك غاضبة... على أي حال متى نتقابل.
- سنرى ... مع السلامة.

سـكتت ليليان، طار طائر الحلم الجديد من قلبي، يا للهول انقطع الاتصـال يومها مع ليليان، جمعت شـتاتي من آثار تلك المكالمة، أندب حظي، اسـتوحش نفسـي، لا سـلطان أجده على قلبي غير ليليان التي قررت الغياب عني، التفت إلى الزائر دكتور مازرفسكي، بدأنا مناقشة رسالة الماجستير للمعيدة كلوديا، كانت بعنوان.

تحويل المعـادلات التفـاضـليـة الجزئيـة إلى جسـم مرن إلى المعادلات التكاملية على سطح كرة .

بعد المرور على العشـر صـفحات الأولى، توقفنا، انصـرف كلٌّ منا؛ لإلقاء محاضـرته، على أن نسـتمر بعد سـاعة، في مواصـلة المراجعة.

تركيزي لم يكن جيدا كعـادتي، عـاصـفـة ليليـان أغلقت الطريق أمامي، فما أكاد أهتدي الى طريقي الذي وضـعت لبناته الأولى على قلبها الصـادق، لم أكن مرتاحا كالعادة في إلقاء محاضـرتي التي كانت بعنوان:

حول نظريـة الاضـطراب وتطبيقـاتهـا على المنظومـات الديناميكية.

تركت قاعة المحاضرات كأن وجوه الطلاب تحيط بي وتتبعني؛ تعرف كنه مشـــاعري في ذلك اليوم، الذي كان مزيجا من الحب والخوف والحزن والسرور والأمل، رجعت إلى مكتبي، طلبت من دكتور مـازرفســكي مرافقتي إلى الكـافتيريـا، معرفتي بـدكتور مازرفسكي اليهودي الأصـل كانت قديمة منذ أن كان مسـاعدا في جامعة وارســو ،قبل هروبه من موطنه الأول جمهورية بولندا الاشتراكية إلى الولايات المتحدة الأمريكية، اختلافنا السياسي كان محتدما دائمًا، لكن ظللنا أصدقاء تحت لواء الرياضيات.

جلسـت مع صـديقي دكتور مازرفسـكي ،كل منا يفضـفض عما بداخله من مشــاكل خاصــة، أنا أحمل من الهم ما أقلق مضــجعي، فضياع ليليان أدخل اليأس في حياتي ورجاءها في آن واحد، ما كان يشـغلني في تلك اللحظة هاجس صــعبت على إجابته، اتصــال ليليان التليفوني الســريع، وســوء الفهم وإلغاء مهمتي في مســاعدتها في الانتقال، لم يكن تركيزي جيدا مع دكتور مازرفســكي ،الذي بدوره مثلي يبكي على ليلاه، حدثني عن مأســاته العاطفية مع كلوديا، فهي يهودية ذات أصـول عربية، وأنه غامر بالحضـور إلى بيروت كأستاذ زائر، مع الرغبة في الزواج منها برغم المخاطر السياسية، التي تحف المنطقة الملتهبة بالقضـية الفلسـطينية، وتطرف الزعيم المصـري عبد الناصر.

أثناء وجودي مع الدكتور مازرفســكي دخلت كلوديا الكافتيريا، جلســت معنا، طلبت لها قهوة انســحبت بهدوء إلى مكتبي متعللا باتصال تليفوني مهم، تركت مازرفسكي معها.

انصــرفت منكسـرا أبحث عن سـبيل لترميم حالتي المبعثرة بين أحداث اليوم الغريبـة ،غيـاب ليليـان المفـاجئ عن حيـاتي قبـل أن أتعرف عليها بطريقة أفضــل أو تتعرف علي، نعم وقعت في حبها، اســتســلمت لهزيمتي أمامها، ماذا أصــابني وأنا رجل التجارب المستحيلة مع النساء؟!

خرجت من مكتبي إلى منزلي حزينا، قلت لنفسي ما أسرع تقلبات الأيام وما أغربها، ما بين يوم وليلة تنهد الآمال العراض التي كنت مستبشرا ببنائها؟! عند وصولي وجدت الشقة مرتبه بشكل رائع وهو ما تعودت صني عمله طيلة الأيام التي قضتها معي، على طاولة المطبخ وجدت رسالة منها كتبت فيها:

- شكرًا حبيبي خالد، على فكره اتصلت بك واحدة ولم تذكر اسمها، من هي يا ترى؟!

راجعت بريدي الصوتي متلهفا لرسالة غفران وتسامح من ليليان، بكل أسف، لم أجد إلا رسالة قصيرة من أمي، تسأل عن حالي، طلبت مني ضرورة الاتصال في مساء اليوم، بين الخطابات التي وجدتها في بريدي دعوة من الجامعة الخليجية التي تعاقدت معها منذ ستة أشهر على إنشاء شعبة للرياضيات، مرفق مع الدعوة رسالة للسفارة للحصول على تأشيرة الدخول.واستلام قيمة التعاقد مقابل استشارتي.

لم يتغير مزاجي، ظل الاكتئاب يرافقني ،أندب حظي العاثر، شعرت بالإرهاق الشديد، تمكنت بعد جهد من معالجة النوم حتى الساعة التاسعة مساء، بعد حمام دافئ نزلت إلى المطعم المجاور؛ لتناول وجبة سمك مشوي، رجعت إلى شقتي؛ لأواصل قصة جدتي التي أهملتها طيلة الأسبوع الفائت، لعل انشغالي بها ينسيني ما أنا فيه من صدمة من ليليان ربما تكون أيضا عنصرية .

جلست إلى مكتبي، فتحت كراسة المدونات راجعت بحثًا مهمًا عن بداية البغاء في شمال السودان، أثناء الحكم التركي، قبل قيام الثورة المهدية، غطي البحث بداية بيوت البغاء التي امتلكها أثرياء القوم وأصحاب الرقيق، بما يسمى «الأنادي» جمع «أنداية» أي حانه، مكان تعاطي الخمور البلدية، وتُقدم فيه الخدمات الجنسية عن طريق فتيات صغيرات السن من المسترقات بمقابل مالي يدفع لمديرة الحانة، كان يدار بواسطة الارقاء كبار السن، المستفيدون هم كبار التجار وعلية القوم أصحاب الرقيق، بعد قراءة الورقة زاد جنوني، كتبت:

- لا أستبعد أن جدتي كانت من بائعات الهوى، مارست البغاء في الأندايات المنتشرة، حسب الأعراف المتبعة في ذلك الوقت ، بكل أسـف، لا أسـتبعد أن جدي إشـتراها وهي في بوادر الحمل بوالدي، هذا أقرب إلى الحقيقة؛ لأن جدي حسـب الروايات التي سـمعتها، لم ينجب من حريمه الأربع حتى موته، كل هذا إن كان حقيقة أم لا، فإن جدتي تعلمت من سـيرتها كيف أواجه الحقائق ولا أنحني لمحن الزمن، لا أزال أحبها ولن أخجل أو أتخلى عن انتمائي إليها، لا إثم عليها أمام الخالق في كل ما فعلته في هذه الدنيا، لقد كانت مجبرة، لا حول ولا قوة لها.

أضفت:

- أثناء زيارتي الأخيرة إلى البلد، وأثناء جلسـة شـراب مع أصـدقائي من الطفولة في منزلنا المميز، الموروث من جدي الناير، مبني من الطوب الأحمر والحجارة، فيه أثاث مستورد من مصـر، كنا نملك ضـمن ثلاثة أسـر، راديو وفونغراف، تذكرت النور الجيلي، كان من شـلتي في المدرسـة الأولية، نشأ مزارعا فاشـلا، ورث أرض أجداده وهم من أعيان البلد، باعها لوكيل والدي، أصبح متسولا بين الأهل والأصدقاء، يعيش على العطايا وما يتبرع به أهل البلد، كان يطلب مني في أي زيارة أقوم بها للبلد، بدون حرج مبالغ بسـيطة، أعطيها له دون تردد، لكن في زيارتي الأخيرة، طلب مني عشـرين جنيهًا، يعتبر مبلغًا كبيرًا نسبيا، طلب مني أيضا أن أساعده في ترجمة رسائل ترد إليه من الخارج باللغة الانجليزية، لكنني هذه المرة تعمدت تجاهله، من وقتها شـعرت بحقده عليَّ، في آخر جلسـاتنا وهو في حالة سـكر قال جملة لم انتبه إليها وقتها:

- العبيد يشترون والأسياد يبيعون.

من المؤكد أن النور كان يقصـــدني، الحقيقة أن أبي اشـــترى معظم الأراضـــي المعروضـــة للبيع في البلد بواسـطة وكيله، ربما كان النور يعرف عن أسرتي أكثر مما أعرفه، ما قاله يعكس حقيقة يصـعب على الإمسـاك بخيوطها، كان تفسـيري لما قاله، في ذلك اليوم، هو الحقد لا أكثر ولا أقل، ليســـت جديدة على العقدة الأكبر التي أواجهها وهي، العنصرية داخل وطني نفسه، تفوق العنصرية التي قابلتني خارجه، لكن بقوة عزمي وإصراري على كتابة قصة جدتي الحقيقيـة، لا تـأخـذني لومـة لائم ،واجبي هو التعرف على المجهول من تفاصـــيل تاريخها؛ فلذلك قررت في زيارتي القادمة أن أدفع أي مبلغ يطلبه مني النور الجيلي ،لابد لي من مساعدته في ترجمة الخطابات التي كانت تصـــله من الخارج، الجلوس معه بطريقة ما؛ لأعرف منه ما كان يرمي إليه عندما قال جملته التي لا أنساها:

- العبيد يشترون والأسياد يبيعون.

نظرت إلى الساعة، كانت الثانية صباحاً، وضعت قلمي، أخذت معي من مكتبتي، الاتفاقية الخاصـــة بالرق، وقعت في جنيف يوم ٢٥ أيلول/سبتمبر ١٩٢٦ قرأتها، خلدت لنوم مضطرب.

(٥)

مرت أســـابيع ولا أثر لليليان، أتوجه مبكرا إلى مكتبي، أتناول الإفطار والقهوة في كافتيريا الجامعة، تحيط بي تعاســـة أظلمت طريقي وتطلعاتي بعد فقدان ليليان، من باب إشـغال نفســـي وإبعاد كابوس الكآبة، اتصلت بالسفارة الخليجية مستفسرا عن الدعوة من الجامعة التي تعاقدت معها منذ ســـتة أشـــهر على إنشـــاء شـــعبة للرياضـــيات، اسـتفسـرت عن موضــوع ما ورد في مذكرتهم، ما متطلبات الحصول على التأشيرة، حولتني سكرتيرة الاستعلامات إلى المسؤولة، من لهجتها عرفت أنها السيدة محاسن السودانية التي تسكن معها ليليان، حمدت الله

رحبت بي بكل أدب واحترام، أخبرتني أن طلب الفيزا بالنسبة لي وصلهم من الجامعة، ليس على إلا إحضار صورتين وجواز السفر؛ لختم الفيز وهي معفاة من الرسوم، زيادة على أن هنالك مبلغ ألفين إسترليني عبارة عن قيمة التعاقد، مع تذاكر سفر درجة أولي، وحجز بفندق هيلتون.

شكرت السيدة محاسن على المعلومات، أخبرتها أنني في طريقي إلي السفارة، كل ما أعرفه عن السيدة محاسن كان مجرد صدفة من ليليان، شعرت بالفرحة وأنا في طريقي إلي السفارة، لا لموضوع السفر وملحقاته، بل فتح طريق يوصلني إلي ليليان التي اختفى أثرها عني منذ أسابيع ،التي سيطر طيفها الملائكي على حياتي من كل الاتجاهات.

استقبلتني محاسن في مكتبها الأنيق، شعرت أنها تعرف عني ما يتيح لها الحديث معي خارج برتوكول الفيزا، محاسن امرأة جميلة لونها أسمر فاتح، عمرها يقارب عمري، لبستها الأنيقة تدل على أنها من بيت متحرر، سلمتني كل ما يخص رحلتي، ختمت الجواز، كنت على وشك فتح موضوع ليليان، لكنها تركت كرسي مكتبها، جلست في الجانب المقابل لي، على طاولة الاجتماعات بمكتبها؛ لتواصل معي تناول القهوة:

- إننا نعرف الكثير عنك يا دكتور من خلال صحف بيروت،

- نعم، أقوم بمحاضرات في النوادي الثقافية خارج نطاق تخصصي، ولي ندوة أسبوعية بالمركز الثقافي الأمريكي.

- أيضا عرفت عنك، من ليليان، الطالبة الساكنة معي.

شعرت براحة وتفاؤل أكثر من اليوم الذي منحت فيه الدكتوراه، كنت أريد معرفة أي شيء عن ليليان لكن يبدو لي الآن بعد ما قالته محاسن سأعرف الكثير دون مجهود:

- كيف أحوال ليليان؟

- بخير لكنها بصراحة، زعلانة منك.

- لماذا؟!!

- كلمتني عنك كثيرا، وعن التعارف في الطائرة، وكل ما دار بينكما ... اعترفت لي أنها ارتاحت لك بدون أن تعرف عنك شيئًا، وبعد أن عرفت أنك متزوج فضلت طي صفحتك بسرعة عن حياتها.

- سوء حظ وسوء فهم .... أنا غير متزوج، ليليان لم تعطني فرصة لأشرح لها، والله لست متزوجا ولم أفكر بعد في الزواج.

- هذا خبر مفرح، بالنســـبة لها، تتكلم كل يوم معي في هذا الموضوع، لا مانع عندي في إصلاح ذات البين، وإذا أحببت قبل سفرك، تشرفنا في البيت؛ لجبر خاطر هذه البنت الطيبة.

- كثر الله خيرك يا سيدة محاسن، هذا كلام جميل، لكن لابد من موافقة ليليان أولا... أرجو ألا يسبب هذا الموضوع، إزعاجًا بالنسبة لكِ أو لها.

- إذا كنت لا تمانع ... ما رأيك مساء اليوم؟

- أنا لا أمانع، لكن أحسن موافقتها أولا.

- سأطلب منها الاتصال بك اليوم العصر.

- على فكرة هل أخو ليليان موجود؟

- أعتقد أنه سافر إلى السعودية، أول أمس؛ لأداء العمرة.

- ما رأيك لو أنا اتصلت بها بدلا عن اتصالها بي؟! ربما أنها لاتزال غاضبة مني.

- فكرتك أحسن ... وهذا كارتي الشخصي، فيه تليفون البيت ... لكن ليليان أوصلت تليفونا خاصًا بها قبل يومين، اتصل بي أولا وأنا أقوم بما لزم.

- شكرا لك مدام محاسن، مجهوداتك الطيبة، مشكورة.

تحركت محاســـن بســـرعة إلى مقعدها المكتبي؛ لترد على تليفون، رجعت إليَّ:

- يطلبني القنصـــل لموضـــوع مهم الآن، أتوقع تليفونك بعد ثلاث ساعات من الآن يا دكتور.

- وهو كذلك، مع السلامة وإلى اللقاء.

كدت أطير من الفرح بعد خروجي من مكتب محاســن، راجعت بطاقتها، وجدت أنها المستشـارة القانونية للسفارة، من تلك المقابلة الميمونة، بدأت الاستعداد لمقابلة ليليان العصية، كيف أجاوبها على اتهاماتها الوهمية؟ عليه، لم يخب ظني بعد مقابلة محاســـن، تأكدت أن ليليان تبادلني شعور محبة خفي، بمستوى محبتي الصامتة لها.

رجعت إلى شقتي؛ لآخذ قسطا من الراحة؛ ولأحضر نفسي للقاء واعد؛ انتظرت على مضض الساعة السادسة، لا خبر من محاسن.

فجأة يرن جرس التليفون أسرعت مضطربا؛ للرد عليه:

- ألو.... محاسن؟

- أنا جون كاسبر، يا دكتور خالد، من المركز الأمريكي.

- متأسف يا جون كيف حالك؟

- بخير ... نحتاج حضورك بأسرع ما يمكن.

- متأسف لا أتمكن إلا بعد العاشرة مساء.

- حسنا نحن في انتظارك ... مع السلامة.

- إلى اللقاء مستر كاسبر.

وضـعت السـماعة وأنا في حالة اضـطراب وانتظار وإسـراع .... الساعة السادسة الآن ميعاد مهاتفتى للسيدة محاسن، انتظرت عشر دقائق ، اتصلت بعدها:

- أهلاً مدام محاسن.

- أهلاً دكتور خالد.

- متأسف على الإزعاج وإن شاء الله كل شيء تمام.

- مرحبًا بك لكن ليليان لم ترجع البيت حتى الآن ،لم أتمكن من إيصال الخبر إليها.

- سوء طالع، أحسن أنا انتظر حتى رجوعها.

- وهو كذلك لكن بالرحب إذا قررت الحضور.

- أشكرك مدام محاسن من الأفضل أن أنتظر.

- معك رقمي في البطاقة لو سمحتي اتصلي بي إذا رجعت ليليان ووافقت على حضوري، مع السلامة.

- إن شاء الله خير مع السلامة.

وضعت السماعة مع شعوري المؤكد بسوء الطالع ..... ينتظرني مكتب الترجمة بالمركز بعد العاشرة ،أنا أنتظر موضوعًا هامًا جداً وهو مقابلة ليليان حبيبة قلبي الغائبة ... ماذا أفعل الآن؟ أيهما أهم بالنسبة لي؟ قررت بإصرار أن تكون ليليان، توكلت على الله، بدأت الانتظار المر، محتضنا التليفون، متصفحا جريدة النهار بملل وضجر.

يا الله ... الساعة الآن السابعة والنصف، محتاج ساعة كاملة لأصل المركز، محتاج إلى نصف ساعة لأصل إلى شقة محاسن، أي قرار على أن اتخذ؟ إذا تغيبت عن المركز فهنالك شروط جزائية تفقدني الوظيفة ودخلًا لا يستهان به، الساعة الثامنة الآن .... قررت الاتصال بالسيدة محاسن بدلا من الانتظار:

- أهلاً مدام محاسن متأسف، غلبني الانتظار.

- أهلا دكتور... ليليان وصلت قبل ربع ساعة ،نحن في موضوعك لم ننته بعد لكن عفوا دقيقة واحدة.

«انقطع كلام محاسن»

- أهلاً دكتور خالد .... ليليان معاك.

- الحمد لله على الاتصـــال... لا أعرف ماذا أقول، أريد أن أتكلم أمامك.

- الوقت تأخر يا دكتور، يستحسن أن نتقابل غدا في كافتيريا الجامعة؛ لأن بنت محاسن تنام مبكرا، أيضا محاسن تذهب إلى عملها مبكرا في الصباح ... نترك الموضوع إلى الغد.

- لا مانع ... لكن هل محاسن شرحت لك؟!.

- نترك الموضوع للغد.

- وهو كذلك، لكن كنت أريد، المهم اشكري محاسن نيابة عني، وتصبحين بخير... إن شاء الله تفهمت الموضوع.

- نتقابل غدا ... مع السلامة يا دكتور.

بين الفرحة والأمل، نزلت الجراج، أخذت سيارتي مسرعا إلى مكتب الترجمة، محاولا الوصـــول في الميعاد المتفق عليه، في الطريق أعدت سيناريو المكالمة، شعرت بأني اقتربت إلى ليليان ما دمت أنا على حق، لكن ترك المبادرة والريادة والتوجيه في يدها، أصبح يشكل هاجسا لي.

وصـــلت المركز متأخرا عشـــر دقائق، قمت بالترجمة اللازمة التي أخذت ساعة من الزمن بالنسبة لمجموعة المترجمين، بعد دمج الترجمات داخل الحاسوب انتظرت وحدي للقيام بالترجمة الموحدة، كانت الساعة الحادية عشرة عندما انتهيت.

قدم لي مستر كاسبر جهازًا جديدًا يسمى «فاكس ملي» شرح لي كيف يتم توصيله بالتليفون يمكنه استقبال ما يرسل إلي من مكاتبات وصـــور، يمكنني من إرســـال الترجمة إلى مكتبه بنفس هذه الآلة العجيبة، أخذت الكتالوج والجهاز معي في صندوق صغير وضعته في سيارتي.

لم أغـادر المركز فورا، بـل قررت أن أعرج علي الملهى، للاستئناس ببعض الأصدقاء وتناول قدح من البيرة وقطعة بيسا قبل رجوعي إلي البيت، لم أتوقع مقابلة صـديقي الحميم مايكل جيير وصـديقته الشـركسـية الجميلة الصـغيرة مجدولين، جلسـت معهما، انشغلت كالعادة بالترجمة.

يا للهول ... عرفت أن مجدولين حامل، ولا طريق لها إلا الاختفاء عن أهلها، هم شـيعة لبنان المتشـددون، مايكل يعتبر أمر الحمل شـيئًا طبيعيًا، لا يعرف من هم الشيعة في لبنان، لا يعرف مصـير مجدولين إذا عرف أهلها، كانت المسكينة تبكي، لا تعرف ماذا تفعل؟!

مايكل رفض الحلول التي قدمتها إليه، منها إجهاض مجدولين، أصر على الجنين مهما كان الثمن، قال سيعمل المستحيل في تحقيق ذلك، مجدولين متعلقة بمايكل، لكن لا تعرف أين الحل، عرفت أنها تعيش مع مايكل سـرا في المركز، رغم الأوامر الواضـحة بعدم وجود أي أحد بعد الساعة الواحدة صباحا عدا الأمريكان.

الحل السـريع والمسـاعدة الفورية التي يمكنني أن أقدمها لمايكل، هو أخذ مجدولين معي إلى شـقتي، البحث عن الحلول الجذرية لاحقا، اقترحت علي مايكل ألا يعرض نفسـه أو مجدولين المسـكينة لطائلة القانون، سـتكون هي الضـحية في نهاية المطاف، عرضـت الفكرة عليهما، قبلا بالحل المؤقت.

لم يكن لي أي مزاج في الشـرب أو الرقص بعد الذي علمته من مايكل، طلبت من مجدولين تجهيز نفسـها وملابسـها، غادرت المركز معي، مع توصـيات مايكل المتكررة لي بالعناية بها، وقف مضـطربا بجانب سيارتي، ضـمها إلى صـدره مع قبلة طويلة، دس في حقيبتها المتدلية علي كتفها الأيمن مبلغًا من المال، فتح باب سيارتي، أجلسها في المقعد الخلفي خوفا على حملها.

ها أنا أتقبل مسؤولية مجدولين المسكينة، أقدم مساعدة لصديقي مايكل، دون اعتبار للملمات التي تدور حولي، وجود مجدولين في شقتي، خيار يهدد بإعادة سيناريو صني الحبشية عندما اتصلت ليليان بهاتف شقتي؛ فلذلك فكرت أن اتصل بصديقي جستن وخطيبته صني، واقترح عليهما إيواء مجدولين حتى إشعار آخر.

توقفت في الطريق بجانب كول بوكس، اتصلت بمنزل جستن، لم يرد أحد، تركت رسالة توضح موضوع إيواء مجدولين، واصلت سيري حتى وصلت شقتي التي تعرفها مجدولين حق المعرفة، فلكم قضت ليالي هنا مع مايكل وعدد من أصدقائي الزنوج الأمريكان في حفلات نهاية الأسبوع، بعد الوصول ومعي مجادولين، قامت بإعداد سندوتشات وقهوة لي، حليب ساخن لها، بعد ذلك انصرفت إلى حجرة الضيوف، انصرفت أنا إلى حجرة نومي.

في الصباح وجدت مجدولين في المطبخ تعدُّ الإفطار والقهوة، قبل أن أغادر، أوضحت لها بأن الممرضة الفلبينية ستمر عليها الساعة العاشرة؛ للكشف عليها وأخذ الدم للتحليل كما يوصي مايكل، فعليها أن تحضر نفسها، ودعتها على الباب وهي لاتزال بفستان النوم ومن فوقه معطف الحمام، أوصيتها بعدم فتح الباب إلا للممرضة.

(٦)

بدأت اليوم مبكرا، حرصت على أن أصل الجامعة أولا؛ لإنهاء بعض الأعمال المكتبية، ثم الذهاب إلى مقهى الجامعة؛ لمقابلة ليليان حسب الميعاد المتفق عليه، لسوء حظي كان الطريق مكتظا والسرعة لم تزد عن عشرة كيلو في الساعة لفترة طويلة، فكرت كغيري من المسرعين، غيرت طريقي، اتجهت يمينا أبحث عن مخرج من الزحام، وجدت طريقا مكنني من الإسراع، لكنه أيضا بدأ يزدحم، ومناورات المسرعين تتزايد والقلق ينتابني.

محاولة فاشلة قام بها سائق علي يميني، في سيارة أزور ويز بنتلي صدم سيارتي من الخلف، اضطررت للوقوف، تفقدت مؤخرة سيارتي، لاحظت في السيارة الأخرى رجلا ضخما يجلس في المقعد الخلفي، فتح الزجاج المظلل، ترجل السائق ؛ لتفقد ما حدث، وقتها لسوء الطالع، عرفت أنني لن أتمكن من الوصول في الميعاد؛ لمقابلة ليليان.

القانون يلزمني، انتظار شرطة المرور؛ لفتح محضر، تبادلت كلمات مقتضبة مع السائق، الرجل البدين في مكانه بالمقعد الخلفي يشير بيده ، يطلب منى الحضور ،لكنني تجاهلته ،حاول مرات وهو يومئ برأسه، تعمدت أن أتجاهله، أخيرا ترجل؛ ليقف أمامي، بكل بجاحة:

- ماذا تعمل هنا؟! أهذه سيارتك؟
- نعم،
- هل أنت من السعودية
- لا
- إذا من عبيد السودان؟! ما هذه العجرفة؟!!.

لم أتمالك أعصابي، بصقت على وجهه، أمسكت برقبته، دفعت به إلى سيارته، دون أن أرد عليه، تدخل السائق، فك الاشتباك بيننا، تنفس الرجل الصعداء، بدأ تجفيف وجهه المحمر:

- ما هذه الوحشية؟!

وأنا بحالة هيجان:

- نعم متوحش، لكن لست عبدا، أيها الخنزير.

رجع الرجل إلى مقعده، رجعت إلى سيارتي، بينما ظل السائق يقف بجانب شباك سيارتي، يقدم لي الاعتذارات بصوت منخفض:

- متأسف يا زول هذه ملة حقيرة متعجرفة، إنه لا يعرف السودانيين وحميتهم.

- اتركني في حالي يا رجل، لا أحتاج لاعتذاراتك.

- يا ابن العم والله لو ما العيش، لضربته معك ... نحن فلسطينيون لاجئون لا حول ولا قوة لنا في هذا البلد،

قبل أن أرد على تعليقاته، سمعت صوت صاحب السيارة، ينادي عليه:

- تعال يا أبو إياد.

وقبل أن يترك مكانه سألته:

- من يكون هذا الخنزير؟!

- اسمه «توني فنار» عضو برلماني ورجل أعمال كبير.

أسرع السائق، حرك السيارة دون انتظار الشرطة، كذلك فعلت أنا، إذا لم يكن في سيارتي غير صدمة خفيفة في التصادم الخلفي، إسراعي لمقابلة ليليان كان هو الهاجس الأكبر، بالرغم من المضايقة العنصرية الساذجة المؤلمة التي قام بها عضو البرلمان الخنزير، بالرغم من كل المجهودات التي بذلتها، توضح ساعتي أنني تأخرت عن ميعاد ليليان ساعة وعشر دقائق، أمامي مسافة تحتاج على الأقل، نصف ساعة أخرى.

عندما وصلت مقهى الجامعة كانت الساعة الثانية عشرة والثلث، تلفت في كل الاتجاهات، لم أجد ليليان، إحباط جديد سيطر على حواسي، ذهبت إلى مكتبي، دونت في مذكرتي بسرعة ما حدث في ذلك اليوم التعيس، اتصلت بشقتي؛ لأعرف من مجدولين ميعاد الممرضة، أخبرتني:

- الممرضة لم تحضر حسب الموعد، لكن سيدة اتصلت تسأل عنك، أخبرتها أنك خرجت.

يا للهول إنها ليليان للمرة الثانية تتصل بهاتفي وترد عليها امرأة، المرة الأولى ردت عليها صني، هذه المرة ردت عليها مجدولين، شعرت بأن المكتب يدور حولي وأنا مُتسمِّر في الكرسي أبحث عن مخرج، يجب على أن أفعل شيئا بسرعة، الخيارات أمامي معدومة، لا سبيل لتلافي ما حدث إلا خيار واحد، هو الاتصال بمحاسن في السفارة شرح ما حدث لي في الطريق، فكيف أبرر وجود مجدولين في شقتي؟ طلبت قهوة أغلقت مكتبي، كتبت السيناريو للحديث مع محاسن بكل عناية، توكلت على الله، أدرت قرص التليفون:

- ممكن أكلم المستشارة القانونية السيدة محاسن؟
- أقول لها من!؟
- دكتور خالد، لو سمحتي.
- لحظه.
- أهلا دكتور خالد اتصلت بك قبل ساعتين، ردت على الخادمة بأنك خرجت مبكرا إلى مكتبك.

تنفست الصعداء، تركت مذكرة السناريو والشرح والتبرير جانبا، حمدت الله أنها جاءت سليمة، قلت بنبرة الفرحة:

- فعلا خرجت مبكرا من البيت.

- طلبت مني ليليان أن أخبرك بتغيير الميعاد إلى الثانية ظهرا أنها ستنتظرك في مقهي كلية الطب ؛ لأن عندها محاضرة هامة، أنها اتصلت بتليفون شقتك ولم ترد عليها.

- شكرا مدام محاسن، سأكون في انتظارها، كيف حالك وكيف هادية الصغيرة ؟

- بخير والحمد لله، قبل سفرك أرجو حضورك لعيد ميلاد هاديه عندنا في البيت.

- أكيد ، لك الشكر.

- مع السلامة، عفوا بالله كلم ليليان لتتصل بي، لأن شركة التليفونات ستغير لها الجهاز غدا.

- جميل ،مع السلامة.

كدت أطير من الفرح، سأقابل ليليان حلمي وحبي الجديد بعد ساعة، قررت ترك سيارتي في مكانها، تمشيت مدة ربع ساعة إلى مقهى كلية الطب مبكرا خوفا من أي سوء طالع آخر، وأنا في الطريق، استعدت شريط اليوم التعيس، سلوك عضو البرلمان اللبناني الحقير، تعاطف السائق الفلسطيني المغلوب على أمره، تذكرت قصة جدتي التي نسيتها في معترك انشغالي بليليان.

بمجرد دخولي بقامتي الفارعة، حددت مكان ليليان، تجلس في أقصى يمين المقهى، معها شابة سمراء من ملامحها، اعتقدت أنها سودانية، اندفعت بسلام حار على ليليان وصديقتها، التي اتضح من لهجتها أنها من الصومال، قدمت لي نفسها:

- مريم فارح.

- أهلا يا مريم.

عرفت من ليليان أن مريم، تدرس معها في نفس الصف، المقهى يعج ببنات أثرياء الشرق الأوسط وأبنائه، بعد مراسم التحية، تنحت مريم، إلى طاولة أخرى، حيث يجلس شاب أنيق، ملامحه تدل على أنه أمريكي أو أوروبي، تركت لي المجال مع ليليان، في مواجهة تهيمن عليها مشاعر حب وليد بيني وبين ليليان، ودبلوماسية دقيقة؛ لإعادة بناء الثقة وفتح صفحة أكثر وضوحا، كان على الإجابة عن أسـئلة ليليان، ليليان كانت أجمل مما كنت أراها سـابقا، عيونها بزرقتها النقية تسـيطر بيقين ثابت ،كما عرفتها لم تكن قلقة، يبدو أنها سـتقدم لي امتحانا قاسـيا، يغطي الثلاثة أسـابيع التي فصـلتنا، رشفت من قدح القهوة الذي طلبته، سألتها:

- كيف أحوالك ليليان... يبدو أن رياح سـفينتي أتت بما لا أشتهيه.

- كل ما حدث، سوء فهم، أرجو أن تسامحني يا دكتور.

- أنا الذي أريدك أن تسامحيني، بارك الله في محاسن، أنقذت ما أيمكن إنقاذه.

- شهر كامل تاهت بوصلتي يا خالد.

- ليليان ... قلبي كان حكما بيننا وقد صدق.

- هل يمكنك تأجيل سـفرك؟ .... أشـياء أريدك أن تعرفها يا دكتور.

- أنت عارفة موضوع سفري، مرتبط بعقد أكاديمي بجامعة، أظنه صعب تغيير الميعاد...لكن الموضوع أسبوع واحد فقط.

- فعلا، صعب تأجيل سفرك.

- هل انتهت محاضراتك اليوم؟

- انتظر مقابلة سـريعة؛ لتقديم هذه البيانات التي طلبها منى المسجل؛ لإكمال ملفي الشخصي بالجامعة.

- دعيني أساعدك؛ لنملأ الأوراق معا بسرعة ... كما أدعوك لنفس المطعم السابق إذا كان يوافقك.

- وهو كذلك.

تبعثرت الأوراق في يد ليليان، بدا عليها الضجر لمقترحي البسيط في ملء ورقة البيانات بمساعدتي، لكنها بعد تردد، أخرجت قلمها ، بدأت في ملء الخانات والإجابة عن الأسئلة الكثيرة، ،أنا معها ،بحرص، بدون فضول أو غرض؛ لإنهاء المهمة ومغادرة المقهى إلى المطعم، لم تكن المهمة صعبة، وجدت أن ليليان قامت بملء الجزء الخاص جدا بها وفي خانة الوضع المدني قرأت بعفوية:

مُطَلًقة

عدد الأطفال .

طفل واحد ذكر .

أخفيت استغرابي، بل كتمته باحترام لخصوصيتها وتاريخ حياتها الخاصة، الذي لا أعرف عنه أي شيء، اهتزت توقعاتي وحساباتي، لكن لم يغير كل ذلك شعوري الصادق وشغفي وفضولي المهذب نحو ليليان، اكتملت البيانات، أخذتها ليليان إلى مكتب المسجل، ظللت وحدي مدة خمس دقائق، رأيت مريم الصومالية تقبل علي ومعها زميلها، قدمته لي، اسمه روبرت بترسن من ولاية بنسلفانيا بالولايات المتحدة، معيد بكلية التجارة جامعة بيروت، كان شابا أبيض أنيقا مفتول العضلات مبتسم الوجه، لكنه قصير القامة نسبيا بجانب مريم الفارعة، جلسا معي لحين عودة ليليان، وضح روبرت أنه يعرفني من خلال نشرات الجامعة ومجتمع أساتذة التدريس، يحضر ندواتي بالمركز الأمريكي.

عرفت من مريم أن والدها قاضي قضاة الصومال، درس بمعهد بخت الرضي بالسودان، زارت الخرطوم عدة مرات، لها أصدقاء وصديقات هناك، تنوي زيارة السودان قريبا مع صديقها روبرت، الذي يتمنى أن يرى الأهرامات في البجراوية، بعدها إلى القاهرة ؛ لإتمام التمتع بالآثار الفرعونية النوبية، رجعت ليليان بعد ربع ساعة بعد تسليم الملف، كانت مريم وروبرت معي، قامت مريم بتعريفها بروربت، قدمت اقتراحا لنا سويا الذهاب إلى مطعم آخر معهما، متخصص في تقديم الأسماك.

قبلت ليليان الاقتراح، رافقنا روبرت ومريم في سيارتهما المتواضعة، جلست بجانب ليليان في المقعد الخلفي، لأول مرة أمسك يدها بحرارة ورجفة، وجد صادق، لم أتكلم كثيرا ،لم تتكلم ليليان أيضا، ظللنا نستمع إلى مريم ومشاريعها الغرامية مع روبرت، زيارتها الأخيرة لبنسلفانيا، مقابلة أسرة روبرت استقبالهم الرائع، استضافتها لشهر كامل.

بين الاستماع إلى مريم، واجترار معلوماتي الجديدة عن ليليان وأنها مطلقة ولها ابن عمره ثلاث سنوات، لم تغير المعلومات نظرتي أبدا نحوها، بل زادتني شغفا بها ،صرت أكثر استعدادا لمواصلة مشواري، لكن أي مشوار؟ هل ستمر ليليان عبر دفاتري كأي امرأة مثل صني وغيرها؟! لا ... ليليان عش بدأ يتمحور داخل وجداني، ليتها تكون نصفي الثاني المفقود.

أعرف تماما أنني عنصري ،مقهور بالعنصرية، بقدر احتقار العرب للسود، ربما أكثر من ذلك، ليليان من أسرة تعرف فيروس العنصرية، بحكم نشأتها في السودان غابة السود والسمر، في داخلي حقائق لا أخفيها عنها، بل أجاهر بها، وهي أن جدتي جارية اشتراها جدي من سوق النخاسة، فعلاقتي مع ليليان البيضاء الشقراء، كيف ستكون؟! سيطر على شعور بأن علاقتنا لا تزال بدون هوية واضحة في داخلي.

بين قصص مريم وروبرت واجترار ملفات العنصرية المعششة في دواخلي، وأنا في المقعد الخلفي داخل سيارة روبرت، كانت كف ليليان تمسك كفي غير المتحرر من أهوال العبودية، العنصرية تتبعني حتى صباح هذا اليوم، مشهد عضو البرلمان اللبناني الخنزير، أقنعت نفسي في تلك اللحظة، لا سيد على من الآن غير ليليان.

بضغطة قوية من كف ليليان، أفقت من هواجسي، حان الترجل من السيارة، نحن على موقف سيارات المطعم الذي يعج بالأجانب خاصة الأمريكان، عند دخولنا، لم تكن هنالك طاولات إستراتيجية فارغة غير طاولات في المدخل، جلست بجانب ليليان في وضع لا يتيح لرواد المطعم الزائرين رؤيتنا، حذرًا من مقابلة أي شخص من القاعدة أو المركز يتعرف علي.

طلبنا طبق سمك مشترك كبير، ربيان، زجاجة من النبيذ الإسباني، مشروبات غازية، ليليان رفضت تعاطي النبيذ، اختصرت الكؤوس لمريم وروبرت وشخصي، احتراما لليليان فضلت شراب الكوكا معها، لكنها أخذت زجاجة النبيذ، أفرغت كأسي من الكوك في كوبها، صبت لي:

- إذا كنت تحب النبيذ فلا لزوم أن تفوت فرصة هذه الجلسة اللطيفة،

شكرت ليليان، مددت ذراعي الطويلة، بقامتي الشامخة، ضممت ليليان بلطف وحنان بحركة بطيئة، اختصرت المسافة بيني وبينها، بينما أطال روبرت حضن مريم وتقبيلها باستمرار أمامنا دون حيطة أو توجس.

لم أسأل ليليان عن المعلومات التي حصلت عليها، أو عرفتها من خلال ملفها الشخصي، يبدو أيضا أنها غير مهتمة، بالمعلومة التي عاجلا أو آجلا كنت سأعلم بها، ربما أكبرت فيَ عدم إثارتي لأي أسئلة بخصوصياتها، وأنا من جانبي، أكبرت فيها شجاعتها التي لا تخفي في طياتها أي لغط أو معلومة تخصها، بالرغم من المشهد الغرامي الذي كان يدور بيننا في صمت، واحتمال الاستمرارية، أو عدمها، بأوراق مكشوفة أو مخفية، لحين امتحان العلاقة.

اكتفيت بنصف كأس النبيذ الذي صبته ليليان، أما مريم وروبرت فقد انفردا ببقية القنينة، بل طلب روبرت قنينة أخرى، لكنني ذكرته بأنه يقود السـيارة، فعلية الحذر في مدينة صـاخبة كبيروت، فعلا أشار للجرسون بإلغاء الطلب.

بينما انشـغل روبرت بمريم في همس خاص، اسـتدرت في جلستي لأواجه ليليان المتألقة الفرحة ،ابتسامة رضاء ترسم معالم وجهها الصافي بصدق ينبعث من عينيها، يكاد صدرها المتحدي، يقفز من خارج البلوزة الحمراء الداكنة التي تلبسها وهي تواريه من خلف الشال الترك وازي:

- كيف أحوالك وسكنك ودراستك يا ليليان العصية.

- عصـية !!! من العصـي؟ أنا أم أنت يا دكتور ... كل شـيء تمام بس الشـوق لأهلي ولابني يوسـف يسـيطر على، لكنني مسرورة بهذه الجلسة.

- أتواصلين قراءة كارل ماركس ورأس المال؟!

- أبدا ... أنا في انتظار الدروس.

- ومن أين عرفتِ مريم الصومالية.

- قابلتها كمسـؤولة العلاقات العامة لاتحاد الطلاب الأفارقة في كلية الطب، كانت تشرف على أول لقاء للطلاب الجدد، كانت معها واحدة حبشـية أظنها تخرجت، قالوا لي إنها ملكة جمال الجامعة...بأمانة ما رأيت جمال مثلها.

شعرت بأنني محاصر مرة أخرى، ما أرهب هذا اليوم، كون ليليان تعرف عن علاقتي بصـني الحبشية، آخر ما أتمناه في هذه المرحلة المبكرة، لا أريد التبرع بمعلومات لم أسـأل عنها، ارتبكت لحد ما، واصلت مع ليليان:

- حقيقة القرن الأفريقي فيه جمال وفقر شديدان.

- يا دكتور من الأحسن أن نترك الجماعة، لقد أسرفوا في الشراب ،أنا أخاف عليك وعلى نفسي، من الركوب معهما في سيارة واحدة.

- حقا ما تقولين يا ليليان، دعيني أتخلص منهم بعد ربع ساعة.

- أنا متضايفة، أريد أشم الهواء، رائحة السجاير والشيشة تخنقني.

- دقائق .

خاطبت مريم وروبرت بأن ليليان تضايقت من السجاير، اسمحوا لنا إذا أمكن، ناديت الجرسون ،دفعت الحساب دون علم روبرت، تأهبت للخروج من المطعم مع ليليان؛ لنتمشى على الكورنيش، فاذا بي وجها لوجه مع مايكل جيبر في مدخل المطعم، معه مجموعة من الزنوج والبيض الأمريكان، بادرني مايكل بالسلام ثم سلم علي ليليان، لحسن الحظ كان حريصا في الكلام عن مجدولين صديقته الحامل التي تقيم في شقتي بصفة مؤقتة.

مايكل رجل مهذب خجول، تنحى بي جانبا، سألني عن ليليان فكان ردي سأخبرك لاحقا أوضح لي أنه اتصل بمجدولين في شقتي، وأن الممرضة أجرت لها الفحوصات، عرفت منه أيضا، أن إدارة القاعدة الأمريكية، تحقق معه في موضوع مجدولين، ودعني، أسرع داخل المطعم؛ ليلحق بالمجموعة من جنود كتيبته المتخصصة في الصواريخ، التفت بسرعة إلى ليليان التي لم تكترث لما قاله لي مايكل، قلت لنفسي:

- الله يعدي هذا اليوم بسلام .

ارتباك وشعور بالسعادة، نسيت كل ما يجلب التوتر لهذا اللقاء الروحي، ليليان عن يميني في هدوء ويقين نتمشى، لم أشعر بأنها متلهفة لمعرفة المزيد عني، بل أنا كنت المتلهف، بادرتني بسؤال لم أكن مستعدا له:

- هل جربت الزواج يا دكتور خالد؟! ... وفشلت مثلي!!

- أبدا ... لكن آن الأوان للتجربة.

- أهلي كانوا وراء فشلي في الزواج يا دكتور، زوجوني بإصرار لابن خالتي، لم أكن على وفاق معه، كنت صغيرة يكبرني بعشرين سنه، كنت الزوجة الثانية له بعد طلاق زوجته الأولى، كان ذلك، بعد هروبه من القاهرة إلى السودان، فضل عمله في الإسلام السياسي، أهملني، عرفت منه أنه ملاحق من نظام عبد الناصر.

- كيف تزوجت بهذه الطريقة يا ليليان ؟! وأنت ماشاء الله امرأة متحررة إذا لم أقل يساريه.

- أهلي يا خالد هم السبب، أجبروني أيضا على الحجاب، لكنني لم أرضخ لهم، باختصار زوجي السابق، عذبني عذابا مرا ... أخيرا طلقني بالثلاث ،حمدت الله.

- أين هو الآن ؟! هل هو في السودان؟

- لا، لقد سافر إلى السعودية، سمعت أنه وصل أفغانستان، لا أعرف عنه أي شيء بعد ذلك، لا يسأل عن ابنه يوسف.

- والله يا ليليان المرأة مظلومة على كل المستويات ،أكبر ظلم نالته من كتب التفاسير المغلوطة، التي يمكن أن تكون مدسوسة على الدين.

- حقيقة يا دكتور، لكن أنا لن أسمح لمخلوق أن يتعدى على حقوقي بعد ما حدث لي، حتى لو كان أبي، إذا بقيت لي حقوق في هذا العالم العربي الظالم.

- على أي حال، ما حدث لك لم يكن باختيارك، مثلك كثر، حتى ما حدث لجداتنا وأجدادنا تحت ظل عرف جائر في جميع أنحاء العالم العربي.

دون أن نلتفت للوقت، أو الطقس الذي بدأ في البرودة، استمررنا سويا في السير والتحدث معا، وضعت سترتي عليها ذراعي حول كتفيها، للمزيد من الدفء.

سألتني عن مايكل:

- من الرجل الذي قابلك في المطعم؟ ... هل وصل الجنوبيون السودانيون إلى هنا؟!

- لا ... ليس جنوبيا، إنه أمريكي.

فوجدت من الأحسن أن أوضح لها كل شيء عن مايكل، بدلا من أن تُفاجأ بوجود مجدولين صديقته الحامل المحتمية بشقتي:

- من أعمالي يا ليليان الترجمة في المركز والقاعدة الأمريكية، تعرفت بعدد كبير من الزنوج الأمريكان، منهم الشاب الذي قابلنا في مدخل المطعم، مايكل جبير شاب بسيط، سأقص عليك قصته لاحقا، اعتقد أنه من الأحسن أخذ تاكسي إلى الجامعة، نأخذ سيارتي من هناك؛ لأن الجو بارد ... ما رأيك؟

- وهو كذلك .... على فكره أنا لازم أمر على متجر؛ لشراء هدية لابنة محَاسن، اليوم عيد ميلادها.

- يا الله ... والله نسيت، محاسن قدمت لي الدعوة أيضا، لامانع، أنا أيضًا سأشتري هدية مناسبة حسب نصيحتك.

- حقيقة محاسن تحترمك جداً .

- وأنا أيضًا أعزها، لها الفضل في إعادة المياه إلى مجاريها بين قلبينا.

ضحكت ليليان:

- تعتقد ذلك؟!

- أكيد يا ليليان، والله يعلم ما في قلبي، منذ لقائنا في مطار الخرطوم، قبل التقاط ذلك القلم، الذي أعتبره الرسـول الأول لقلبينا، ومجلد رأس المال لكارول ماركس الرسـول الثاني، ومحاسن خاتمة الرسل.

أوقفت تاكسيًا، توجهنا إلى الجامعة، حيث تقف سيارتي، أول ما قالته ليليان وهي تترجل من التاكسي:

- مصيبة!!! ... سيارتك مصدومة من الخلف، ماذا حدث؟!.

- قصـه طويلة ... لكن الصـدمة خفيفة، عليَّ تركها لشـركة التأمين؛ للتصليح، أستلمها بعد رجوعي من السفر.

- أ لا توجد طريقة لتأجيل هذه السفرة؟!

- ليتها تتأجل ... من الأحسن إخطار محاسن بحضوري معك ... هذا هو الكول بوكس أمامنا.

اتصلت ليليان، أكدت حضوري معها، بعدها اتجهنا بسيارتي إلى متجر متخصص في حاجيات الأطفال... اختارت ليليان لبسة أنيقة، اخترت أنا سـلسـلة من الذهب عيار ثمانية عشـر ،عليها ميدالية تشير إلى برجها... قررت دفع الثمن، بعد مقاومة وإلحاح قبلت ليليان، توجهنا إلى منزل محاسـن بعد مرورنا بحلواني في نفس الطريق، سـمحت لليليان بدفع ثمن التورتة التي كتب عليها الحلواني «سنة حلوة هادية» .

استقبلتنا محاسن بالترحاب، معها ابنتها هادية أمام الباب، وجدنا مجموعة من السودانيين وأسرهم وأطفالهم، سلمنا الهدايا ،وضعت ليليان التورتة داخل المطبخ، جلسـنا مع المجموعة التي كانت في نقاش سياسي ساخن، قدمت محاسن ليليان أولا للضيوف ثم قامت بتقديمي:

- الدكتور خالد من السـودان محاضـر بجامعة بيروت الأمريكية، عميد كلية الرياضيات.

(٧)

جلســـت بجانب ليليان، كعادتي، قليل الكلام، متحفظ في التعرف على أي شـــخص لا تربطني به علاقة ســـابقة، بعد تبادل تعارف مقتضــب مع جميع الضـيوف، كان بينهم رجل في منتهي الأدب ، لا يقل عنى في لون بشــرته ســوادا، خمنت من هندامه وجلبابه الأبيض الناصع والعقال العربي على رأسه، أنه قنصل السفارة التي تعمل بها محاســن، بجانبه جلســت سـيدة تكبره سـنا، يبدو من ملامح وجهها الصلف والتكبر، فرضت هيمنتها على الضيوف بصورة الاستعلاء، تأكد لي أنها زوجة القنصل، كانت المتباهية السطحية المتعالية بين كل الســيدات، تلبس كمية من الحلي غير المتجـانســـة من الـذهـب والمجوهرات ملفتة للنظر... بشرتها البيضـاء المحمصـة ولهجتها تدل على أنها من العرب المسـتعربة، كرسـت اهتمامها على الحديث معي ومع ليليان أكثر من بقية الضيوف، ربما اعتقدت أننا زوجان، توهمت أن ليليان لبنانية، يبدو أنها عرفت من محاســـن أنني ذاهب في رحلة عمل في الأسـبوع القادم إلى بلد زوجها في الخليج، ســألتني بصـوت عالٍ:

- أين درست يا دكتور خالد؟
- درست في بريطانيا.
- كانت الدراسة على حساب أهلك؟!
- لا ... إنها كانت منحة دراسية من بريطانيا.
- يا دكتور أنت من أي قبيلة في السودان ؟!

تجاهلت سؤالها ، أصرت، كررت السؤال عدة مرات.

- من الصــعب أن أصــنف نفســي، لكن ما أعرفه أن جدي يصنف نفسه من قبيلة تدعي العروبة في شمال السودان، وجدتي رحمها الله، مما ملكت أيمانه.

قالت بتهكم واستعجال:

- يعني عبدة؟!

فأجبت مجبرا:

- لا ... ربما دينيًا تعتبر كذلك.

سكتت، التفتت إلى زوجها.

- متأسفه يا دكتور، سؤالي كان محرجا:

- مهما كان سؤلك، أرفض يا مدام أن تسمى جدتي عبدة، أنا أعتبرها سيدة وملكة ،لدت حرة، لكن المجتمع الديني ظلمها.

رغم الموقف المحرج الذي فرضـــتـه تلك الســـيدة، وعدم الحصـــافة التي زجت فيها نفســها وسـط كل الحضـور، صـمت الجميع من هول الموقف، لكن لم تمهلها ليليان بل تصدت لها:

- يا أســتاذة محاســن هذا بيتك وله حرمته، اســمحي لي ،أنا مجبرة أن أخـاطـب هـذه الـهـانم المتعجرفـة، فمـا قـالتـه لا يمكن السكوت عليه.. اسمعي يا هانم، انظري جيدا إلى لوني الأبيض، وعيوني الزرقاء، وشـــعري الأشـــقر، لعلمك .. جدي لأمي كان مملوكا من بلد يســمى ألبانية، إذا كنت تعرفين أين تقع ألبانيا يا .. بالمعنى الذي يعشش في عقلك المريض، لقد كان جدي مما ملكت أيمانهم، كذلك جدتي، إبان الحكم التركي، جدي لم يعرف أمه أو أباه حتى مماته، هرب مع والدي وأمي إلى القاهرة من العبودية، ثم إلى وطنه الثاني السودان، أرفض رفضـا باتا، أن يسمى جدي عبدا، وتبا للضـحالة والسـطحية، اللتين تتمتعين بهما، ويعيشــهم أمثالك من الجهلاء وسـط المجتمع الإســلامي، فلا تتطاولي على الدكتور خالد، فجدته أشرف منك و من ملتك، ولا تتطاولي على، فأنا أكثر حرية.

تكهرب الجو، سكت الجميع، حاولت محاسن تغيير الموضوع، بعد دقائق، اســـتأذنت الســـيدة المتعالية وزوجها القنصـــل المؤدب غادرا شقة محاسن، انتظمت القعدة ،بدأ الكلام في مواضيع أخرى.

لقد أدهشتني ليليان بجراءتها، وصراحتها التي زادت عني في كشف المسكوت عنه، شعرت بقربي منها أكثر من أي وقت مضى، شعرت أنها تحمل نفس عقدتي، لكن لونها وجمالها وعيونها الزرقاء تغطي أي عيب في نسبها وحسبها عكس مما أنا فيه، فلوني هو مصدر عقدتي وسط مجتمع مسلم يحتقر السواد، رفضي للعبودية هو عنوان صمودي في مجتمع عربي، لا يعرف الأسود إلا أنه مسترق مصفد بالجنازير المقدسة، وعمله الوقوف تحت الشمس لخدمة أسياده، مهما كانت مكانته أو مؤهلاته أو بلده، ليليان لم يظهر عليها أي نوع من الضجر أو التوتر، تكلمت عن أسرتها، وهي أكثر أريحية وتبسما، وسط الضيوف، لم تفوت الفرصة في تلقين زوجة القنصل المتعجرفة درسا لا تنساه.

همست ليليان في أذني والضيوف منشغلون:

- دقيقه يا دكتور.
- نعم أنا معك.

جذبتني بيدها، أدخلتني حجرتها المدهشة، كمية من الكتب واللوحات المعلقة على جدار الحائط، صورة جدها الألباني المملوك، صور والدها، أمها، أخيها، خالها الماركسي مع زوجته الشايقية في ملابس الزفاف السودانية:

- لا يهمك يا دكتور كلنا في الهوا سوا... هذه المرأة محدثة نعمة، أكيد تزوجت القنصل ليس حبا في لونه لكن حبا في ماله.

- والله امرأة عجيبة ،يبدو أنها مدمنة فتن.

- انظر صورة جدي، تتصور ما عندنا أي فكرة حتى الآن، من كان أبوه أو أمه، تربى صبيا يافعا قويا لخدمة عائلة ثرية بمدينة دمشق، بعد أن كبر زوجوه جدتي ليليانة انظر جمالها، هي أيضا كانت جارية بقصرهم، يقال إنها من أصول شركسية، قدر الله لهما الهروب إلي جزيرة قبرص ثم إلي القاهرة، توفيت جدتي بعد مولد أبي ،قبل قيام الثورة المصرية في وجه الملك فاروق، كان والدي قد تزوج بأمي الأرمنية الأصل، قرر الهروب إلى السودان مع عائلات ذات أصول ألبانية.

- يا له من عالم لا يرحم، عالم عربي متناقض في مجمله وتفصيله.

- انظر يا خالد إلى زوجة خالي السودانية الشايقية الحلوة.

- ما شاء الله

- انظر هنا ... مجلد رأس المال لكارول ماركس، الكتاب الذي جمعنا و هذا نفس القلم الذي التقطته يدك من أرض مطار الخرطوم.

ضحكنا سويا:

- القلم ... لازم تحافظي عليه.

- مدى حياتي سأحتفظ به.

من باب الغرفة، أطلت محاســـن، دعتنا للأكل، خرجنا والجميع حول المائدة، جلست بجانب رجل استحسنت الحديث معه، قدم نفسه لي بكل تواضــع، محامي ســوداني اســمه بكري الجعلي تخرج في جامعة الخرطوم، نال درجة الماجســتير في القانون الدولي من جامعة دمشق، يعمل منذ زمن في بيروت، زميل دراســة لمحاسـن، يعمل في مكتب محاماة عالمي مقره لندن، وهو يدير فرع لبنان، بواسطة نفس المكتب تم اختيار محاسن مستشارة قانونية للسفارة.

ليليان انصــرفت إلى المطبخ تســاعد محاســن في ترتيب الأكل والشراب.

بادرني بكري:

-يا دكتور هذه امرأة ثرثارة، لا تهتم بما قالته؟!

-ماذا نقول؟! عالم كله عقد وجهوية.

-يا دكتور، نحن نعرف والدك، إنه الرجل الذي خدمنا كثيرا، أخرج أخي من الحبس عدة مرات أحتراما لعائلة الجعلي.

-تشرفت بمعرفتك أستاذ بكرى، ماذا كانت قصة أخيك؟

-كان من الشـــيوعيين، لقد تعذب الوالد كثيرا من نشـــاطه السياسي، رحمه الله والدي، توفي قبل عامين.

-الله يرحمه، وأخوك أين هو الآن؟

-سافر إلى مؤتمر الشباب في بوخارست، لم يرجع ... على فكره القنصـل رجل طيب على قدر حاله، لكن هذه الولية نكدت عليه الحياة، هذه زوجته الرابعة، تزوجها عرفيا، إنها تركض وراء المال فقط، خربت علينا الجلسة.

-والله يا بكري، ما كنت أريد أن يســمع الأطفال هذا النوع من النقاش ... ما ذنبهم يعرفوا عما ملكت أيمانهم، وقبيلة فلان ولا علان؟!

شعرت أن بكري رجل متفتح، صادق في تعامله؛ لذلك، أفضيت إليه بما حدث بيني وبين اللبناني عضــو البرلمان، نبهني أن أكون حذرا من هذا النوع من البشر:

- هذا النوع من اللبنانيين خطير، لهم ميليشــيات وشــبيحة وســلاح وســلطات مطلقة، تفضــل في أي وقت؛ لزيارة مكتبي الاستشاري؛ لبحث ما يمكن فعله، خاصة أنك مددت يدك عليه.

بينما نحن في الحديث أقبلت ليليان، قدمت لكل منا طبقًا من الحلوى الشرقية، جلست بجانبي بينما انصرف بكري للكلام مع ابنته الجالسة في الطاولة المقابلة.

- هاتفني أخي من الســعودية، قال: بعد العمرة ســيخرج إلى أفغانسـتان مع سـعوديين؛ لتدريس القرآن ونشـر الدعوة ومحاربة الشـيوعية... طلب مني أن أكلم أمي بالخبر، طبعا رفضـت قلت: ما دام أنت مؤمن بقضيتك، أحسن تكلم أمك بنفسك.

- مصيبة، الله يصبر أمك وأباك.

- أمي مســكينة، لكن أبي لا يهمه في الأمر شــيء ... شـقيقي شخصية مملة ومتعننة.

قاطعتنا محاسن، معها ابنتها الوديعة؛ لتقول شكرا على الهدايا، ستدخل حجرتها للنوم، قبلتها على خدها، تمنيت لها السعادة والفرح، كذلك فعلت ليليان، التي كانت ترى في الطفلة هادية ابنها يوسف، الذي تركته في السودان مع أهلها.

بعد عدة دقائق شكرت ليليان، استأذنت، بعد وداع محاسن، والضيوف الذين بدأوا في الاستعداد للانصراف، خرجت ليليان معي حتى موقف سيارتي، تعمدت فتح مواضيع ؛ لإطالة مدة وقوفنا معا والغبطة تحيطنا سويا، فكرت أن أضمها إلى صدري مودعا، لكن توقفت، تذكرت أن المراس مع ليليان صعب، على بالتروي مادام بيني وبينها كيمياء الحب والتقدير والاحترام تعمل في صمت، عند وصول أحد ضيوف محاسن إلى سيارته التي كانت تقف بجانب سيارتي، التفتت ليليان لوداعه بتلويح يدها، اتجهت إلى باب العمارة:

- أرجوك الاتصال بعد وصولك إلى البيت.
- أكيد، تصبحين على خير.

أدرت سيارتي، توجهت يمين الشارع مسرعا إلى شقتي، في السيارة بدأت إعادة شريط اليوم، استعرضت كل الأحداث التي مرت، استبعدت السيئ منها ،ركزت على ردود أفعال ليليان، عندما تكلمت بوضوح أمام الجميع عن أسرتها، ردا على زوجة القنصل، لا يزال إعجابي بجراءتها ووضوح رؤيتها يقربني إليها أكثر وأكثر، لم تخطئني الرؤية، أن ليليان هي أملي لشراكة حياتي، لكن كيف ومتى وأين!؟!، مرهق أنا الان والأحداث تتوالى أمامي كل يوم، قضية جدتي ،كتابة قصتها لا تزال الأهم، رغم الاقتحام الكبير المدوي الذي تمنيته وفرضته ليليان على مسار حياتي الآن.

أفقت على إشارة المرور الحمراء، وقفت عندها، بعدها مباشرة عرجت يمينا، دخلت جراج العمارة، فتحت الشقة بهدوء، خوفا من إزعاج مجدولين، لكنني وجدتها في المطبخ تعد فطائر على الفرن ... أيضا أعدت لي بعض السندوتشات للعشاء، شكرتها

لم أستطع أكلها، بعد الأكل المتنوع، في بيت محاسن، سألت مجدولين عن التليفونات التي وصلت في ذلك اليوم، أكدت لي مكالمة من حبيبها مايكل، ومكالمة محاسن، قالت كان هنالك تليفون لم تتمكن من الرد عليه؛ لوجودها داخل الحمام ... الحمد لله، أنها لم ترد عليه، لقد كان ذلك التليفون من ليليان.

اتصلت بليليان على تليفونها الخاص لأول مرة.

- أهلاً ليليان.
- الحمد لله على سلامتك.
- يا له من يوم تاريخي... غدا أضع سيارتي في التوكيل للتصليح، ثم أركب تاكسيًا إلى الجامعة، ما رأيك؟ نتقابل في مكتبي بعد الساعة الثانية.
- غدا عندي محاضرات حتى الخامسة... ما رأيك لو أنا ومحاسن زرناك في البيت الساعة سبعة مساء؟ محاسن ستأخذ ابنتها هاديه إلى مدرسة الإنجليزي، بعدها نزورك في البيت.
- مرحبا ... فكرة جميلة، أنا في الانتظار... تصبحين عل خير،
- وأنت من أهله.

وضعت السماعة، لم أتوقع أن تفاجئني ليليان بفكرة الزيارة، لم أكن مستعدا لها، مجدولين معي في الشقة، لابد من إيجاد ملجأ آخر لها قبل هذه الزيارة.

نزعت من جهاز الفاكس، خمسة أوراق للترجمة، جلست إلى مكتبي، دونت ما دار في هذا اليوم المكتظ بالأحداث ... قمت بإضافة طفيفة إلى قصة جدتي مضمنا النقاش الذي دار في بيت محاسن ... ثم قرأت النصوص المدونة في صفحات الفاكس، شعرت بأنني لا أقوى على ترجمتها في هذا اليوم.

(٨)

في الصـــباح الباكر، اتصــلت بصــديقي جســتن ابن الســفير الهولندي، التقطت الســماعة الدكتورة صــنـي خطيبته الأمهرية، شرحت لها موضوع مجدولين طلبت منها أن تساعدني في إيوائها مؤقتا حتى أجد لها مكانًا آخر، ووافقت لكن قالت:

- بكل أســف أنا لا أثق في العرب، لكن تقديرا لظروفك، لا مانع أن يذهب جستن مساء اليوم، لإحضارها، في الشقة متسع كبير.

- إذا أمكن حضوره بعد ساعة؛ لأنني مشغول اليوم، أتوقع ضيوفًا في المساء.

- لا مانع ،ها هو جستن معك.

شــرحت لجســتن الموضــوع وافق على طلبي فورا، دخلت المطبخ حيث حضـرت مجدولين القهوة والفطائر، جلسـت معها، شرحت لها ظروفي ومشروع ذهابها بعد ساعة إلي شقة جستن لم تمانع المسكينة، بدأت تحضـير نفســها ، وهي تعرف صــني وجستن من الحفلات التي حضرتها مع مايكل في شقتي.

أثناء انتظاري وصـول جسـتن بدأت في ترجمة ما وصـلني من المركز الأمريكي عن طريق جهاز الفاكس، الموضــوع كان خطبة الزعيم جمال عبد الناصر في تأميم قناة السويس، قرأته بسرعة ،بدأت الترجمة الأولية بينما كانت مجدولين تحضـر حقيبتها الصـغيرة بدون انفعال، كان نص الوارد في الفاكس:

خطـاب الرئيس جمـال عبـد النـاصــر في عيد الثورة الرابع من الإسكندرية خطاب تأميم قناة السويس ٢٦ يوليو ١٩٥٦.

عندما انتهيت من ترجمة الصـــفحة الرابعة، رن جرس الباب، وصـل جسـتن، الشـاب الرائع الشـجاع، قدمت لنا مجدولين القهوة مع الفطائر التي صنعتها، تفاهمت مع جستن في كيفية مساعدة مجدولين وصديقها مايكل جيبر ،شرحت له تفاصيل المشكلة، بعد ذلك مباشرة خرجت مجدولين، حملت عنها حقيبتها، رافقتها في سيارة جستن إلى شقته.

قابلتنا صني بالترحاب، بلغة عربية مكسرة رحبت ثم سلمت بالأحضان على مجدولين، أصرت على أن أتناول قهوتها المميزة، كم أنا أشتاق لمراسم وديكور القهوة الأثيوبية، شربت القهوة على عجل، رجعت إلى شقتي، مع جستن؛ ليرافقني في تسليم سيارتي إلى التوكيل لإصلاحها، انتظرني لفترة نصف ساعة أوصلني مكتبي في الجامعة، انصرف بعد ذلك.

لوجودي في المكتب في تلك الساعة المبكرة تمكنت من إتمام الترجمة بصورة جيدة، بعد ذلك راجعت بعض المشاريع المقدمة من طلبة الماجستير، قدمت محاضرة لطلابي بعنوان:

العلاقة بين الأبعاد الثلاثة لبعض فضاءات تيخونوف والفضاءات العادية.

راجعت البريد الصوتي، وجدت رسالة من والدي يطلب مني ضرورة الاتصال به بأسرع فرصة، راجعت البريد العادي، وجدت رسالة من السفارة الأمريكية، تطلب حضوري؛ لاستلام الجواز الأمريكي الذي قدمت له منذ ستة أشهر أي بعد شهر من تاريخ عملي بالمركز الأمريكي، حقيقة أنني نسيت موضوع التقديم الذي شجعني عليه زميلي العراقي كاظم الطويل، الذي يعمل معي في الترجمة، في ذلك اليوم بالذات، لم يكن لي أي متسع من الوقت للذهاب الى السفارة، كان عليَّ تحضير شقتي؛ لتناسب زيارة ليليان ومحاسن مساء اليوم أهم أولوياتي، اتصلت بأم محمد؛ لتسبقني الى الشقة؛ لتحضير ما لزم، وأخذ ما تراه مناسبا من البقالة المجاورة، أثناء انشغالي وترتيب أجندتي اليومية، رن جرس التليفون، كان من مدير شؤون الموظفين بالجامعة، طلب حضوري شخصيا؛ لاستلام رسالة بريد مسجلة وصلت حالاً، أسرعت، وجدت شرطيًا من مكتب النائب العام، طلب مني الامضاء على دفتر يحمله ،سلمني اخطارًا، لم أهتم كثيرا استلمت الاخطار، رجعت الى مكتبي، فتحت الظرف، كانت دعوى مقدمة ضدي من عضو البرلمان توني فنار الذى صدمت سيارته سيارتي من الخلف.

تاريخ المثول أمام القاضـي، يوم الخميس القادم، نفس يوم سـفري، عرفت أن الخنزير توني فنار، اسـتدل على مكان عملي من نمرة السـيارة، بالطبع قضـية ملفقة، ربما تكون معقدة، كما وضـح لي المحامي بكري الجعلي، أن أكون حذرا في التعامل مع مثل هذه الشخصيات.

أهذا ما ينتظرني في مثل هذا اليوم الهام؟! ارتبكت في البداية، لكن عندما تذكرت نصائح الأسـتاذ بكري الجعلي اعتبرت نفسي محظوظا، علي بمقابلته اليوم قبل الذهاب إلى شـقتي والإشـراف على تحضير العشاء مع أم محمد.

أخرجت بطاقة السـيد بكري، اتصـلت به أخبرته بطلب النيابة، وافق على مقابلتي بعد سـاعة ونصـف؛ لأنه ذاهب إلى المحكمة في قضـية قتل، شـغلت الرأي العام في بيروت، قرأت عنها في جريدة النهار، طلبت تاكسيا، وصلت نصف ساعة قبل الموعد، استقبلتني سكرتيرته اللبنانية، قدمت لي واجب الضـيافة، انشـغلت بمراجعة الترجمة أثناء انتظاري.

حضـر المحامي بكري في موعده، اطلع على مرسـوم النيابة، بينت له كل ما دار في ذلك اليوم العجيب، طلب مني نسـخة من الجواز:

- أيهما السـوداني أم الأمريكي؟ على فكرة اليوم وصـلني إخطار بحصولي على الجواز الأمريكي لم أستلمه حتى الآن.
- يجب اسـتلامه بأسـرع ما يمكن، هيا بنا الآن إلى السـفارة الأمريكية.
- ما الحكاية يا أستاذ بكري؟ لازم اليوم؟!
- نعم، هيا بنا، وسأخبرك لماذا؟

رضــخت لطلب بكري، ركبت معه سـيارته الفارهة، معه سـائقه إسحاق السوداني، من هندامه، يبدو لي أنه بجانب سائق، هو الحارس الشخصي للأستاذ بكري، لاحظت وأنا جالس في المقعد الخلفي مسدسًا صغيرًا داخل بزة إسحاق، في الطريق أوضح لي بكري:

- مادام عندك جواز أمريكي، القضـية محلولة، سـأطالب لك بتعويض لا يقل ١٠٠ ألف جنية إسترليني.

- والله قصة يعني لو مشيت بالجواز السوداني كنا رحنا فيها؟

- لا ... الجواز السـوداني مقدر هنا، لكن الأمريكاني معناه حصانة دبلوماسية، حتى رئيس البلد لا يستطيع أن يعمل ضدك شيئا.

وصــلنا السـفارة، دخلت بمفردي، اسـتلمت الجواز، معه هوية الجنســية الأمريكية، بعد تأدية طقوس أمام القنصـــل، توجهنا إلى مكتب بكري، حيث تم عمل نسخ من الجواز، سلمني الأصل.

- حضر نفسك للتعويض، سافر في موعدك، سأقوم بالمرافعة عنك أمام النيابة يوم الخميس.

- يا سيد بكري، خلينا من التعويض، أخرجنا من هذه الورطة فقط.

- لا ... اللعبة دي اتركها لي، وأراك مســتعجلا، الســواق سيوصلك شقتك.

- شكرا، فعلا أنا مستعجل.

وصلت مع إسحاق في وقت قياسي، طيلة الطريق لم يتكلم معي في أي موضـــوع، ودعني بأدب ورجع، أم محمد قامت بالواجب على أحسن حال، بواسطة جهاز الفاكس قمت بإرسال الترجمة إلى المركز الأمريكي، بعد ذلك مباشــرة اتصــلت بالســودان لمكالمة الوالد:

- أهلاً ... أمي، ســــلام، كيف الأحوال، اعذريني، لي مدة لم اتصل من شدة الانشغال.

- أهلا ابني، والله كم مشـــتاقة لك يا خالد، طلبت من والدك إرسال تذاكر لحضورك العيد معنا في السودان.

- وأنا أيضا مشتاق جدا.

- بجانبي والدك تكلم معه.

- أبي ... كيف صـــحتك وأحوالك رســـالتك وجدتها وأنا في مكتب الجامعة.

- إن شاء الله خير.

- موضـــوع عمك أبكر، لقد أكمل الدراســـة في خور طقت الثانوية، حصل على الدرجة النهائية ،قبلوه في جامعة الخرطوم، كلية الطب، لكنه مصر أن يسافر الخارج لأي جامعة، وجدت له بعثه لألمانيا ما رأيك؟

- فكرة ممتازة، سأبحث له عن الجامعات المناسبة، وأخبركم بعد رجوعي من السفر.

- إلى أين إن شاء الله؟

- موضـوع أكاديمي بحت، جامعة خليجية، طلبوني بالاسـم، بحكم تخصصي؛ لإنشاء شعبة للرياضيات.

- خير يا دكتور، أرجوك الابتعاد عن السياسة.

- إن شـــاء الله ... على فكره يا أبي، حصـــلت على الجواز الأمريكي اليوم.

- نعم ... مـا معني هـذا؟! أ تريـد التخلص من جنســـيتـك السودانية!! ... لا أوافق أبدا.

- يا أبي، لم أتخلَّ عن الجنسية السودانية.

- ماذا يقول الناس عنا؟! أنا وكيل عام وزارة الداخلية، حرام عليك يا خالد، هذا البلد علمك وينتظر خدمتك، هل يجوز تركها ، تصبح مواطنًا أمريكيًا؟!! ... أمك تبكي ،تريد التحدث معك.

- يا أمي ... لم تفهموا الموضوع.

- هذه مصيبة يا ابني، أتريد أن تكون خواجة؟! لن أرضى عليك في الدنيا، ولا في الآخرة... ماذا يقول الناس عنا؟!

- يا أمي أرجوك أنا، سأشرح لكم الموضوع.

- مادام أنت قادم هنا أيام العيد، سنعرف أكثر عن هذا الموضوع، الرجاء عدم إخطار أي شخص، أنت تعرف وضع والدك.

- مع السلامة يا أمي، نراكم بعد أيام.

- في وداعة الله يا ولدي ... كلم أباك.

- يا أبي والله لا توجد مشكلة، عند زيارتي سنتكلم ،حتى موضوع عمي سأناقشه معك.

- يا ابني، أنا كلمتي واحدة، لا أوافق على حصولك على الجواز الأمريكي ... مع السلامة.

انتهت المحادثة، بقي من الزمن خمس عشرة دقيقة على وصول ليليان ومحاسن، فعلا رن التليفون، كانت ليليان:

- مساء الخير يا دكتور، حسب موعدنا تمام.

- ألف مرحبة، أنا في الانتظار.

- بعد نصف ساعة أسرعت إلى باب العمارة الخلفي، صفت السيدة محاسن سيارتها في الجانب الأيمن من العمارة، فتحت ليليان باب السيارة بنفسها، حيث كانت تجلس بجوار محاسن، أسرعت، فتحت لمحاسن الباب، رحبت بابتسامة عريضة:

- تفضلوا.

- يا دكتور، في ظهرية السـيارة، خبيز خاص، عملته ليليان بمساعدتي المتواضعة.

- شكرا ... ما في لزوم للتعب، لكن أنا فرح به.

ليليان:

- شـقتك يـا دكتور، في مكـان مميز في بيروت من حيث الخضرة، وجمال العمارة.

- شكرا .... أصلا هذه الشقة اشتراها الوالد قبل سنتين، كنا نقضي الصيف دائما هنا، تفضلوا.

لا داع لاسـتعمال المصـعد، شـقتي في الطابق الأول، دخلت وفي يدي علبة الخبيز، دخلت ليليان أولا بلبسـها الأنيق، بنطلون ضـيق، يظهر تضـاريس جسـدها الشـاب، بلوفر وردي اللون مطاط، تعرج من عنقها ثم أحاط صـدرها المحافظ وخصـرها الضـيق إلى النصـف الأعلى من أردافها، بعدها دخلت محاسـن، في ثوب سـوداني جذاب، سـمني اللون، يفوح بطيب مثير، لم أميزه هل هو بـاريسـي أم خليط عطر سـوداني بعطر العود الهندي؟!

جلسنا سويا في الصالون المطل مباشرة على البحر، أسرعت إلى المطبخ؛ لإحضار المشروبات وطبق من المكسرات، وضعتها على طاولة يسـهل الوصـول اليها من الكرسـي الذي تجلس عليه محاسـن، لكنني غيرت وضـعها ؛لتصـل ليليان أيضـا، رجعت إلى المطبخ ؛لإحضار المزيد من واجب الضيافة فلحقت بي ليليان:

- دعني أسـاعدك يا دكتور، لا لزوم لكل هذه المأكولات محاسن تمارس الريجيم بدقه، أنا لا أكثر من الحلويات بطبيعتي.

- حسـنا أرجو مسـاعدتي في تحضـير المأكولات الخفيفة والشاي أو القهوة؟

جلســـنا في المطبخ بدل الصـــالون، قامت ليليان بتحضـــير المأكولات وتسخينها، قمت أنا بإحضـار الشـاي والقهوة، دخلنا في شتى المواضيع السياسية وأخبار السودان، أعدنا شريط المناقشات التي حدثت في عيد ميلاد هادية، كان تركيزي على ليليان ،لايزال فضـــولي يتابعها برغم معرفتي الصـــدفية لأدق تفاصـــيل حياتها، تأكدت بأنها تميل إلى بروح صادقة، أنا متأكد بأنني متعلق بها أكثر وأكثر، بعد الأكل والشـــرب رجعنا إلى الصـــالون، أدرت جهاز الأسـطوانات، استمعنا بصـوت هادئ إلى أسـطوانة كرومه وأولاد الماحي ثم أسطوانات ري شارلس، واتس ريدنق.

تحركت من الصالون إلى مكتبي، تبعتني ليليان، صارحتني أنها معجبة بالشـقة، أن تراها بالتفصـيل، بينما كانت محاسـن مشـغولة بمراجعة الأســطوانات.... تجولت مع ليليان داخل الشـــقة، عندما دخلنا غرفة الضـــيوف بنفس الجراءة التي عرفتها فيها قالت ليليان بسخرية وابتسامة:

- لمن يكون قميص النوم النســـائي الشـــفاف الجميل هذا يا دكتور!؟!

ارتبكت، لم أدرك عن ماذا تتكلم ليليان، تمعنت فوجدت ما لم يكن بالحسبان، بخجل شديد:

- أكيد نسيته مجدولين على الشماعة.

- من تكون مجدولين؟

- صـــديقة مايكل جيبر الذي قابلناه في المطعم، من جنود القاعدة الأمريكية، هذه قصـــة تطول إذا رغبتي الاســـتماع إليها بالتفاصيل الكاملة.

بحزن وضح على وجهها:

- لا داعي ....

خرجت مسرعة من حجرة الضيوف، جلست بجوار محاسن في الصالون، أحمرَّ وجهها، همست لمحاسن لفترة، ثم صمتت في ذهول واستغراب.

لسوء حظي، هو قميص نوم نسيته مجدولين أثناء تحضير نفسها لمغادرة الشقة إلي شقة جستن، كان في شماعة حجرة الضيوف ،لم ألحظ مكانه، إن المصائب لا تأتى فرادى، لماذا في هذا اليوم؟ لعنت حظي في صمت ،تبعت ليليان إلى الصالون ،وقفت بينها وبين محاسن التي عرفت الموضوع، لم أجد خيارا غير المزيد من الصراحة وتوضيح موضوع مجدولين بتفاصيله:

- ليليان ... يبدو بكل أسف، دربنا مليئ بالأشواك من البداية ... اسمعي لي أمام محاسن الآن ... قصة مجدولين بكل صدق وأمانه.

استرسلت بدون تردد في تفاصيل قصة مجدولين ومايكل جيير.

كانت ليليان تستمع إلي بكل حواسها ،أيضا محاسن التي قالت مباشرة بعد انتهاء سردي:

- والله لا لزوم ،أنا أشعر بصدقك في كل كلمة قلتها يا دكتور خالد.

هنا تدخلت ليليان بعد زوال اللبس عن وجهها ،بدأت تستعيد روحها المرحة:

- يا دكتور ،أنا أيضا أصدقك، ليس هنالك داع لاستجوابك، نحن على أبواب التعارف، ما دمت تساعد بهذه المروءة فأبارك لك ما فعلت، أنا أتشوق لمعرفة مجدولين، يراودني شعور بأنها تشبهني إلي حد بعيد، ربنا يساعدها ويحفظها، أنا أيضا مستعدة لمساعدتها إذا لزم الأمر.

- فعلا يا ليليان إنها تشبهك، شعر أشقر، عيون زرق، سترينها قريبا بعد رجوعي من السفر.

انجلى الموقف تماما بعد توضيحي، استمررنا في الاستماع إلى الموسيقي في الصالون، أمامنا البار المحاط بطاولة نصف دائرية من الرخام الإيطالي البني اللون ،مقاعد عالية من النيكل، جلست على واحد من المقاعد؛ لتغيير أسطوانة ووضع أخرى من حقيبة الفن للمطرب كرومه، تناولت من الثلاجة زجاجة بيرة بلزينر، لحقتني محاسن، جلست في الكرسي اليميني، فاجأتني بطلب زجاجة بيرة، أسرعت لتلبية طلبها ،صببت لها البيرة في كوب من الكريستال البهيمي:

- هل ليليان تريد أيضا؟!
- إنها لم تجرب أي شراب كحولي في حياتها، لا تحب أن تجرب.

انضمت ليليان للجلوس على البار في يساري، اكتفت بزجاجة العصير التي كانت في يدها:

- يا دكتور خالد، أرجوك ألا تلوم الإسلام، في موضوع ما ملكت أيمانكم، لم يكن الإسلام النظام الوحيد الذي عامل الأسرى رقيقًا... هكذا كانت المسيحية واليهودية ... كلها قساوة.
- هل تتفقين معي يا ليليان في أن الأديان لم تأتِ بالخلاص؟!
- مثلا هل البوذية لم تستعبد يا دكتور؟

(٩)

قبل أن أرد عليها يرن التليفون:

- أهلاً

- جستن معك يا دكتور خالد، الآنسة مجدولين بحالة صحية سيئة جدا ... لم أرد إزعاجك لكن اتصلت بمايكل جبير؛ لإخطاره، علمت أنه في الحبس؛ لذلك أردت إخطارك، لا أعرف ماذا أعمل؟! هي لا تعرف غير اللغة العربية، أخاف عليها من مضاعفات يمكن أن تؤثر عليها وهي كما تعلم حامل، دكتوره صني خارج الشقة في زيارة لصديقة لها.

- سأكون عندك حالا ،سأطلب الممرضة الفلبينية؛ لترافقني أيضا، تقول: إن مايكل في الحبس؟! هل تعرف السبب؟

- لا أعرف السبب.

- معي ضيوف سأتركهم، سأصلك بالتاكسي حالا.

استمعت ليليان ومحاسن إلى الحديث الذي دار بيني وبين جستن، أصرت ليليان على معرفة المزيد من التفاصيل، بل طلبت مرافقة الممرضة؛ لإسعاف مجدولين، الموقف أصبح مربكا، لم أر أي مانع أن تلمس ليليان حقيقة مجدولين بنفسها، هذه فرصة.

تدخلت محاسن ،طلبت مساعدتنا بسيارتها، من جانبي اتصلت بالممرضة، لم أجدها.

- بما لدي من المعرفة القليلة من كتب الطب أريد المساعدة

خرجنا بسرعة، تركنا كل شيء بشقتي كما هو، في أقل من عشر دقائق وصلنا إلى شقة جستن، عرفت جستن بليليان، وجدت أنه يعرف محاسن من خلال حفلات السفارات، طلبت منه بألا تعرف مجدولين وجود مايكل في الحبس، وهي في هذه الحالة، أسرعنا إلى حجرة مجدولين، قامت ليليان بقياس حرارتها المرتفعة، وضعت ضمادات على جبينها، محاسن تساعد ليليان في عمل ما أمكن معا، وهي مشدوهة من حال مجدولين.

تشاورت مع جستن، قررنا الاتصال بالدكتور الخاص بالسفارة الهولندية بعد إخطار والده السفير، في أقل من نصف ساعة وصل الدكتور، قام بالكشف على مجدولين ،طمأننا أن الأمر ليس غير أعراض الحمل؛ لتخفيف آلامها قام بحقنها في العضل ،أعطاها أقراصًا مسكنة كانت في حقيبته، طلب الدكتور تسجيل اسمها وهويتها، لكنني شرحت له ظروف مجدولين غير العادية، قمت من جانبي بكتابة شيك؛ لتغطية أتعابه بدلا من إرسال فاتورة للسفارة الهولندية.

بعد مغادرة الدكتور دخلت حجرة مجدولين، تغير وضعها تماما، كانت تتبادل الحديث مع ليليان ومحاسن وهي تبتسم، همست ليليان في أذني.

- ألم أقل لك إنها تشبهني؟! والله كأنها أختي الصغيرة.

دخل علينا جستن يحمل القهوة والشاي وهو فرح، فقامت مجدولين من السرير، بدأت في صب القهوة، منعتها محاسن، قامت بالنيابة عنها بما لزم، استأذنت مجدولين ودخلت الحمام، رجعت بعد دقائق وقد صفت شعرها وأصلحت هندامها، بدت كملاك صغير بعيونها الزرقاء البريئة وبسمتها الطبيعية، بدون مكياج، جلست بجوار ليليان:

- أشكرك يا دكتور خالد ،أشكركم جميعا للاهتمام بي ،أنا بخير والحمد لله.

- المهم سلامتك يا مجدولين ،أعرفك على الأخت محاسن من السودان، تعمل في بيروت ،ليليان طالبة من السودان في جامعة بيروت.

- أهلاً بكم ... ما كنت أعرف أن في السودان ناس لونهم أبيض، كنت أعتقد ليليان لبنانية من لون عيونها وشعرها.

- في السودان خليط من الألوان والبشر كما ترينا الآن.

تدخلت ليليان، عندما شعرت أن مجدولين ساذجة، غير متعلمة، لا تعرف أي شيء عن العالم:

- سلامتك يا مجدولين، إذا مكنتنا الظروف فإن شاء الله نأخذك معنا السودان، وتري الناس هناك.

- لا مانع يا ليليان.... أنا أختك الصغيرة، الشبه بيني وبينك سبحان الله عجيب.

- من اليوم اعتبريني مسؤولة عنك، سأزورك يوميا؛ لأطمئن على حالتك، خاصـــة أن دكتور خالد ســيســافر يوم الخميس في مهمة عمل مدة أســـبوع، عليه تأخر الوقت الآن ،في رعاية الله عليك بأخذ الأقراص في وقتها كما أوصى الدكتور.

- شـكرا لكم ،أنا بخير الآن، سـأعمل بنصـيحة الدكتور، مع السلامة.

ودعنا مجدولين وجستن .... وفي الطريق، طلبت من محاسن وليليان، الاسـتمرار في مواصـلة جلسـتنا بشـقتي، لكن ذكرتني محاســن، بأن ابنتها تنتظرها عند مدرســة اللغة الإنجليزية، أمام مدخل عمارتي أوقفت سـيارتها، نزلت، دخلت شـقتي ،أنا مرهق من عناء اليوم، هيأت حالي للنوم، بدون أن أبذل أي مجهود في ترتيب الشقة، تركت كل ذلك لأم محمد.

يرن جرس التليفون:

- أهلاً ... دكتور خالد .

- أهلا ليليان إن شــاء الله وصــلتم بالســلامة ؟، ســامحوني أتعبتكم.

- ما في تعب ،نحن ننضم إليك؛ لمساعدة أناس يحتاجون إلينا ... نقدم المستطاع.

- مســـكينة مجدولين ... أنا أحس بمعاناتها؛ لأنها لم تر أمها منذ حملها، لا تســـتطيع الرجوع إلى ضـــاحيتها، من المؤكد أن عشيرتها تبحث عنها.

- لا حول ولا قوة إلا بالله ، هذا ظلم.

- المصــيبة الكبيرة، مايكل صــديقها يقضــي فترة ســجن في القاعدة، السبب من المؤكد هو إيواء مجدولين المسكينة.

- أريد تليفون صـــديقك جســـتن؛ لأتمكن من الاتصـــال بمجدولين، ومساعدتها بكل ما أستطيع.

-

- من فضلك، لا تتعرضي في الحديث معها، لحبس مايكل، ربما تصاب بصدمة وهي حامل... سأكون مشغولاً غدا بالتحضير للسفر.

- لا تقلق فأنا ومحاسن سنأخذك يوم الخميس إلى المطار بواسطة سائق السفارة كما تقول محاسن، وآخذ منك تليفون جستن.

- من بين ما أريد عمله غدا مقابلة المحامي بكري الجعلي؛ لاستشارته في بعض الأمور، سأتصل بك لاحقا، قدمي شكري لمحاسن، لك الشكر ،نامي؛ لأن الوقت تأخر، مع السلامة.

- أنا متأسفة على أسئلتي السخيفة، أشعر الآن بالإحراج ... مجدولين مسكينة، تستحق الشفقة، تصبح على خير.

- لا تأخذي في بالك ... ومع السلامة.

وضعت السماعة، غبت في نوم عميق، أيقظني جرس الباب، كانت أم محمد قد حضرت؛ لترتيب الشقة وأخذ راتبها الشهري، تعودت تركه لها في ظرف على طاولة المطبخ آخر كل شهر، رجعت إلى حجرة النوم، تركت لها الشقة؛ لتقوم بترتيبها كما تعودت، وآخذ بقايا الأكل غير التالف معها، بعد الانتهاء من عملها، وهي أمام باب الشقة، ناديت عليها، أخبرتها بسفري مدة أسبوع ؛لعمل خارج لبنان، وضعت في يدها مرتب أسبوع إضافي، شكرتني، تمنت لي التوفيق، أخذت معها الأكياس التي جمعت فيها أطعمة من المطبخ والبراد، ودعتني ،خرجت.

موضوع مايكل ومجدولين، أصبح أمامي كصورة مدبلجة من شخصي وحبيبة قلبي ليليان لذلك خبر حبس مايكل يشغلني؛ لأني أرى شخصي فيه، أرى شخص ليليان في مجدولين المسكينة، قمت بالاتصال بصديق في المركز؛ لمعرفة أسباب حبس مايكل، أنا أعلم مسبقا أنها مجدولين وإقامتها في فندق المركز بالتخفي ،دون علم المسؤولين، فعلا الكاميرات أثبتت تخفي مجدولين مع مايكل ،في اليوم الذي وجهت التهمة لمايكل

كان من المعتقد وجود مجدولين معه، لكن لحسن حظه لم تكن، مما خفف عقوبته لحبس شهر واحد بدأ في اليوم الثاني من زيارتي للمركز، الذي أُخذت فيه مجدولين معي.

شعرت ببعض الارتياح لمعرفة الحقيقة، فورا اتصلت بصديقي جستن ،أخبرته بما علمت عن مايكل، أكدت عليه للمرة الثانية عدم إخبار مجدولين، قبل إنهاء المكالمة معه، طلبت الحديث مع مجدولين، اطمأننت عليها، شعرت من صوتها بأنها بخير وعافية، طمأنتها على مايكل وأنه في ظرف خاص لا يمكنه مكالمتها، وعدتها خيرا بعد رجوعي من السفر، سنتقابل كلنا في شقتي، عليها باتباع تعليمات الطبيب.

بعد ذلك اتصلت بالمحامي بكري الجعلي ؛ للاستشارة:

- صباح الخير يا أستاذ بكري ... أي جواز يمكنني استعماله في السفر!

- سافر بالجواز السوداني، لكن الجواز الأمريكي لا يحتاج إلى فيزه، غدًا سوف أكون أمام النيابة في موضوعك، على فكرة هل تتذكر السائق الفلسطيني الذي صدم سيارتك؟

- أكيد، اسمه أبو إياد.

- هذا مهم جدا؛ لأني سأطلبه كشاهد في القضية، لقد قمت بتحرياتي اللازمة في قضيتك ،علمت أن السائق في السجن منذ تاريخ الحادث؛ لان السيد المحترم توني فنار البسه قضية الإهمال، صدم سيارته الفارهة، القضية هي الإهمال واستعمال السيارة في مشاويره الخاصة، قام مكتب توني القانوني بكل ذلك؛ لإبعاده عن قضيتك التي أودعها لدى النيابة، كل هذا هين لكن كما ذكرت لك لمثل هذا النوع من رجال الأعمال مليشيات وشبيحة يأتمرون بأمرهم لتصفية أي خلاف بينهم وبين شخص آخر، فعليك بالحذر يا دكتور ... تقديري لتسوية القضية سنطالب بتسعين ألف إسترليني؛ لكونك تحمل الجواز الأمريكي، كلمة نيجر لأي زنجي أمريكي داخل الولايات المتحدة معناها السجن الطويل ،لا تقبل حتى التسوية.

- هل تعتقد، السائق سيشهد بالحقيقة؟!

- أكيد أنه لا يخاف من قول الحقيقة خاصـــة، أنَّ توني قام بالخطأ الفادح معتقدا أن القضـــية مضـــمونه بالنســـبة إليه وإبعاد السائق وتلفيق قضية له كأسرع طريق لإثبات الاتهام.

- ألا تعتقد أن تسـعين ألف مبلغ كبير يطيل مدة القضـية بينك وبين محامي هذا الخنزير؟

- يا دكتور هذه لعبتنا ... هل أنت تعرف هذا المفتري توني يجلس على ثروة قوامها مليون إســترليني؟ ما طلبته، لا شـــيء بالنسـبة إليه إذا علم بأنه يواجه شـخصـًا في قامتك العلمية ،تحمل الجواز الأمريكي، له اسـتثمارات واسـعة في فلوريدا وكاليفورنيا يخاف عليها، يا دكتور إذا لا تريد الفلوس نحن المحامون نحبها حبا جما ،ضـحك ضـحكة طويلة ،اسـترسـل ... في قضـيتك هذه والله لا أريد غير أتعاب المكتب وهي عشرون من مائة.

- شــكرا ســيد بكري ســنرى ماذا ســيحدث، أنا إذا نجحت القضـية، لي باب فاتح لصـرف هذا المال على أهل جدتي رحمها الله.

- سيقوم سائق سيارتي إسحاق بالبحث عن سائق مناسب ، يكون أيضا حارسا مسلحا ؛ لتغطيتك في هذه الظروف.

- سيارتي صغيرة جدا لا تسمح بوجود سائق.

- خلي الموضوع، أنا سأقوم بما لزم .... أي نوع تفضل من السيارات؟

- طبعا المرسيدس.

- تمام سـيتصـل مكتبي بوكيل المرسـيدس ... سـتجد سـيارتك الجديدة والسائق في انتظارك في المطار، أي لون تفضل يا دكتور؟

- يا سـيد بكري لا لزوم لكل هذا، دعنا نرى ما بعد القضـية، اللون المفضـل بالنسـبة لي هو نفس لون سـيارتي الحالية، الأحمر الداكن.

- يا دكتور وجودك يوم الخميس في بيروت ليس بالضرورة، إذا أردت إشـــراك خطيبتك ليليان أثناء غيابك فلا مانع أن تذهب معي إلى الوكالة ؛ لاختيار السيارة المناسبة.

- لا يا أستاذ بكري ... ليليان لا تعرف عن هذا الموضوع أي شـــيء ولا السـيدة محاسـن، ليليان ليسـت خطيبتي كما تعتقد، لا نزال في مرحلة التعارف والله أعلم ماذا يخبئ القدر لنا.

- أمرك يا دكتور ... فلا تهول موضـوع السـيارة، الأسـعار مهولة والأقسـاط طويلة الأمد خمس سـنين أو أكثر، أفضـل لك عربة بنفس مواصـفات سـيارتي، ضـد الطلق الناري والألغام، والمقدم بسيط والأقساط لمدة خمس سنوات بربحية ٥% اتركني يا دكتور أتكفل بكل ما لزم لحين حضورك ... أفضال أبيك كثيرة علينا ،هذه فرصـة لرد بعضـها، على فكرة أنا المستشار القانوني لتوكيل مرسيدس.

- شـكرا أخي بكري .... وهو كذلك، الرجاء إرسـال إسـحاق إلى منزلي الآن؛ لأبعث معه شيكا لحين حضوري.

- يستحيل أن ترسل أي شيء ... تكفيني موافقتك وشكرا.

- أخجلتني يا بكري أرجوك إرسال إسحاق...

- سأرسل لك إسحاق غدا؛ لتوصيلك إلى المطار.

- يا بكري أرجوك ... أيضـا موضـوع توصـيلي إلى المطار محسوم مع محاسن وليليان.

- أعلم ذلك ... أنا ألغيت ترتيبات محاسـن.... لأن إسـحاق بعد توصيلك سيرجع إلى الحضور معي إلى المحكمة.

- كتر الله خيرك يا بكري والله أتعبتك، مع السلامة.

وضعت السماعة، بدأت أفكر فيما قاله المحامي بكري الجعلي، المصائب تتوالى على، من الواضح أن قصة توني فنار ليست بالموضوع السهل كما فهمت من بكري، كيف لو أنكر السائق كل ما يبني عليه بكري؟! وعليّ تغيير ملفي الشخصي بالجامعة بعد حصولي على الجواز الأمريكي، كذلك رخصة السواقة، كل هذا هين، لكن ماذا لو عرفت ليليان؟!! وهي التي تنتظرني لأدرس لها رأس المال لكارل ماركس، وإذا بي أصبح مواطنًا أمريكيًا، بلاد الرأسمالية، يرن جرس التليفون:

- أهلاً ليليان كيف أصبحت؟

- بخير، لكن أشعر بالشفقة على مجدولين، هل اتصلت؛ لتعرف حالها اليوم؟

- نعم اتصلت، هي بخير، تسلم عليك.

- أرجو ألا تنسى إعطائي تليفون جستن؛ لأتمكن من الحديث مع مجدولين،

- لازم نتقابل قبل سفري.

- محاسن أخبرتني أن سائق بكري سيقوم بتوصيلك إلى المطار.

- نعم ... سأمر على شقة محاسن لوداعك وإعطائك تليفون جستن.

- إلى اللقاء ،مع السلامة يا دكتور.

وصل سائق بكري في موعده، الساعة العاشرة صباحاً، أخذ حقائبي من الشقة، توجهنا معا إلى منزل محاسن، لم يكلفني بالوصف؛ لأنه كان يعرف الطريق جيداً، تركته أمام العمارة، صعدت إلى شقة محاسن رقم ٣٩ ب، استقبلتني ليليان بالترحاب:

- يا صباح الخير.

- مرحبًا يا دكتور ... تفضل.

دخلت حجرة الاستقبال، قدمت لي كوبا من الشكلاء الساخنة:

- محاسن ذهبت مع ابنتها إلى المدرسة كالعادة ،بعد ذلك إلى السفارة.

- سلمي عليها ،اشكريها على خدماتها ... لكن يا ليليان، أريد ترك مفتاح شـقتي عندك، أيضـا مفتاح العربية التي تركتها للتصليح، هذا تليفون جستن.

- شكرا على الثقة، لكن هذه مسؤولية كبيرة.

- المقدر غير معروف .... ممكن الطائرة تتحطم.

تقدمت ليليان نحوي خطوتين، أمسكت بالكرافات:

- فأل الله ولا فألك يا دكتور تصـل بالسـلامة ... أرى نفس ربطة العنق التي رأيتها عليك منذ تعارفنا الأول في مطار الخرطوم.

وقفت كالتلميذ أمام ليليان ،اقتربت بحذر الولهان نحوها، وهي ممسكة بربطة عنقي، ضغطت بأصابعي على كفها الناعم، وضعته على صدري، كنت أسمع نبضات قلبي أثناء لحظة الصمت التي فوجئت بها مشاعري المضطربة بين رهبة ليليان المتأكدة من كل خطوة تخطوها في طريق صلتنا الجديدة وبين شخصي الذي فقد ظله، مالت بقوامها اللدن نحوي، حضـنتها بلطف وحذر، حتى لامس صدرها بخجل قامتي العملاقة، كأنها طفل ينام في بحضن أمه، أفاقت ليليان بعد ثوانٍ ،تراجعت إلى الخلف، فأخليت سبيلها.

لم أطل الانتظار أمامها، خوفا أن تظن أنني استخف بشخصها، خاصة أنها كانت وحدها في الشقة، أخرجت دفتر شيكاتي ومعه ألف إسترليني، نصف ما حصلت عليه من السفارة، احتفظت بالباقي للرحلة، طلبت منها إيداع المبلغ في البنك والاحتفاظ بدفتر الشيكات لحين رجوعي، تضايقت من طلبي، لكنها اقتنعت أن تقوم بخدمتي كما أشعرتها دائما أنني في خدمتها، ودعتها بقبلة خفيفة على جبينها ،نحن على باب الشقة.

قالت:

- الرجاء الاتصال بمجرد وصولك، تتبعك السلامة.

- أكيد ،سلمك الله يا ليليان.

- مساعدة مجدولين مهمة، لو احتاجت إلى أي فلوس، أرجو التصرف في المبلغ المتروك في عهدتك.

- سأتصل بها الآن، لا تهتم فإنها أختي الصغيرة.

- مع السلامة، إلى اللقاء.

أسرعت إلى السيارة، ولولا مهارة إسحاق، لتأخرت عن الوصول في الموعد، في الطريق أوضح لي إسحاق:

- وجدت السائق المناسب لك، هو ابن عمي، كان يعمل في القوات المسلحة، لكنه خرج بعد انسحاب القوات البريطانية من السودان، عمل في القاهرة، لكنه فضل الحضور هنا؛ ليكون معي.

شكرته على مجهوده ، وعدته خيرا بعد رجوعي.

(١٠)

في أقل من نصف ساعة، كنت داخل طائرة الشرق الأوسط، معي في الدرجة الأولى بعض الشيوخ وعائلاتهم وبعض رجال الأعمال، بعد إقلاع الطائرة بدأ تقديم المرطبات، الشاي، القهوة، الكحوليات، انشغلت بقراءة جريدة التايمز اللندنية، أمامي كوب من بيرة هاينكين الهولندية الباردة، بالجانب المحاذي لي التفت إلى رجل يلبس بدلة رمادية، خاطبني بإنجليزية مكسرة:

- عفوا ... سيادتكم من الولايات المتحدة؟

- لا، أنا من السودان.

غير لغته إلى العربية، خاطبني:

- يا هلا ... متأسف ،مرحبا بك، أقدم نفسي أنا الشيخ عبد الله الشمهري مدير البلدية، تاجر عقارات وكيل شركات عالمية.

- مرحبا ... أنا الدكتور خالد الناير أستاذ رياضيات بالجامعة الأمريكية ببيروت ... سعيد بالتعرف عليك.

- والنعم، يا أخي ... والله السودانيون لا يوجد مثلهم في الأمانة والشهامة، أنا شخصيا درست على أيادي أساتذة سودانيين بارك الله فيهم.

- شكرا أخي عبد الله على هذه الشهادة الجميلة.

- أريد منك يا دكتور أن تساعدني في إيجاد مدير سوداني لمكتبي في بيروت ... تعبت من اللبنانيين والفلسطينيين.

- لا أعدك الآن ...، لكن هذه بطاقة عملي ،نكون على اتصال.

- مشكور ،هذه بطاقة عملي أيضا ،أرجو أن نتقابل قبل رجوعك إلى بيروت.... أين تقيم يا دكتور.

- في فندق الهيلتون.

بعد ثلاث ساعات من الطيران المتواصل، أعلن الكابتن وصول الطائرة، جلس كل على مقعدة ،ربط الحزام، هبطت الطائرة، انشغل الجميع بتنزيل الحقائب، أكياس المشتريات من رفوف الطائرة، لازمت الشيخ عبد الله الشمهري، حتى غرفة كبار الزوار، فكرت معه بجدية في كيفية إيجاد مدير مناسب، تذكرت صديقي المحامي بكري الجعلي، ربما يكون أقدر مني على إيجاد الشخص المناسب لمكتب الشمهري في بيروت، طرحت الفكرة على الشيخ بسرعة حتى ظهرت الحقائب، فرح لاهتمامي:

- أريد مديرًا، سودانيًا بأي طريقة، أتمنى لو تكون أنت يا دكتور.

- إن شاء الله.

قبل مغادرة المطار، اقترح الشيخ توصيلي إلى الفندق، كان في انتظاره أمام الصالة سائقه الخاص، سحنته ، ملامح وجهه أقرب إلى السوداني منه إلى الهنود السود، شكرته ،أوضحت له أن شخصا ما، سيقابلني من الجامعة.

رأيت لافتة تحمل اسمي، توجهت إلى الشخص، كان من الأساتذة السودانيين، تعانقنا بالطريقة السودانية ،قدم نفسه:

- مرحبًا دكتور خالد ... معك دكتور قاسم الجرافي.
- شكرا على استقبالك...، كيف أحوالكم مع هؤلاء القوم؟
- الحمد لله، بلد حار في كل المواسم ...، أنا حضرت من جامعة ملامو السويدية، يمكنك تخيل فارق درجة الحرارة.
- الله يكون في عونكم.

ركبت مع دكتور قاسم سيارته، توجهنا إلي الهيلتون، شرح لي أن عميد الجامعة سيقيم حفل عشاء؛ لاستقبالي مساء الغد، أما هو والأساتذة السودانيون، سيحضرون مساء اليوم وسيحضر شخصيا مع زوجته السويدية؛ ليرافقني إلى مكان اللقاء داخل المدينة.

بعد ذهاب دكتور قاسم، الذي رافقني، حتى حجرتي في الفندق، أول ما قمت به الاتصال بليليان:

- أهلاً ليليان
- أهلا دكتور الحمد لله على السلامة ... كيف الجو عندكم.
- نار الله الموقدة ... برنامجي يبدأ غدا.
- بعد سفرك صباح اليوم، اتصلت بجستن، عرفت منه أن مجدولين نقلت إلى المستشفى، أنا في انتظار محاسن؛ لنذهب سويا؛ لزيارتها.
- ألم يوضح جستن سبب نقلها إلى المستشفى؟
- لا ... حقيقة لم أسأله.
- على أي حال، لا تضعي الفلوس التي تركتها معك، في البنك أرجو دفع كل تكاليف علاج مجدولين نيابة عني، أتمنى ألا يكتشف أهلها وجودها في المستشفى.

- المهم سأوافيك بكل المستجدات بعد زيارتي.

- شـــكرا ليليان، أنا متأســـف على إدخالك معي في مثل هذه المشاكل.

- لا تهتم حبيبي ... أفتخر بشهامتك ومروءتك النادرة في هذه الأيام... سأقوم بما لزم نحو مجدولين حتى حضورك.

- شـكرا ،سـلامي إلى محاسـن، سـأتصـل بجسـتن؛ لمعرفة التفاصيل منه.

- مع السلامة يا دكتور، خد بالك من نفسك يا حبيبي.

وضــعت الســماعة، كدت أطير من الفرح عند ســماعي من ليليان كلمة حبيبي، بجانب قلقي على مجدولين المســكينة، أدرت قرص التليفون؛ لمعرفة المزيد عن مجدولين من جستن فلم أجده، اتصــلت في فترات متعددة، وبعد ثلاث ســاعات وجدت دكتورة صني الأمهرية:

- أهلاً

- صـــني معك يا دكتور ... عرفت أنك ســـافرت ... كيف حالك؟

- بخير ... ماذا حدث لمجدولين؟

- أصـيبت بنزيف، قمت مع جسـتن بأخذها إلى المسـتشـفى الجامعي، تركتها قبل ساعتين بعد استقرار حالتها.

- أي تكاليف مالية ستقوم ليليان بدفعها نيابة عني.

- يا دكتور نســيت أن أبارك لك ليليان، والله منتهى الجمال والروعة والشــهامة ... لكن جســمها أقل مني بكثير ، ما رأيك؟ لم تكلمني عنها ومتي تعرفت عليها؟ قابلتها للمرة الثانية قبل ســاعتين تقريبا، في المسـتشـفى الجامعي، معها محاسـن حبيبتي، عرفت من محاسن ما يدور بينك وبين ليليان، ألف مبروك

المرة الأولى كانت في مقابلة اتحاد الطلاب، لفتت انتباهي عيونها الزرق /تدعي أنها من السودان، غير ممكن، لازم أسافر السودان لأرى بنفسي هل السودانيون أحباش كما يؤكد التاريخ أم يهود؟! فهل يعقل أن تكون أنت سوداني وليليان سودانية؟!... عليه جستن أمام الباب يريد مكالمتك.

- أهلاً دكتور ... مجدولين ستكون بخير قبل رجوعك من السفر، بطريقة ما تمكنت من محادثة مايكل جيير ،عرفت منه أنه لا يزال في الحبس، لكنه شرح موقفه الإنساني من صديقته مجدولين لهيئة المحكمة العسكرية، طلب السماح له بالزواج منها، وإرسالها إلى أمريكا، لتضع مولوده في أتلانتا جورجيا مقر عائلته، تأكد بأن مدة حبسه ستكون أقصر، طمأنته على حالة مجدولين، هو متلهف لرؤيتها، كيف حالك أنت؟

- بخير ،لك الشكر على كل ما قمت به نحو مجدولين ومايكل، وضحت لصني أن تكاليف العلاج ستقوم ليليان بدفعها نيابة عنى، أرجو تسليمها فواتير المستشفى.

- حسنا ... لا تهتم، فأنا قمت بدفعها، فلا توجد أي التزامات مالية لاحقة، خاصة، صني هي الدكتورة المباشرة لرعاية مجدولين، المهم أن تقضي مهمتك ونراك الأسبوع القادم.

- ألف شكر ... احتفظ بالفواتير لحين رجوعي، مع السلامة.

وضعت السماعة، بعد الاستحمام نزلت إلى بهو الفندق المصمم بالزخارف العربية، العمال والعاملات معظمهم من الهنود، تصفحت بعض الصحف ،تقدمت شابة تميل إلى السمرة تعمل في الفندق، صببت لي فنجانا من القهوة العربية، من ملامحها يبدو أنها حبشية، قوام مفصل على لبستها الفندقية الأنيقة، ذكرتني بصني نفس الملامح والتقاطيع، كأنها شقيقتها، كانت ترقبني عن بعد وهي تحمل إبريق القهوة، أسرعت ؛لتصب لي الفنجان الثاني، شكرتها ،مددت إليها نقوداً، كبقشيش، رفضت رفضاً باتا، أشعرتني بالحرج.

تركت البهو ،رجعت إلي حجرتي، غبت في نوم عميق لمدة ساعتين، أفقت على جرس تليفون من دكتور قاسم، الذي ينتظرني مع زوجته السويدية في الاستقبال، جهزت نفسي بسرعة، نزلت، أصررت عليهما أن نشرب سويا بعض المرطبات، أو البيرة قبل التوجه إلى مطعم السمك المتفق عليه.

تناول كل منا قنينة من البيرة الهولندية، انطلقنا بسيارة الدكتور قاسم، حيث كان في انتظارنا بقية الأساتذة السودانيين العاملين في الجامعة، دكتور خوجلي، دكتور الوليد، بعد التعارف بدأنا عشاء السمك ومناقشة السياسة السودانية، تكوين الحكومة وصراع الأنصار مع الأشقاء، مواقف الجبهة المعادية للاستعمار «الحزب الشيوعي السوداني».

بعد جلسة رائعة مع الزملاء السودانيين، غلب عليها النقاش السياسي، رجعت مع دكتور قاسم إلى الفندق، على أن نلتقي غدا في حفل الاستقبال الذي يقيمه عميد الجامعة، قضيت كل اليوم في الفندق منكبا على مراجعة المقترحات، التي صغتها في كتيب عبارة عن الخطوات اللازمة لافتتاح شعبة الرياضيات في الجامعة، في السابعة مساء جاء السائق الهندي بالسيارة التي خصصتها الجامعة لخدمتي، أوصلني السائق إلي صالة فندق شيراتون؛ لحضور دعوة العشاء، المقدمة من مدير الجامعة، في مدخل الصالة، رحب بي المدير، رجل أسمر اللون يبدو في العقد الخامس من العمر، متواضع، يلبس الغترة والعقال، معه بعض الأساتذة، بينهم ثلاثة سودانيون وثلاثة أوروبيون مع زوجاتهم وفلسطيني ومصري ولبناني.

كان مقعدي جوار المدير، بينما تجمع الضيوف في مجموعات تلقائية يتكلمون في شتى المواضيع، أهمها الطقس ودرجات الحرارة، دكتور قاسم جلس بالجانب المقابل للمدير، وعلى يمينه زوجته الدكتورة السويدية كرستين، هي أيضا تعمل في شعبة الكيمياء قسم الطالبات، تتكلم العربية المكسرة، لكنها دائما ما تُوصل رسالتها بوضوح.

عندما بدأ المدير يتكلم بلغة إنجليزية رصينة، صمت الجميع:

- نرحب بالدكتور خالد إبراهيم الناير، من أهلنا السودانيين، يشرفنا للمساعدة بخبرته في إنشاء شعبة الرياضيات في جامعتنا، الدكتور خالد تخرج بمرتبة الشرف في جامعة الخرطوم، حصل على الماجستير والدكتوراه من جامعة درم بالمملكة المتحدة، عمل أستاذًا زائرًا في جامعة ميونخ بألمانيا الاتحادية، وجامعة وارسو بجمهورية بولندا الاشتراكية، ثم عمل أستاذا بجامعة الخرطوم، الآن يعمل مديرا لشعبة الرياضيات بالجامعة الأمريكية ببيروت، له عدة بحوث نشرت في مجلات علمية محكّمة، رحبوا معي بالدكتور خالد.

صفق الجميع، عقبت على حديث المدير:

- أشكر السيد المدير الدكتور إبراهيم فيروز على استضافتي، أشكركم جميعا لحسن استقبالي.

المجال متاح للتعارف مع الجميع، بدأ الأكل نظام البوفيه المفتوح، كل يحمل طبقه بنفسه ،يتجول حول المعروضات الشهية من فواكه البحر الخليجية، حولي دكتور قاسم ودكتور خوجلي ودكتور الوليد، انشغلنا مرة أخرى بأخبار السودان، تجارب الحياة في الخليج، تجاربي في لبنان، دكتور قاسم كان نجم النقاش لما له من نوادر مضحكة، زوجته تلتصق به في أي خطوة يخطوها، قال وهو يضحك:

- هذه الخوجاية جلبت لي فضول أهل البلد بلونها الأبيض وشعرها الأشقر وعيونها الخضراء، في يوم من الأيام، في سوق شعبي، استوقفني رجل مسن أسود اللون من أهل البلد، قال لي:

- كيف زوجوك هذه البيضاء وأنت أسود؟!

- كان ردي:

- عندما قامت الثورة المهدية، هزم المهدي الأتراك، قام بعده خليفته عبد الله التعايشـــي رضـــى الله عنه، بغزو بريطانيا العظمى والسويد، بعد دخول البريطانيين والسويديين الإسلام، قسمت الغنائم من ســـلاح، حصـــين، وبهائم، ونســـاء، كان جدي الله يرحمه من الصـــحابة الذين خاضـــوا المعارك بســـيوفهم وجيادهم، فمنح بعد المعركـة، عشـــرين من الجواري الســـويـديـات، وخمسًـــا من البريطانيات، من هذا النوع الأشـقر، أصـبحن مما ملكت أيمانه، أنا ورثت من جدي خمســـة، هذه واحدة مما ملكت أيماني والبقية في السودان.

فكان رد المسن:

- طال عمرك أنا أبغي أســافر الســودان ،اشــتري عشــرة، قلت له:

- جهز جوازك لكن الدفع مقدمًا.

ضحكنا جميعنا، كما ضحكت كرستين، هي تحفظ القصة عن ظهر قلب، أضافت من جانبها:

- حتي بنـات الجـامعـة، يســـألنني كيف تتزوجين هـذا العبـد الأسود، فقلت لهن نفس السيرة، عندما فتح السويديون السودان، كان دكتور قاســم واحدًا من عبيدي العشــرة، وما ملكت أيماني، أشياء لا تصدق، فلا طريق إلا المزح.

رغبة مني في التعرف علي الجميع تركت إخوتي السودانيين، تفرغت لحديث مع الخواجات الذين تجمعوا حول المدير، كل واحد منهم ممسك بزوجته بكل أدب واحترام، بادرتني زوجة أحد الخواجات، سألتني:

- ما انطباعاتك عند زيارتك لجامعة كرا كوف في بولندا؟ حقيقة يا دكتور، أنا من أصل بولندي، هاجر والدي إلى بريطانيا، تربيت ودرست فيها.

- الحقيقة، الشعب البولندي من أميز الشعوب التي عرفتها، وأكرمها، نساء بولندا من أجمل نساء القارة الأوروبية على الإطلاق،

- البولنديات هجين جمع شرق وغرب وجنوب وشمال القارة الأوروبية، لكنني أعتقد أن النساء العربيات، أجمل بكثير من الأوروبيات فما رأيك؟.

- حقيقة أن الفتوحات الإسلامية في آسيا وأوروبا وأفريقيا طيلة الحقب التاريخية ونظام السبي الإسلامي لأسرى الحروب من النساء بما يسمى ملك اليمين، حسن نسل الجزيرة العربية ، خاصة من أصول الفارسيات اللاتي عُرفن من منذ القدم بالجمال والقوام.

في اللحظة التي بدأ فيها دكتور إبراهيم فيروز التعليق على ما قلته، أشار إلي بيده أحد زوار المطعم، أقدم نحوي مسرعا بالترحاب، كان نفس الرجل الذي قابلته في الطائرة، رجل الأعمال الشيخ عبد الله الشمهري، سلم بحرارة على دكتور إبراهيم فيروز بالاسم ما يدل على أنهما معارف:

- أنا سعيد بمقابلتك يا دكتور إبراهيم فيروز، استأذنك دقائق أن أكلم ضيفك دكتور خالد، على فكرة كنت معه في نفس الطائرة القادمة من بيروت.

- تفضل، لازم تزورني هذا الأسبوع في الجامعة.

- إن شاء الله.

أخذني الشمهري إلى طاولة في عمق المطعم بعيدة عن البوفيه، قدمني لسكرتيرته الخاصة الآنسة شرين التي تعمل في مكتبه ببيروت:

- شرين للمرة الثانية من حسن الحظ أن أقابل دكتور خالد، الذي أخبرتك عنه، أريد أن اخذ من وقتك يا دكتور خالد، دكتور إبراهيم فيروز صديق قديم، يعرفني جيدا، شرين ستتصل بك غدا؛ لتنظيم عشاء إذا يناسبك الوقت.

- ســـأعرف غدا كل البرامج المعدة بواســـطة الجامعة، في انتظار تليفون شرين، هذا تليفونـي في فندق الهيلتون.

- لك الشـــكر دكتور خـالد، دعني أرجعك إلى المجموعة، أذكرك وصيتي في إيجاد مدير سوداني لمكتبي في بيروت.

ودعت شرين، استأذنت، تبعني الشيخ الشمهري إلى حيث كنت، رجع إلى طاولته في عمق المطعم، هذه المرة جلست بجانب دكتور رزق المصـري، ودكتور فيصـل من فلسـطين، انضـم إلينا دكتور قاسم الجرافي، واصلنا الضحك لنكته قالها دكتور رزق:

ثلاثة خليجيون قال الأول: شـفتم البحر الأحمر ؟ أنا الذي لونته، قال الثاني شـــفتم البحر الميت؟ أنا الذي قتلته، قال الثالث شـــفتم المحيط الهندي؟ هذا أنا كفيله.

ضـــحك الجميع، أما أنا ضـــحكت من باب المجاملة؛ لأنني لا أعرف المقصود من كلمة كفيل، لكن دكتور فيصل قام بشرحها لي، انتهت الحفلة أعادني الســـائق إلى الفندق، بمجرد دخولي، فوجئت بوجود شرين في البهو تجلس وحدها، سلمت عليها:

- السلام عليكم، الآنسة شرين أم شبيهتها.

- مرحبًا دكتور خالد، وصلت لتوي من المطعم ... تفضل.

- شكرا جزيلا.

جلســـت على المقعد المقابل لها، تمعنت في وجهها المرهق وعيونها الماكرة الذكية، شـــابة في الثلاثينيات، جمال متوســـط، ملبســـها الأنيق جعل الإغراء فيها ســـافرا، امرأة جســـور لكنها لم تكن من النوع الذي يلفت نظري:

- **هل أنت مقيمة بالفندق؟**

- نعم منذ يوم أمس، بعد حضـوري مع الشـيخ الشـمهري من بيروت، أعرف أنك كنت تجلس بجانبـه، كنـت أنـا فـي الدرجـة السياحية.

- لماذا لم تخبريني، وأنا معكم في المطعم.

- عفوا، كنت أعتقد أن الشيخ الشمهري قد أخبرك.

- لم يخبرني ... أتوقع تليفونك غدا حسب ما اتفقنا، سأعرف برنامجي غدا، بعد أول اجتماع لي بالجامعة، هل تريدين أي نوع من الشراب.

- شكرا الوقت، متأخر لكن سأتناول قدحا من القهوة العربية.

- حسنا سأنادي على الجرسون.

أقبلت علينا نفس الأثيوبية، بوجهها الهادئ الجميل، تقاسيم جسمها الأمهري الشاب، قدمت قدحا لشرين، ثم قدمت لي، شكرتها ،رجعت إلى مكانها، أحضرت لي مظروفا بداخله رسالة كتب فيها:

- «من ليليان الرجاء الاتصال».

استأذنت من شرين، توجهت للاستقبال، طلبت ليليان:

- أهلاً ليليان

- حبيبي خالد كنت في أشد الحاجة إلى مكالمتك.

- أنا بخير والحمد لله ، أخبريني كيف أنت وكيف حال مجدولين؟

- أنا أيضا بخير والحمد لله، مجدولين نقلتها معي في حجرتي.

- ماذا حدث؟ ... هل هي بخير؟ أخبريني يا ليليان.

- اختلاف حدث بينها وبين صني الحبشية، قررت ترك شقة جستن.

- أرجوك خذيها إلي شقتي؛ لأن محاسن تعمل في سفارة، أخاف عليها من المراقبة، يمكنك الإقامة معها في الشقة لحين حضوري.

- سأناقش هذا الموضوع مع محاسن صباح الغد، أيضا، اتصلت بشركة التأمين بخصوص إصلاح سيارتك، علمت منهم لا يتم إصلاحها إلا بعد تقرير الشرطة.

- حسنا، اتركي موضوع السيارة لحين حضوري، لكن أتمنى أن تنقلي مجدولين وتنتظري معها، سأخابرك صباح الغد.

- مع السلامة، خذ بالك من نفسك.

ودعت ليليان، رجعت إلى شرين، اعتذرت لها، استأذنتها؛ لأني يجب أن أحضر بعض المواد لمقابلة أساتذة الجامعة، انصرفت بعد تكرار أسفي مما جعل شرين تنصرف أيضا، تركتها واقفة على الاستقبال ،صعدت إلى جناحي، قمت بترتيب أوراقي والمقترحات التي أعددتها ليوم الغد، خلدت إلى النوم وأنا أستعرض شخصية شرين الغامضة، ماذا يا ترى يريد الشيخ الشمهري مني، أنا مثقل بالكثير من المصائب والأحداث.

يجب أن أبتعد عن شرين وعن الشيخ الشمهري؛ لأنني لا أملك الوقت الكافي لمساعدة أي شخص، خاصة أنا على أعتاب علاقة من نوع مصيري مع ليليان، أحمل على ظهري أيضا مشاكل مجدولين ومايكل جيبر، قضية عضو البرلمان توني، إصلاح سيارتي، مواصلة قصة جدتي التي نسيتها أصلا بين الصراع اليومي للأحداث، في الصباح اتصلت بليليان، كنت سعيدا؛ لأنها قبلت اقتراحي بنقل مجدولين إلى شقتي، لكنها فضلت أن تظل في شقة محاسن، لم أصر عليها، بل تقبلت قرارها، أثناء محادثتي معها، حضر دكتور قاسم، استأذنت ليليان على موعد اتصال في المساء، ذهبت مع قاسم إلى الجامعة، كان في استقبالي المدير، ونفس الأساتذة الذين كانوا في حفل العشاء البارحة، بدأ برنامج العمل، قدمت للجميع مقترحاتي في ورقة عمل كانت باللغة الإنجليزية، شرحتها شرحا وافيا، لمدة ساعة كاملة، بعد ذلك بدأ الحوار.

انتهى اليوم الأول بنجاح، غادر الجميع مكتب مدير الجامعة، أخذني المسجل إلى المكتب الذي خصص لي أثناء فترة وجودي، جلست في مكتبي، ظل معي دكتور قاسم نستطلع سويا آراء الأساتذة الذين حضروا الاجتماع، أوضحت لقاسم بأنني سأوصي دكتور فيروز بوضعه أول رئيس لشعبة الرياضيات، فكان رد دكتور قاسم سريعًا ومزيجًا من الجد والهزل:

- يا دكتور خالد، أنت لا تعرف هذا الجزء من العالم العربي، مع شكري وتقديري لمقترحك، فأنا أعرف دكتور فيروز رجل في منتهى الطيبة، لكن عقدته الزواج بامرأة لها صفة الحور، كما ذكر ابن القيم في كتابه بستان الواعظين، الحورية من شدة بياضها يرى مخ ساقها من وراء لحمها.

- لا أفهم ما تقول، ما مشكلته؟!

- يا حبيبي، في جميع الدول العربية عقدة اللون، القبلية أكبر من عقدة الجهل.

- ماذا تقصد؟

- قبل رجوع الدكتور فيروز من أمريكا، حاول أن يتزوج بأمريكية، له ابن منها لكن السلطات رفضت طلبه، بعد رجوعه حاول الزواج محليا ،لم ينجح، السبب يقال إن أمه أفريقية، بمعنى أنها خادمة وبمعنى ديني خالص، هي مما ملكت أيمانهم، برغم أن والده من أعيان البلد، علمه أحسن تعليم، هو أنجح ابن له من أبنائه العشرين الذين رفضوا التعليم، وعملوا بالتجارة كوالدهم.

- لو عرفت مصيبة غيرك لهانت عليك مصيبتك، ما علينا يا دكتور قاسم.

- لعلمك دكتور رزق المصري، سيكون في منصب عميد شعبة الرياضيات، السبب أن أخته ستكون قريبا زوجة الدكتور فيروز، مصرية بيضاء اللون من المنصورة.

- لا أصدق .... أهكذا الأمور حتى على المستوى الأكاديمي؟! دكتور رزق أقل منك بكثير في مستواه الأكاديمي، حسب علمي أنه نال الدكتوراه من جامعة المنصـــورة غير المعترف بها دوليًا في عالم الرياضـيات، حسـبنا الله، على أي حال في نهاية مهمتي سأقدم تقريري الرسمي لدكتور فيروز.

- أنا زاهد في أي منصب؛ لأن كرستين حامل، تريد أن تضع عند أهلها في مالمو، منصبي في جامعة مالمو لايزال شاغرًا.

- لنفكر بعد إنهاء مهمتي، الآن أرجوك المســاعدة في كيفية اسـتعمال التليفون هنا، لي موضـوع مهم لصـديق في بيروت، لا أعرف اسـتعمال التليفون من عندكم، خذ الكارت وسـاعدني من فضلك.

عندما اطلع دكتور قاسم على الكارت استغرب ،سألني:

- بكري الجعلي؟!! هل هو لايزال في بيروت؟! يا أخي إنه زميلي من الكتاب، حتى مدرسة وادي سيدنا.

- انه صـديق جديد، تعرفت عليه قبل عشـرة أيام، حقيقة لم أعرف أنه من وادي سـيدنا الثانوية، أنا أيضـا من وادي سـيدنا، دفعة الشاعر با زرعه والكاتب الطيب صالح، عالم صغير.

- لا، نحن بعدكم، هل زوجته السورية لا تزال معه؟

- والله لا أعرف أي شــيء عن ذلك، لكن قابلته في حفل عيد ميلاد، كـانـت معـه ابنتـه، من ملامحهـا ترى المزيج العربي السـوداني، لا أعرف غير أنه نال الماجسـتير في القانون الدولي بجامعة دمشق.

- تفضل التليفون يرن.

كانت على التليفون سـكرتيرة بكري الجعلي، اعتذرت بأن بكري لا يوجد حاليا بالمكتب، تركت عندها رسـالة، بأنني سـأتصـل في المسـاء، دكتور قاسم بمرحه الذي عهدته فيه، وروحه الصـديقة، يبدو أنه لا يكتم سرا؛ فلذلك حرصت أن أستمع إليه أكثر من التحدث، أثناء وجودنا معا في المكتب، دخلت دكتورة كرسـتين زوجته أصـرت أن أتغدى معهم في البيـت اليوم، لم أمـانع كثيرا بعـد أن حلف بكري بالطلاق وزوجته تضـحك، غادرنا الجامعة إلى بيت الدكتور قاسـم، قدمت كرسـتين بمسـاعدة خادمتها الهندية مأكولات شـبه سـودانية، مشـروب الكركدي، العرديب، القونقليس، وهي تشـرح لي فوائدها الكيماوية بحكم تخصـصـها وأنواع الفيتامينات الموجودة فيها، حكت لي كرستين:

- أردت الاستقرار في السودان، مع أهل قاسم بقرية الجريف، لكن قاسـم لم يوافق، بعد وجودي في السـويد، أريد الرجوع إلى السـودان، بقدر ما أحببت السـودانيين ، لكنني أتضـايق من نعت أقارب قاسـم لي، بأنني غلفاء أي غير مختونة، وأنني حلبية أو غجرية، هم يعتبرون الجعلي إذا تزوج امرأة غير مختونة لم يتزوج بعد، يحبونني كثيرا، لكن يريدون من قاسـم الزواج من واحدة من أهله في الجريف، وإذا رضخ قاسم لكلامهم، سأقتله،

ضحكنا.

كنت أسـتمع وأضـحك مع قاسـم، بعد ثرثرة مسـتمرة، عرفت من قاسم، أن بكري الجعلي تربطه صلة قرابة بمحاسن، كانوا دفعة واحدة في جامعة الخرطوم وأن زوج محاسـن طلقها لأسـباب مجهولة، لكن في تقديري أنه كان يغار عليها بصـورة مزعجة يشـك في تصـرفاتها خاصة عندما انتقل للعمل في بيروت.

كنت في أشد الاندهاش لكل هذا الكم من الأخبار الغريبة سألت:

- كيف عرفت كل هذا؟!

- قبل سـنتين، كنت في الخرطوم، تم لقاء دفعتنا من جامعة الخرطوم، قابلت بكري ومحاسن والكثير من الأصدقاء، ما رأيك لو اتصلنا ببكري الآن؟

- فكرة حلوة، لي موضوع هام معه، لا أعرف ماذا تم فيه.

للمرة الثانية، ردت السكرتيرة، بأن بكري غير موجود، هذه المرة تركت لها تليفوني في الفندق ورقم الجناح الذي أقيم فيه، شعرت أن الدكتورة كرستين تحتاج إلى راحة ،يجب على الذهاب، كان في انتظاري السائق الهندي، مع السيارة المخصصة لي على باب فيلة قاسم.

(١١)

وصلت متعبا، صرفت السائق، على أن يرجع في التاسعة، تحسبا لأي ارتباط متوقع مع الشيخ الشمهري، الذي أتمنى إلا يتم، بعد معرفتي الأولية لشخصية سكرتيرته شرين، غير المريحة، في طريقي إلى الجناح، سلمني مكتب استقبال الضيوف رسالتين، رسالة كتب عليها:

- اتصل بك الأستاذ بكري من بيروت، رسالة أخرى، كتب عليها دكتور، خالد الرجاء الاتصال برقم ٤٥٠.

اتصلت أولا ببكري في منزله:

- أهلاً أستاذ بكري.

- يا رجل أولا مبروك وثانيا مبروك.

- خير يا أستاذ بكري.

- باختصار أولا موضوع النيابة كسبناه ١٠٠%، ثانيا، موضوع السيارة المرسيدس ستكون بإذن الله في انتظارك بالمطار مع السائق.

- شكرًا يا أستاذ بكري.

- ستعرف لاحقا ما تم في القضية، الفضل يرجع للجواز الأمريكي يا دكتور، المستشار القانوني لعضو البرلمان توني فنار غير المحترم حضر إلى مكتبي للتسوية، لكن رفضت، خاصة أن سائق سيارة توني فنار أدلى بشهادة صادقة، قلبت الموضوع رأسا على عقب؛ لذلك حسمت القضية من أول جلسة.

- طيب يا أستاذ بكري، لا تنس مكافأة السائق.
- طبعا، لا تخف عليه.
- كيف أخبار بيروت؟
- تمام، عرفت من محاسن، موضوع مجدولين، أنها الآن تسكن في شقتك.
- نعم، مسكينة مجدولين الله يكون في عونها، أشكرك على هذه المعلومات، بإذن الله سيكون رجوعي في الموعد.
- خد بالك من نفسك ، مع السلامة.

تمعنت في المذكرة الثانية دكتور خالد الرجاء الاتصال برقم ٤٥٠ تعجبت؛ لأن هذا الرقم هو رقم الحجرة المقابلة لجناحي بالضبط، ترددت في البداية ،لكن اتصلت:

- أهلاً
- شرين معاك ... أهلا دكتور، في انتظارك منذ ساعتين، كيف كان يومك؟
- الحمد لله تمام، وكيف أخبارك.
- الشيخ الشمهري سافر في مهمة عاجلة، سيرجع مساء الغد، طلب منى إخبارك.
- خير، سأعرف غدا برنامجي، اتصل بك.
- هل لك ارتباط مساء اليوم؟
- لا أعرف حتى الآن، ربما.
- ما رأيك؟ أنا عندي لك برنامج، دقيقة ،سأكون عندك.

وضعت السماعة، أصابني ارتباك شل تفكيري تماما، قبل انتهاء الدقيقة استدعيت كل خبراتي الطويلة في التعامل مع اللحظة القادمة، كيف أتصدى، طرق على الباب، فتحت الباب، إذا بشرين أمامي بمعطف الحمام، أصبحت أمام أمر واقع، على التعامل بحرفية مع هذا النوع من النساء، لكن أنا على وشك ارتباط جاد مع ليليان، ارتباط اعتقل كل مشاعري واهتمامي ومستقبلي وفكري، ماذا أفعل؟!

- تفضلي مدام شرين.

- شكرا دكتور، متأسفة على إزعاجك، اعذرني وأنا بهذا اللبس، عفوا فأنا في طريقي إلى حوض السباحة الخاص بالسيدات، أحببت أن أتأكد أنك تسكن جواري.

- حسنا أقدم لك مشروبا مثلجا !!! الجو ساخن.

- شكرا، سأتناول شرابا في بار المسبح ... باي.

خرجت شرين وهي تشد الروب متعمدةً إظهار مؤخرتها التي بدت بتضاريس مثيرة أغلقت الباب، تنفست الصعداء رغم أني أعرف القادم أكبر، شرعت فورا في تخطيط سريع لمجابهة شرين المتوحشة، قررت الاتصال بحبيبتي ليليان، قبل بداية السناريو المجهول القادم، يرن التليفون ولا مجيب، اتصلت بمحاسن أيضا لا مجيب، اتصلت بشقتي، ردت على مجدولين، شكرتني على اهتمامي وأنها بخير ،تساعدها ليليان في الترجمة، أنها بدأت في كورس لغة إنجليزية وعربية مع ليليان، قالت تفضل يا دكتور، ليليان معاك:

- أهلاً دكتور خالد، منتهى الشوق، كيف أحوالك يا حبيبي؟

- الحمد لله، الأمور بخير، أول يوم كان رائعًا.

- حسب طلبك، أنا الآن أعيش في شقتك مع مجدولين.

- كم أنت رائعة يا ليليان، لك الشكر، اكتبي عندك هذا التليفون لأم محمد، اطلبي منها أي خدمة تلزمكما في الشقة.

- شـــكرا، فعلا نحتاجها؛ لان مجدولين منشـــغلة بكورس العربي والإنجليزي، لا أريد لها الانشـغال بأي شـــيء آخر، أنام معها في حجرة الضيوف، أحضـرت فرشـة مؤقتة لكنها مريحة، أحوال الدراسة والجامعة تمام.

- يا ليليان أرجوك استعمال غرفتي.

- لا بالله، اتركني كما أنا، وخاصـــة مجدولين تحتاج إلى رعاية.

- لا أصر، القرار قرارك.

- محاسن معانا، تهديك السلام.

- سلمى عليها اشكريها نيابة عني.

وضــعت ســماعة التليفون، دخلت الحمام ،اغتســلت ،لبســت المنامة، جلست إلى مكتبي؛ لترتيب بعض الأوراق المهمة لاجتماع الغد بالجامعة، اسمع طرقًا خافتًا على الباب، ترددت في فتحه، لكن فتحته، فإذا بي أمام فتاة من الحور العين، لم تكن شـــرين، أطبقت على الدهشة:

- أهلا.
- ممكن أدخل؟
- تفضلي، من أنت؟!!
- أنا جوليا، سمعت عنك من شرين، فقلت أتعرف عليك.
- مرحبا بك.

أجلســتها في الصــالون، قدمت لها مشــروبا باردا ،أنا في حالة اســتنفار ورهبة من الموقف، أضــع حســابا لكل شــيء كعادتي، لا أتهور، لا أضـــع نفســـي في مطبات، لي شـــعور أكيد أن في الأمر شـــيئًا، ماذا تكون جوليا؟! وماذا تكون شـــرين؟!! أخاف أن أكون تحت المجهر؛ لأمر ما، شـــيء غير عادي يدور في هذا الفندق، تفحصت أركان الجناح إذا كانت هنالك كمرات مراقبة

الحذر كان هدفي الأول رغم الإغواء الفاضح الذي هيمن عليَ بوجود هذه الحورية الكاملة الأوصاف التي هبطت داخل جناحي، أراها ماثلة أمامي كحلم من مصباح سحري، اضطربت لدرجة أن وقع كوب الماء البارد من يدي قبل أن أقدمه لجوليا، شغلت نفسي بتجفيف السجاد بعد أن قدمت لها كوبا آخر، كان شعوري مزيجا من الشك والاستغراب، استدعيت خبراتي القديمة لكنها لم تستجب لمثل هذا السناريو المعقد، مرت نصف ساعة كاملة، لم أتمكن خلالها من حل اللغز ،كان حديثي مع جوليا مزيجا من الإبهام وعدم الموضوعية، فجأة، حضرت شرين، جلست بجانب جوليا:

- ما المطلوب منى الآن؟
- أرسلت لك جوليا؛ لأنها لم تجرب رجلا أسود في حياتها.
- إذا هي طرقت على بابي قبل ساعة.
- نعم هي ... فتصرف.

الاستغراب والتعجب والإغراء والخوف والتردد اجتمعت كلها أمامي، فقدت المنطق فأنا في شرك لا فرار منه، في الأمر شيء، يجب عليَّ قطع الشك باليقين، شرين بملابس النوم، من فوقها المعطف، جوليا بفستان كأنها عروس على أبواب فارس أحلامها، فتحت جوليا البار، صبت كأسا من البلاك ليبل لنفسها، صبت كاسا من الانتكوري حسب طلب شرين، أطلقت لنفسي العنان لكنني لم أشرب غير كأس واحد، استمرت السهرة الحمراء طول الليل دون تخطيط أو دليل، بكامل وعيي حتى الساعة السادسة صباحًا، لا بد لي من جمع شتاتي، تحضير نفسي لاجتماع اليوم في الجامعة، طلبت من جوليا ارتداء ملابسها، أيقظت شرين من نومها، قدمت لكل واحدة منهن خمسة جنيهات إسترليني وفنجانا من القهوة، وقبلات مصطنعة على عتبة الباب، لا أقول خطيئة، ما دام الأمر بالتراضي بيني وبين شرين عمر جوليا فوق الثمانية عشرة سنة، حسب القوانين الأوروبية التي أعيش بها في عقليتي حتى هنا، يا للهول، لو لا السرية التي أحطت بها نفسي، كنت سأرجم، أمام الملأ حتى الموت، إذا كشف أمري هنا.

أجرمت في حق ليليان، أجرمت في حقها؛ لأني أحببتها، من المفروض أن أحترم حبي لها، ما قمت به في تلك الليلة هو خيانة عظمى بمصطلح الحب، تخيلتها في مكاني، قامت بعد تعرفي عليها بنفس فعلتي هذه!!! من المؤكد سيجن جنوني، فلماذا؟! لي شعور قوي أن ليليان شعرت في نفس هذه الليلة بما قمت به، أريد أن أعترف لها بما فعلته، لكن هل ليليان تريد أن تعرف؟!، أم تظل فعلتي في ملفات المسكوت عنه؟! أنا مبعثر، ضميري الذي نام عني حتى السادسة صباحا، أراه صاحيا الآن يحاسبني بأجندة مجدولة، لا أجد المنطق للإجابة عليها ،أنا في انتظار السائق، الذي سيأخذني للمقابلة الثانية مع أساتذة الجامعة.

تم لقائي للمرة الثانية مع الأساتذة بحرفية كاملة، ما قمت به في الفندق انتهى هناك، لم يتبعني؛ فلذلك كنت يقظًا لأبعد الحدود، رغم الإرهاق العضلي، عند رجوعي إلى مكتبي من قاعة الاجتماعات بادرني دكتور قاسم وهو رجل لماح:

- أراك مرهقا يا دكتور،
- فعلا مرهق، لكن اتركها مستورة.
- طبعا جماعة الفندق؟! هذا ما كنت أتوقعه، أتذكر عندما تعينت في الجامعة، سكنت في جناح الهيلتون ... ياما رأيت من الأهوال.
- لا ... مجرد إرهاق مؤقت، لازم أرجع الفندق حالا.
- ها هو السائق أمامك، إلى اللقاء مساء.
- حسنا ... مع السلامة.

توجهت إلى الفندق إلى السرير مباشرة، لم أفق إلا الساعة التاسعة على جرس تليفون من ليليان:

- أهلاً مساء الخير حبيبي
- مرحبًا ليليان كيف حالك؟
- صوتك تعبان هل أنت نائم؟

- لا ... أخذت غفوة خفيفة ... كيف أنت وكيف مجدولين؟

- كل شـــيء تمام ... مجدولين عملت لها الفحوص اللازمة، تكلمت مع مايكل جيبير مساء الأمس، ساعدتها في الترجمة، عرفت أن مدة حبسه خفضت لأسبوعين.

- أخبار جيدة، أنت هل تكيفت مع البيت؟

- أم محمد الشغالة، ساعدتنا في عمل الأكل والغسيل والنظافة، مجدولين جيده جدا في التعلم، تصـــدق أمس بالليل انزعجت فجأة صحيت من النوم مخلوعة وصحيت مجدولين، لم أنم حتى الصباح، شـعرت بشـيء غريب حدث لك ... إن شـاء الله أنت بخير صـوتك غريب ... بالله طمئني عليك يا حبيبي.

- مجرد إرهاق لا شـــيء ، المهم عندما أرجع ســأحكي لك كل تفاصيل الرحلة.

- بالسلامة خلي بالك من نفسك بالله.

- مع السلامة، خلي بالك من نفسك يا ليليان.

وضـعت السماعة، عقدة الذنب تحيط بي من كل الاتجاهات، لعنت اليوم الذي عرفني بالشيخ الشمهري وسكرتيرته الشريرة شرين، ها هي فعلتي الشـــنيعة، شـــعرت بها ليليان، يا لله ماذا أفعل؟ من خلال الحاسة السادسة، كشفتني ليليان، فلا يراودني الشك أنها شعرت بليلتي الحمراء الشـنيعة، شـخصـية ليليان منذ أن عرفتها أكدت لي أنها تملك هذه الحاسة.

لم أنم بعد محادثتي مع ليليان، ظللت في حالة اســـتنفار وشـــعور متذبذب، إصـرار من ضـميري أن أخبرها بكل ما فعلته في تلك الليلة الدنيئة، وإلا فإن لها المقدرة على معرفة ما حولي عاجلاً أم آجلاً، تكتشـــف أني كذاب، من الجانب الآخر، إذا عرفت ســـتكون نهاية علاقتي معها، فلابد لي من إيجاد معادلة لهذا الموضوع، للعلم أساليبه ومقدرته في إيجاد الحلول، فجأة تليفون من مكتب الاســـتقبال ... هنا من يريد التحدث معك يا دكتور خالد:

- أنا محمد خميس ســـائق الشـــيخ الشـــمهري، في الحقيقة أرسلني الشيخ ،هو ينتظرك في قصره.

- شكرا يا محمد، لا أستطيع اليوم لارتباطي.

- سأخبر الشيخ، متأسف على إزعاجك، مع السلامة.

وضعت السماعة، راودني شعور أن الشيخ لن يتركني لحالي، فعلا يرن التليفون، الشيخ الشمهري يكلمني بنفسه، يكرر إصراره ،يلح، بعد ضغط وإصرار، قبلت دعوته ،غيرت ملابسي، نزلت، نفس السائق محمد الذي رأيته في المطار ينتظر الشيخ الشمهري، قدم لي نفسه، مفتخرا أنه من السودان، طيلة الطريق، يحكى سيرته في خدمة الشيخ أكثر من ثلاثين سنة، قال:

- أبي كان أحد عبيد الشـــيخ الكبير، من الذين عملوا في اصـــطياد اللؤلؤ الخليجي في الأربعينيات، في داوات أو المراكب الشراعية التابعة لوالد الشيخ.

(١٢)

وصـــلنا إلى القصـــر المبني على صـــخرة تطل مباشـــرة على مياه البحر الزرقاء النقية، عند وصولنا كان في استقبالي عند الباب الشيخ نفسه ، نفر من أصدقائه الشباب، رحبوا بي جميعهم ،هم يرددون كلمة تفضل يا دكتور، والنعم شرفتنا يا دكتور.

في ممشى محاط بالورود والأشجار النادرة، سرنا حوالي دقيقتين، حتى وصلنا إلى المسبح الكبير المحاط بالأنوار الخافتة، التي تنعكس أشعتها على القاع المبني من المرمر الأبيض، المسبح يعج بخليط من الحسناوات بملابس البكيني، التي لا تستر إلا قليلا، الشيخ وأصدقاؤه على أطراف المسبح ،مع كل واحد كأس من المشروب، يطوف عليهم جرسونات هنود يرتدون زيا موحدا، البار الملحق بالمسبح، يكتظ بكل ما عرفت أو ســـمعت به من أنواع الكحوليات، تنســـاب من مكبرات الصـــوت الموزعة حوله، موســـيقى هادئة تمتع الآذان، رغم هرج الحسناوات ومزجهن وضحكهن مع الضيوف.

جلست بجانب مضيفي الشيخ الشمهري على أريكة وثيرة، وهو يجلس على أريكة بالجانب الأيمن، بيننا طاولة اكتظت بالمكسرات والمشروبات والكحوليات، وقف خلفنا باستمرار أحد الجرسونات خُصص لخدمتنا، لم أظهر اندهاشي بالرغم مما أراه من بزخ فاق أقاصيص ألف ليلة وليلة، ومدونات قصور شهريار، استعرض لي الشيخ تاريخ أعماله وتوكيلاته المحلية وشركاته في أمريكا ولندن واليابان وبيروت والقاهرة، كنت مستمعا جيدا كعادتي، أمامي كأس ويسكي بلو ليبل أرشف منه بهدوء حتى لا أغيب في هذا المشهد الخرافي الماجن، كنت أجتر بأسف ما قمت به ليلة البارحة ،صورة ليليان تستوقفني في كل لحظة؛ لتذكرني أنها في انتظاري.

فجأة أسمع صوتًا نسائيًا، ينبعث من اتجاه المسبح:

- مساء الخير يا دكتور خالد،

كانت شرين اللعينة، نصفها داخل المسبح، النصف الثاني أمامي، بصدرها المكبر بالهرمونات، ماذا تريد منى هذه الغاوية الشيطانة؟! ألم يكفِ يوم أمس، رددت عليها:

- أهلا مدام شرين.
- اختفيت يا دكتور؟! آخر مرة رأيتك فيها بمطعم أمواج،

بصوت عالٍ؛ لإسماع الشيخ، الذي ابتسم كأنه يؤكد كلامها:

- انشغلت كثيرا مع برامج الجامعة.
- أهلا بك.
- شكرا لك وللشيخ على كرم الضيافة.

خرجت شرين من المسبح ،بنفس البكيني اتجهت إلى بهو القصر، عدد من الشباب يحتضنون الفتيات ،هن يخرجن كالأسماك الذهبية، من المسبح، استمر الشيخ في طرح عروض أعمال بالنسبة لي، أعرب عن رغبته في تعييني مستشارا له في كل أعماله في الخارج.

لماذا أنا ؟! ماذا يريد مني هذا الشيخ الغامض ... أنا في فخ عجزت كل معلوماتي الرياضية وافتراضاتي وغيرها في فهمه، أعرف أنى قوي عند المحك، وقت الشدة، حاضر في وقت غياب المنطق، لكن مع شرين الشريرة، والشيخ الشمهري، ومحمد السائق، وجوليا الحورية عاجز أنا، تمثَّل أمامي تناقض كامل في هذه الشخصيات الغريبة، هل تناولت طعم مصيدتي!؟ أم أنني أعيش في وهم صنعته بنفسي، ربما عقدة الشعور بالذنب، التي سيطرت على تفكيري، بعد تلك الليلة الحمراء في الفندق.

نبهنا الجرسون الهندي بأن وقت العشاء قد حان، من بوابة محلاة بنقش الأربيسك، دخلت المجلس المغطى بالسجاد الفارسي الفاخر، الأرائك الجلدية ،المخملية تتجمع في أشكال هندسية تتيح جلسات خصوصية لكل مجموعة على حدة، السقف العالي محلى بالزخارف الفارسية والجدران مزينة باللوحات الزيتية، سألت الشيخ عن واحدة من اللوحات التي أثارت اهتمامي، لعلى أعرف عنها وعن الفنان الذي رسمها، لكنه بكل أسف قال:

- مدير القصر اللبناني هو من وضع هذه الصور، أما أنا فلا أفقه فيها أي شيء.

لم أعقب على كلامه تفاديا للحرج، عرجنا يمينا؛ لندخل السفرة التي عرضت عليها المأكولات العربية والأجنبية ،التي تساوي في مجملها عشرات أضعاف عدد الضيوف، حول الطاولة تناثرت مجموعة من الحسناوات مع بعض الشباب يختارون ما طاب لهم من الطعام، أما أنا والشيخ فانتحينا جانبا حيث أعدت لنا سفرة عربية حول صينية ضخمة ،معنا عدد من المقربين إلى الشيخ، وبعض الأجانب، علينا جميعا جلوس القرفصاء، بكامل بدلتي الصيفية جمعت أرجلي الطويلة، دفعت ذراعي الشمال؛ لتصل إلى داخل الصينية المكتنزة بالأرز البسمتي والمشويات من الفراخ وخروف مشوي بأكمله في نصف الصينية، شهيتي كانت مسدودة تماما، لكنى نجحت في المجاملة والتظاهر بالإقبال على الأكل، كضيف مهم

كان على عمل ما يقوم به الكل، كنت اســتمع فقط وأتكلم بقدر ما يكفي من إجابة أو تعليق، أسأل نفسي في تعجب بين الفينة والأخرى، هل يعلم الشــيخ بما فعلته شــرين في الفندق، هل أحضــرني هنا بعد وقوعي في الشباك؟!!، سأعلم في نهاية هذا اليوم الغريب.

بعد انتهاء العشاء، اختفى الضيوف مع الحسان بهدوء في الغرف الممتدة على طول الممشــى الذي يؤدي إلي واجهة البحر، فجأة رأيت شرين أمامي، فصلتني عن الشيخ الذي أنشغل بضيف أجنبي حضر متأخرا، كأنها تقودني لأرى منظر البحر، فإذا بها تفتح إحدى الغرف، وتقول تفضــل يا دكتور، دخلت مترددا فإذا بي وجهًا لوجه مع جوليا، تعوذت ،التفت إلى شــرين لكن لم تكن معنا أغلقت الباب، اختفت فلم أجد ما أقوله غير:

- أهلا، جوليا، أنت هنا أيضا؟!!
- نعم أنا هنا.

ارتمت بين ذراعيَّ ضـمتني إلى صـدرها بلهفة ،طوقتني بيديها الناعمتين ،أغمضــت عينيها، وجهت وجهها نحو وجهي في انتظار قبلة عميقة كالتي نالتها وأنا انتشــلها من الجكوزي في ليلة الفندق الحمراء، حاولت الابتعاد إلى نحو الباب، فأســرعت قبلي ،أحكمت غلقه، الحجرة لا تقل حجما عن الجناح الفندقي الذي أشــغله بالهيلتون، ســتائر حمراء تتدلى من الســقف المنقوش بالجص الأبيض، بار ملحق يطل على البحر، شــرفة ذات خصــوصــية لا ترى منها إلا الماء ... ماذا أفعل!؟! أصــرخ ... لا يجوز جلســت بجانبها في السرير ، ذراعي حولها:

- أهلا يا دكتور.
- بكل أسف يا جوليا لازم أرجع إلى الفندق.
- معقول؟! هل تشعر أنى قبيحة اليوم؟!
- عفوا أنت أجمل ما رأيت يا جوليا، لكن أرجو تأجيل الموضوع ليوم آخر لو تسمحي.

- لا أسمح حبيبي.

- يا جوليا ... لا أستطيع اليوم، ولا أزال في نفس الجناح في فندق الهيلتون.

أخفيت في صدرها حفنة من المال، اتجهت إلى الباب، خرجت دون دليل، في الممر الطويل الذي يقود إلى البهو، قابلت أحد الجرسونات الهنود، طلبت منه أن يدلني إلى مكان الشيخ، تبعته لعدة دقائق ،أشار لي اتجاه المسبح حيث يجلس الشيخ وحوله ضيوف أجانب يتكلمون اللغة الإنجليزية، نهض الشيخ من الكرسي قام بتقديمي لضيوفه بلغة إنجليزية مكسرة:

- أقدم لكم الدكتور خالد، دكتور في الرياضيات، أستاذ في جامعة بيروت، يسرني إخطاركم بأنني قد عرضت عليه منصب مستشار شركات الشمهري العالمية وأنا في انتظار رده.

فكان ردي مقتضبا:

- أهلا بكم جميعا، أتمنى بعد رجوعي إلى بيروت أن أخطر الشيخ بقراري الأخير، يؤسفني أن أودعكم الآن؛ لارتباطي ،نراكم قريبا.

هب الشيخ واقفا، انتحى بي جانبًا:

- يا دكتور ... إلى أين ؟نحن لم نبدأ الحفل!!!

- اسمح لي .... ورائي تحضير هام جدا جدا لاجتماع غد لابد لي أن أرجع إلى الفندق.

- تتركنا بهذه السرعة؟!! ... ألم يعجبك المكان؟ الراقصة الشيشانية توها واصله ومعها راقصة مصرية مشهورة.

- لا لا لا ... لا أستطيع لقد تأخر الوقت.

- مادام أنت مُصر ... نتقابل قبل سفرك يا دكتور خالد.

-

نادي الشـــيخ على أحد الخدم، أشـــار له بطلب الســـائق محمد بسرعة، واصل السير معي حتى بوابة القصر، كان يتكلم عن سائقه محمد خميس وذكائـه وإخلاصـــه، ودعنـي بحرارة، توجهت إلى الفندق مع السائق محمد، أثناء الطريق واصل محمد خميس يزودني بأسرار القصـر وأسـرار الشيخ، تعجبت، امتعضت عندما أخبرنـي محمد أن معظم الضيوف في القصر مثليون:

- هل تصـدق يا دكتور؟! سـائق هندي من ولاية كارلا، لونه أسـود مثلنا هربت معه أخت الشـيخ، وهي من أم أخري، هربت معه إلى بريطانيا، لكنهم صـادوها وصـادوا الهندي، قتلوها في الأردن، لا يعلم بذلك أي أحد غيري، أخو الشيخ الصغير مصاب بانفصـام شـخصـية، قبل شـهر قتل ثلاثة عمال من البنغال، قتلهم في حجرة بمزرعته لاتهامهم بالسـرقة، لفقت القضـية بواسـطة النيابة، سـافرت أنا شـخصـياً مع الجثامين، دفعت لكل أسـره مبلغ من المال انتهت القصة.

يا دكتور خالد أقص عليك كل هذه القصـص المؤلمة؛ لأنني أحس بقربي نحوك؛ لا أريدك أن تحتك بهؤلاء البشـر، أنا ضـحية عبودية والدي رحمة الله عليه، مات حبيسـا في قصـور هذه العائلة، أتمنى من الله، أن يجد لي مخرجا من هذه الحياة التعيســة، لكن لم يســتجب الله لطلبي، ولدت طفلا دون رعاية، لا أعرف القراءة والكتابة حتى الآن، كلمة عبد أسمعها يوميا بمضض ولا حول ولا قوة لي، ماديا يعطونـي ما أريده، خوفا من هروبي، حوشت بطريقتي مبلغًا يربو على الخمسة آلاف إسـترليني أخفيها في حفرة من أركان حديقة القصـر، لم أتزوج إلى الآن، أرسـلوني إلى السـودان؛ لأجد زوجة، هناك أقمت في فندق السـودان، عرفني مدير الفندق الأرمني على شـابة جميلة تعمل سـكرتيرة معه، عندما قدمني إلى عائلتها في منطقة بري، رفض أبوها، الذي يعمل أصـلا طباخاً بالفندق، بحجة أني غير متعلم وأيضـا عدم أصـول قبيلتي، ومن وقتها أصـبحت لا أبالي بعدم الزواج، أعيش على بقايا وفتات الضـيوف من القحاب السـكارى في ليالي القصـر، مثل قوادة اسمها شرين تسكن معكم في فندق الهيلتون.

الفطرة علمتني أشــياء كثيرة، أهمها تامين نفســي من أي خطر يهدد حياتي، أحفظ الأشــياء عن ظهر قلب حتى اللغة الإنجليزية، أجدتها بدون كتابة؛ لارتباطي بالخواجات الذين أســتقبلهم في المطار، إيماني بالله قوى ،لكن بقدر ما طلبت من الله أن يفكني من هذه الورطة، لا أراه فاعلا، أبي وأمي رحلا من هذا الوجود، هل ســيبعثون مع البشــر أم مع الحيوانات في يوم القيامة؟!! كان أبي وكانت أمي ملك يمين لوالد الشيخ، ملك اليمين لا يعامله المسلمون كبشر، كما رأيت وكما أعيش أنا اليوم.

في هذا المشــوار القصــير، أخذت درســا من المســكوت عليه من تاريخ العروبة والإسلام، هذا السائق البسيط، فتح لي جرحا أعمق من جرح جدتي رحمها الله، ما كنت أتوقع أن يكون في هذا الكون حدث أقبح وأسوأ مما مرت به جدتي من إهانة لإنسانيتها، فأنا جاهل تماما بالمقارنة، محمد الســائق الذي تعلم من الممارســة ومما شــاهد بعينه، أنا خريج جامعات ،رجل اختلط بعلية القوم طيلة حياته البرجوازية، لا أعرف المعلومات التي عرفتها من محمد خميس أثناء هذا المشوار القصير، لابد لي أن أعيد دراستي للحياة بعد القصص التي سمعتها من محمد، أيقنت أن الممارســة أقوى تعليم يتلقاه الإنســان في حياته، أوصــلني محمد إلى الفندق، كرر على الطلب:

- لا تتركني يا دكتور فأنا من لحمك ودمك.

بكى وهو يودعني، قبل أن يغادر كتبت له تليفوني في الفندق وتليفوني في بيروت لكنه:

- قلها لي شفويا يا دكتور أنا لا أقرأ.

أمليت عليه تليفوناتي في الفندق وفي بيروت، فردد بصوته الأرقام بدقة للتأكد، ودعني بالحضن مرة أخرى، غادر، نزلت من عيني دمعة وأنا أشــيع بطرفي الســيارة التي يقودها محمد، يا الله أي عالم نعيش فيه؟!! أهكذا يعيش الســود في أرض عاش فيها ســيد الخلق ،خاتم المرسلين، ونبع منها الدين الإسلامي؟!! حسبي الله! مسكين محمد، فهو بعيد جدا عن التحرر من عبوديته، في بلاد تجردت من الإنسانية

محمد خميس يعيش فيها منذ مولده، كانت الساعة منتصف الليل، عندما دخلت جناحي في الفندق، شعرت بالرغبة الشديدة في التحدث مع ليليان ،لكن الوقت تأخر جدا، قررت إرجاء المكالمة إلى صباح الغد، حاولت النوم ،لكن شريط الأحداث كان طويلا ومزعجا، السؤال الملح في ذاكرتي ... ماذا يريد هذا الشيخ منى؟ كان نومي متقطعا ومليئا بالكوابيس.

حلمت أنني أضاجع شرين في مسبح القصر، صحوت مفزوعا، فغيرت سريري، نمت على الأريكة في الصالون، حلمت بليليان تستجوبني عن جوليا، صحوت مخلوعا برؤية الشيخ يدخل علي في جناحي، أعوذ بالله، أعاقب نفسيا؛ لفعلتي الحقيرة مع شرين التي أشركتني مع محمد السائق والكثير من الضيوف، المثليين المدنسين الذين جمعتني بهم حفلة القصر، أمام ضميري، صحوت مبكرا، أبحث عن إجابات، عجزت أن أجدها في كل العلوم التي درستها في تاريخي الأكاديمي، لم تنفعني دكتوراة الرياضيات التي ألفت فيها كتابي الأول بعنوان:

«حساب مجاميع المتسلسلات بالرواسب والتمثيل المطابق للمضلعات في التحليل العقدي».

لم تنفعني حتى مجلات العلوم ولا كتاب رأس المال لكارل ماركس، ولا آيات القرآن الذي حفظته في خلوة جدي الفحل، شعرت في ذلك الصباح بالرغبة في الحديث مع أمي، وددت الرجوع لطفولتي الغنية بالرعاية والحب وراحة البال والحرص الأسري، هي معلمي الأول وأنا أخطو أول خطوة في حياتي أمامها، قلت لنفسي، هذا هروب من الواقع لرجل مثلي جاب العالم وجامعاته، لم أفكر طويلا، أدرت قرص التليفون، تكلمت مع أمي، وضعت السماعة ،شعرت أن نصف الحمولات والكوابيس والعقد النفسية اختفت من ذاكرتي بعد كلامي مع أمي، فعلا كدت أقول لها الكثير عن ليليان التي أصبحت إكسير حياتي الجديد، لكن قررت التريث قليلا حتى أجمع أطرافي التي تناثرت بين بيروت والهيلتون وقصر الشيخ ودموع محمد السائق والحقائق المرة في ليلة العهر التي احتقرت نفسي فيها قبل أن أحتقر أو ألوم فيها شرين وجوليا

عالجت نفســي بسماع صــوت أمي، يا له من ســر في كنه الأم يصعب علينا تفسيره علميا، بعد المحادثة مع أمي جلست في مكتبي، قمت بتحضـــير تقريري النهائي للجامعة، كما قررت الرجوع إلى بيروت هربا من جحيم ما رأيت وما سمعت في الهيلتون وقصر الشيخ ومما قاله لي محمد الســائق، هربا من أهوال خلقت معظمها بنفســي، خلقت الصدفة بعضا منها.

لم تغب دمعة محمد خميس عن ذاكرتي، بنفس الشـــهامة التي دفعتني إلى مساعدة مايكل جيبر ومجدولين، قررت أن أساعد محمد السائق وفكه من جنازير العبودية التي حطمته كإنسان كما حطمت والده ووالدته في ذلك القصر النجس، نفس الملابسات التي جرحت قلب جدتي رحمها الله في حوش جدي النابر، أجد نفســـي مربوطا بحبل واحد مع محمد السائق، أنا دكتور رياضيات، سلكت طريقي بعلمي وخبرتي واطلاعي، لكن محمد الســائق البسيط يعيش بجهل القرون الوســـطى، كان من الممكن أن أكون أنا في مكان محمد خميس بالعبودية وملك اليمين ومحمد في مكاني.

(١٣)

عندما شارفت الساعة على الثامنة صباحا شعرت بأنني على استعداد كامل للحديث مع ليليان، أدرت قرص التليفون:

- أهلاً ليليان

- حبيبي كنت أعلم في هذه اللحظة أنك تدير قرص التليفون؛ لتكلمني.

- كيف أنت وكيف مجدولين؟

- تمام .... مجدولين هذه معجزة، تصـــور أنها تحفظ كل الدروس العربية والإنجليزية وترددها بحذافيرها ... ذكاء غير عادي.

- خبر جميل ... والأجمل وصــولي عندكم في بيروت مســاء اليوم ... لا أســـتطيع إكمال الأســـبوع هنا ... دعيني أتأكد من الحجز.

-

- يا سلام خبر جميل ... على فكرة عرفت موضوع سيارتك الجديدة، لكن لم أشاهدها إلى الآن، اليوم ما شاء الله صوتك واضح ليس كيوم أمس.

- كيف الجامعة؟

- بالنسبة لي الدروس أكثر من سهلة، لكن التشريح مازلت أخاف منه، تدريجيا سأتعود عليه، لكنني طبيبة منزل أمام مجدولين، وكل يوم أسجل ضغطها وحالتها الصحية، يا خالد يجب علينا توصيل هذه الشابة بأمها؛ لأنها يوميا تبكي عندما تتذكر.

- نعم يا ليليان، الأم كل شيء في الحياة، هي المحبة بدون شروط لأطفالها، المهم الأسبوع القادم سندرس كيف نجمعها بأمها.

- سأخبر محاسن ،سنقابلك سويا.

- أرجو انتظار ردي بعد تأكيد الحجز.

- مع السلامة ... في انتظار تليفونك.

- مع السلامة حبيبتي ليليان، إلى اللقاء.

اتصلت بمكتب المسجل في الجامعة، طلبت منه تغيير حجزي لطائرة مساء اليوم وإخطاري بأسرع ما أمكن، بعد ذلك اتصلت بدكتور قاسم:

- أهلاً دكتور قاسم

- صباح الخير في انتظارك ،على فكرة السودانيون حضروا حفلاً كبيرًا في قاعة البليارد بعد غدٍ على شرفك ،فيه الفنان أحمد المصطفى.

- يا قاسم متأسف، لازم أسافر مساء اليوم.

- يا رجل أنت لم تنته من مهمتك، كيف تسافر؟!!

- حضرت تقريري النهائي سأقدمه لكم اليوم.

- أرجو ألا تكون من توصياتك عمادتي لشعبة الرياضيات، كما قلت لي أمس.

- لا خيار غيرك.

- لا لا أرجوك، أنا راجع السويد كما أخبرتك.

- لنتقابل قبل الاجتماع، في طريقي إلى لجامعة.

- حسنا ... في انتظارك.

جمعت التقرير النهائي وأوراقي في حقيبتي، نزلت، وأنا خارج من الباب المؤدي إلى مواقف السيارات، بصحبتي السائق الهندي، أمام الفندق أفاجأ بالسيارة الاوروزرويز التي لا تخفى على ، السيارة التي يقودها محمد، تجمعت الكوابيس من حولي مرة أخرى، شعرت بارتباك ،ربما تكون سيارة أخرى، هي نفس العربة بدون نمر ،لونها الأسود الداكن يؤكد أنها السيارة التي يقودها محمد، توقفت قليلا، تركت السائق الهندي يتقدمني لتحريك سيارة الجامعة لحين حضوري، تعجبت عندما شاهدت محمد يخرج من الفندق متجها إلى السيارة، توقف عندما رآني:

- دكتور خالد، صبحك الله بالخير، اتصلت بك قبل قليل؛ لأصبح عليك ،لم أجدك.

- أهلا محمد، أنا سعيد بمقابلتك، اطمئن، أنا أعمل المستحيل لمساعدتك.

- أنا متأكد، لم أقابل إنسانا، انفتح قلبي له مثلما انفتح لك.

- حسنا ... لي صديق اسمه دكتور قاسم أستاذ في الجامعة هنا، هذا تليفونه، اتصل به لكن لا تتصل من قصر الشيخ، أترك كل المعلومات عنده، أنا أيضا سأترك تعليماتي عنده، لتعرفها بالضبط، أنا سأسافر مساء اليوم، أرجوك ألا تخبر الشيخ أبدا.

- لماذا يا دكتور تاركنا بهذه السـرعة؟!! سـأفعل أي شـيء تأمرني به، الرجل اسمه دكتور قاسم، حفظت تليفونه تمامًا.

- يا محمد، أول شيء اترك فلوسك عنده، بدل دفنها في حفرة داخل حديقة القصـر، ممكن يجدها أحد العمال ،يأخذوها .... المهم أنا الضـامن ... ،عليك أن تعلم، لا أنا، ولا دكتور قاسـم، محتاجين لها، لكن أريدها ضـمانة لك في المسـتقبل، أنت بإذن الله سوف تكون خارج هذا البلد بأسرع فرصه،

- من فمك لله يا دكتورة، أنا سأتصل الليلة بدكتور قاسم، .... لا آخذ من وقتك، مع السلامة، حضرت ،معي خمس قحبات من ليلة أمس ،معهن القوادة الكبيرة التي أخبرتك عنها «شـرين» أحضرتهن قبل دقائق إلى الفندق، لازم أرجع إلى الشيخ يريدني قبل الإفطار.

ودعت محمد المسكين بالحضـن، أنا أتلفت يمنة ويسـرة خوفا أن تراني شرين وتقلب يومي رأسا على عقب كما فعلت سابقا، ركبت مع السائق الهندي ،قابلت دكتور قاسم الذي انتظرني في مكتبي، ذكرت له قصـة محمد السـائق باختصـار خطتي لمساعدته حتى عن الفلوس، ضحك الدكتور قاسم بأعلى صوته:

- دكتور خالد أرجوك ابتعد عن هؤلاء الناس ،لا تقل لي إنه سـوداني .... الرقيق هنا كلهم من زنجبار لكنهم يوهمونك بأنهم من السودان ... هؤلاء سذج ،لا أريد التدخل في هذا الموضوع.

- دكتور قاسـم أرجوك .... أرجوك اعتبر المسـاعدة لمحمد مساعدة لي شخصيا.

- كلام فارغ يا خالد ... يا رجل هؤلاء أناس لا يسـتحقون الرحمة، نصـفهم ميؤوس منه، يا دكتور لا تعمل من نفسـك المسيح ابن مريم؟

- لا ... لكن أقول لك: أنا شخصيا عشت نفس الظروف التي يعيشها محمد.

- لا أفهم ما تقول، يا دكتور.
- دعنا نذهب إلى الاجتماع ،سأشرح لك لاحقا ما أقصده.
- كما أوضحت لك، لا أريد ذكري في توصياتك الأخيرة.
- دعني يا دكتور قاسم، أراجع الموضوع مع دكتور فيروز.

قبل خروجنا من المكتب، دخل السائق الهندي وهو يحمل ورقه من مكتب الإدارة تؤكد تغيير حجزي لمساء اليوم، ويرن تليفون محول من مكتب دكتور قاسم، مكتبي، سلمت السماعة لقاسم، بعد تبادل جمل مقتضبه أشار إلى دكتور قاسم بأن المتحدث هو محمد السائق، أخذت السماعة من قاسم، أكدت لمحمد بأن قاسم سيساعده ،حسنا إنه اتصل بهذه السرعة، انتهت المحادثة، فقال قاسم:

- غيرت رأيي بعد سماعي لمحمد، سأعمل ما في وسعي لمساعدته.

اتفقنا على آليات الخطة، التي يمكننا بواسطتها أن نُسفِّر محمد إلى بيروت، من هناك يبدأ تحريره من عبوديته من قصر الشيخ.

في اجتماع الأساتذة، قدمت عذري للجميع بأنني سأسافر مساء اليوم؛ لظروف أجبرتني، وعلى استعداد لزيارة أخرى إذا لزمت الحاجة لحضوري؛ لذلك كان الاجتماع مطولاً، كان عليَّ الإجابة عن أسئلة كثيرة بخصوص التحضير الأولي لإنشاء شعبة الرياضيات، تقدمت بتقريري الأخير، به كل التوصيات اللازمة، انتهى الاجتماع بتصفيق الحاضرين، جلست بجانب الدكتور فيروز مدير الجامعة، اعتذرت له مرة أخرى، لم يكن الدكتور فيروز ملحا، إذ عرفت منه أنه سيسافر مساء اليوم أيضا إلى لندن؛ لإجراء فحوصات طبية لوالدته، ودعته، تمنيت لها الشفاء، طلبت منه أن يطمئنني على صحتها ،أعطيته كارتي الخاص للمرة الثانية، ودعت الجميع، لكن الدكاترة السودانيين العاملين في الجامعة، تجمعوا حولي يطالبونني بإعادة النظر في سفر اليوم

خاصة أنهم أعدوا القاعة وأخبروا الفنان أحمد المصطفى وكل السودانيين الموجودين في بيروت، لكن حاولت إقناعهم وأنا متأكد لأسباب أعرفها وكتمتها في سري.

تعقدت من وجودي هنا، تظهر أمامي أشباح لا تفارقني، شرين، جوليا، الشيخ الشمهري، زيارة القصر، كوابيس نكدت حياتي، لابد من سفري، بعد إصراري، في النهاية وافقوا بتغيير العشاء لغداء، انتهت المشكلة، فبدل رجوعي إلى الفندق توجهت معهم إلى صالة البليارد، بدأت الاتصالات /توافد السودانيون والسودانيات على الصالة، لكن أحمد المصطفى وفرقته اعتذروا عن الحضور؛ لانشغالهم بتلبية غداء مع أحد المواطنين الأثرياء ولاعب كرة شهير، من أصول سودانية، انتهى اللقاء مع العدد المحدود من السودانيين الذين قبلوا تغيير الموعد، ودعت الدكتور قاسم وزوجته الدكتورة كرستين /توجهت إلى الفندق، /اتصلت فورا بليليان:

- أهلا ليليان
- أنا مجدولين ... أهلا دكتور خالد.
- كيف حالك وصحتك.
- أنا بخير، الفضل يرجع لليليان، علمتني الإنجليزي والعربي، تفحص صحتي كل يوم ،الحمد لله، أتمنى يا دكتور لو أقدر أقابل أمي؛ لأعرف الحاصل عليها، متى رجوعك؟
- مساء اليوم إن شاء الله.
- والله فرحة كبيرة لليليان ولنا جميعا.
- أين ليليان؟
- في الجامعة.
- أخبريها أن طائرتي ستصل بيروت الساعة الحادية عشرة مساءً، قولي لها تتصل بي، مع السلامة.

وضعت السماعة، من فرط تعبي النفسي والجسدي، حاولت النوم مدة ساعة، قبل حضور السائق الهندي؛ ليرافقني إلى المطار، يرن جرس التليفون ،تعوذت قبل أن أرفع السماعة:

- أهلاً

- ليليان معك ... يا له من خبر سار .... سألقاك في المطار، الأستاذ بكري نظم كل شيء.

- يا ليليان الوقت متأخر عليك.

- لا تخف على، معي محاسن، أما الباقي ليكن مفاجأة.

- نراكم ... بالسلامة

بدأت في جمع ملابسي، ترتيب أوراقي في حقيبة اليد، السائق سيكون معي بعد ساعة ونصف، فوجئت بفقدان جوازي الأمريكي، ومائة جنيه إسترليني شيكات سياحية من توماس كوك، لم أشك لحظة في أن الفاعل شرين، لكن ماذا أفعل وأنا أتكتم على علاقتي بها منذ تلك الليلة المشؤومة؟!! لي إيمان قاطع أن أي جرم يرتكبه الإنسان يتم عقابه في الدنيا، أنا ارتكبت ذنبا لا يغتفر في حبي لليليان، لو علمت به لصفعتني وأشاحت بوجهها عني إلى الأبد، الشيكات السياحية يمكنني التبليغ عنها وينتهي الأمر، أما الجواز الأمريكي فتلك مصيبتي التي بنى عليها بكري كل قضية توني فنار، ضمن به تعويضًا ماليًا كبيرًا لي وله.

ماذا أفعل ولم يبق من الوقت إلا ساعة على ذهابي إلى المطار؟! أنا متيقن أن الفعلة تشبه شرين، أخطرت إدارة الفندق بما حدث، حضر المتحرون، قاموا بتفقد جناحي، أخذوا البصمات من كل مكان، بما في ذلك أواني الشرب، أهم بصمة ركزوا عليها، كانت لخمس أصابع حول زجاجة الويسكي بلاك ليبل النصف فارقة، وجدت في مكتبي بالجناح، قام التحري بأخذ البصمات من أبواب الحجرات التي تحيط بجناحي، بصمات خدم الفندق، سألوني عدة أسئلة عن ضيوفي أثناء إقامتي في الفندق، لم أستطع الكلام عن شرين أو جوليا.

اكتفيت بذكر دكتور قاسم، الذي رافقني في أول يوم، دخل معي الجناح، أردت إخبار دكتور قاسم ،لكن عدلت عن رأيي، تحليل البصمات كان سريعا، تركز الاتهام على الحجرة المقابلة لجناحي، حجرة شرين، يا للهول أنا في أمر ضيق، طلبوا مني عناوين الاتصال بي في بيروت، لكنهم اكتفوا ببيانات الحجز في الفندق التي تبين تليفون شقتي ببيروت ومكتبي في الجامعة الأمريكية، تم إبلاغ مكتب توماس كوك بأرقام الشيكات المسروقة، تم كل شيء بحرفية سكوتلاند يارد؛ لأن إدارة الشرطة كانت بيد البريطانيين، شكرني الميجر «جورج» ببرود إنجليزي، أشعرني بتعابير وجهه الأحمر المستهتر، بأن هنالك حلقة مفقودة في التحري، وجد خصلة شعر في ركن الحمام وفي الأريكة التي نامت عليها شرين في تلك الليلة، أخذها في كيس بلاستيكي؛ للتحليل، حضر السائق، حمل أمتعتي إلى السيارة، في الاستقبال، فوجئت بوجود دكتور قاسم الذي حضر، أصر على مرافقتي إلى المطار، لاحظ التوتر الذي بدا علي، سمع مدير الفندق اللبناني يعتذر لي، وهو يودعني.

تدخل دكتور قاسم بسؤال سريع:

- ماذا حدث يا دكتور خالد؟!
- مصيبة لكن بسيطة.

في طريقنا إلى المطار، اضطررت أن أقص عليه القصة كاملة، ربما أمسك خيطها عندما قابلني ثاني يوم، بعد اجتماعي مع الأساتذة ،قال لي:

- أراك متعبا يا دكتور!!

كان ردي:

- لنتركها مستوره.

لم تعد مستورة الآن

حيث قال لي:

- لم تفعل شـيئا غريبا، فأنا أثناء سـكني مدة ثلاثة أشـهر، في نفس الفندق، فعلت مالم يفعله إبليس، لكن حرصـت على أوراقي وفلوسي، شيء عادي يا سعادتك في هذا البلد، لكن نتركها مستورة كما قلت، سأواصل مع الشرطة وأبلغك النتيجة، الجواز الأمريكاني يكون بيع بآلاف الجنيهات، أحسن تعمل بدل فاقد.

- لقد أخذت نسخة من البلاغ؛ لأسلمها للسفارة الأمريكية، أما الفلوس في ستين داهية.

- الفلوس لو ما اسـتعملتها أمس هذه القحبة، تكون قد أوقفت، الكلام على الجواز، لمعلوماتك الجوازات تزور وتباع عندكم في بيروت.

حمدت الله، أني أفضيت لدكتور قاسم بكل ما حصل بالتفاصيل المملة، ساعد ذلك في رفع اليأس والضجر عني، شعرت بأنني سأقابل ليليان كما يجب فرحا ،مشتاقا ،محبا، ودعت دكتور قاسم قبل الدخول إلى بوابة المغادرين بالمطار، أتممت إجراءات الدخول ،في شباك مراجعة الجوازات أخبرت بمنعي من السفر، كانت صدمة مدوية لي، أرجعت لي أمتعتي، اتصلت بدكتور قاسم أخبرته بما حدث، اتصلت بليليان ،أخبرتها بأن سفري تأخر، ربما ليوم آخر، أشعرتني بأن في الأمر شيئًا، لكنها كانت كعادتها مهذبة في تعاملها، بالنسبة لي أصبح كل شيء مفضوحًا، ربما يدخلني السجن في بلد كهذا، استعددت لكل ما يمكن أن يحصل لي.

(١٤)

رجع دكتور قاسم إلى المطار، قرر استضافتي بمنزله لحين إنهاء هذه المصيبة، قبل أن نغادر المطار راجعنا مكتب الشرطة؛ لنعرف أسباب حظري من السفر، لم نعرف منهم شيئًا، لكن وجهونا إلى مركز الشـرطة داخل البلد؛ لمعرفة أسباب المنع، توجهنا إلى هناك، كان وقتها الضابط المناوب في المركز، فاروق الحبر من السودان، استقبلنا بكل أدب، طلب لنا شايًا وماء باردًا

قال إن شـــاء الله خير، شـــرحت له حالتي، فتح محضـــرًا، بدأ يسألني:

- هل لك جواز سفر آخر يا دكتور، فقدته ولم تبلغ عنه؟
- نعم، بلغت عنه قبل خمس ساعات.
- لا نعرف عن بلاغ هنا باسمك.

فتح خزانة كانت خلفه، أخرج ملفًا كان بداخله جواز:

هل هذا هو الجواز؟

- نعم، صورتي واسمى عليه.
- وجد هذا الجواز في منزل مشبوه كانت فيه شابة لبنانية ليلة أمس، اسمها، جوليا، فما علاقتك بها؟
- جمعت كل شجاعتي، أوضحت للضابط ما دار بيني وبين جوليا، حتى سهرة القصر.
- هل فقدت شيكات سياحية؟
- نعم، مائة إسترليني.
- كل أقوالك حقيقية، المتهمة اعترفت بكل ما قلته بالضـــبط، عليك الحذر يا دكتور هنا، الشـــابة أطلقنا ســراحها بأمر أحد كبار الشـــيوخ صـــباح اليوم، أما عن جوازك فلابد من مثولك أمام المحكمة لاستلامه غدا.

تكاد الأرض تخسف بي، وضع لا فكاك منه، ماذا أفعل؟!

ما قاله الضـــابط الســوداني فاروق الحبر لا لغط ولا محاباة فيه، يؤدي عمله بحرفية والتزام، لم ينحز لي لأني من الســـودان، أحيي موقفه الشجاع الواضح، أنا الآن أتجرع السم الذي صنعته لنفسي، فهنا لا تنفعني دكتوراه ولا منصب، بجانبي دكتور قاسم متسمر في الكرسي، كلانا فقد المنطق تماما.

هنا تدخل دكتور قاسم بطريقته اللماحة ،قال للضابط السوداني:

- سعادة الضابط، بلاش فضائح، الدكتور موقفه حساس، نحن أساتذة جامعات، هذا الموضوع سيخرب بيوتنا، أنت تعرف إذا ذهبنا إلى المحكمة!!!، هل من طريقة أخرى تمكننا من الخروج من هذه الورطة؟!!

- يا دكتور، أنا أعمل حسب التعليمات، بكل أسف الجواز جديد ،لا توجد فيه أي تأشيرات، فهو يعتبر مزورًا، يجب أن يرسل إلى السفارة الأمريكية للتحقق، هذه كلها أشياء خارج إرادتي.

خرجنا من عند الضابط، جلسنا للتشاور في الموضوع، يا للهول أنا فعلا أستحق ما حدث، فجأة سألني قاسم:

- هل معك تليفون الشيخ؟

- نعم، دعني أبحث عنه بين أوراقي، ها هو،

رجعنا مرة أخرى إلى الضابط السوداني، طلبنا منه أن يساعدنا في الاتصال بالشيخ الشمهري، بعد عدة محاولات، سلمني الضابط السماعة، كان المجيب الشيخ شخصيا، شرحت له موضوع الجواز، طلب التحدث مع الضابط، بعد تبادل جمل قصيرة أخبرني الضابط:

- أن مندوب الشيخ سيحضر وسنسلمه الجواز حسب تعليماته.

يبدو أن الأزمة في طريقها للانفراج، لكنها تجر أزمه أخري، تهربت منها، وهي الشيخ الشمهري نفسه، ماذا يريد مني هذا الرجل؟! ها أنا في يده لقمة سائغة، انتظرنا في مكتب الضابط السوداني، الذي أشعرنا بفرحه؛ لتدخل الشيخ، بدون ذلك كما قال:

- الحمد لله يا دكتور على تدخل الشيخ، دون ذلك، الأمر في منتهى التعقيد.

كانت المفاجأة، دخول السائق محمد خميس إلي مكتب الضابط، لم يكن يعرف بوجودي ولا وجود دكتور قاسم في المخفر، سلم على بالحضن وعلى دكتور قاسم وعلي الضابط بالحضن:

- جوازك أنت يا دكتور خالد؟! والله أنا افتكرتك سافرت؟
- نعم.
- الحمد لله الموضوع منته.

قام محمد خميس بتسليم الضابط السوداني فاروق الحبر ورقة مختومة من الشيخ الشمهري، بموجبها أستلم جوازي، في نفس اللحظة، أصدر الضابط السوداني المناوب، فاروق الحبر التعليمات تليفونيًا لأمن المطار، تم إلغاء مذكرة منع السفر بالنسبة لي، خرجنا ثلاثتنا من مكتب الضابط الذي ودعنا بأدب واحترام، كانت العربة الأروزورويز بنتلي السوداء بدون أرقام تقف أمام المخفر، طلبت من محمد أن يجلس معنا في عربة دكتور قاسم الفولفو المتواضعة، قمت بتقديم محمد خميس للدكتور قاسم، لأول مرة يتقابلان وجها لوجه، شكر دكتور قاسم محمد خميس على مجهوده في هذه الساعة المتأخرة من الليل:

- رُب ضارة نافعة، الحمد لله أنني قابلتك يا محمد.

لقد كان اللقاء الثلاثي بوجود دكتور قاسم فرصة لشرح مخططي لتحرير محمد، وكيفية تهريبه من هذا، كان محمد مستمعا جيداً، عرف ما يجب عليه من أدوار في خطتي، وما على دكتور قاسم من أدوار في إنجاح الخطة، في موضوع فلوسه المدفونة في حديقة القصر، قلت له: لك الخيار في تسليمها لدكتور قاسم أو دونه، أجاب محمد:

- سأسلمها غدا الصبح بعد توصيل واحدة من القحاب إلى المطار، أمر الشيخ بطردها بعد القبض عليها في بيت مشبوه مساء أمس.

من كلامه، عرفت أن القحبة المطرودة التي يقصدها محمد هي جوليا، بعد شرح دام نصف ساعة، لا يزال جوازي في يد محمد السائق قال:

- هيا بنا، الشيخ في انتظارك يا دكتور.
- الوقت متأخر ،أنا لي ارتباط بدكتور قاسم.
- لا يا دكتور ... الشيخ ترى يزعل عليك.

تدخل قاسم ،قال لمحمد، ما دم الشيخ يذعل، ... نروح معك، اتركنا في عربيتنا ونحن نتبعك، لم يتردد محمد أبدأ؛ لثقته العمياء بي، بل سلمني الجواز في يدي، بدأنا المشوار:

- يا رجل دخلتنا في مشاكل لا يعلم بها إلا الله.
- متأسف ،بيني وبينك أنا أستحق، ما كان لي أن أعرض نفسي لمثل هذه المهازل.
- عجبي ... إذا أنت هنا قمت بهذه الفعلة، فما عساك فاعل في بيروت يا دكتور؟!
- في بيروت، تبت توبة نصوحًا بعد تعرفي على ليليان.
- من ليليان؟!!
- ليس مهمًا ... لكن أحببتها وأحبتني بصدق، كل ما حدث لي هنا هو انتقام لحبها وصدقها ... وما كان لي أن افعل ما فعلته.
- يا رجل ... هل نمت معها؟! أم هو مجرد حب نظري.
- مجرد تنظير إلى الآن، بأمانة لم أقابل مثلها في حياتي.
- ذكرتني قول الشاعر:
- يموت الهوى مني إذا لاقيتها ... ويحيا إذا فارقتها ويزيدُ،
- الشيء المحزن أنى قررت أن أكلمها بكل شيء عملته، بالتفاصيل، متأكد ستتركني إلى الأبد.

- تقصد اعتراف مسيحي ... يا دكتور اترك التنظير، يا أخي ابلع القصة واسكت، مادام تعرفت على بنت حلال.

- ضميري يا دكتور.

- أين كان ضـــميرك عندما جلســـت بين قحبتين من الوزن الثقيل؟

- ماذا أقول لك؟!!

أوقف محمد السيارة الضـخمة الفارهة أمام باب القصـر، أوقف قاســم ســيارته المتواضــعة بين جمع من ســيارات المرســيدس والفيراري وأســتن مارتن، نزلنا بحذر وتخوف، أخذنا محمد هذه المرة إلى فيلا جانبية داخل القصـــر بنيت على النمط الإنجليزي مطلة على البحر، انتظرنا نصــف ســاعة في الصــالون الزجاجي بإطلالته الخرافية على مياه البحر، لم يظهر الشـيخ، غاب عنا محمد فترة، ثم رجع؛ ليخبرنا أن مهمة مستعجلة اضطرت الشيخ للذهاب إلى قصـر أخيه الأصـغر، كان غياب الشـيخ خبرا مريحا لنا، أقنعت محمد بأن يخلي سبيلنا فقال:

- مادام الشيخ غير موجود، اتركوني أحضر لكم العشاء.

- لا يا محمد يجب علينا الذهاب؛ لأن دكتور قاســـم يســـكن بعيدا.

- لا مانع، انتظروني دقائق من فضلكم.

خرج محمد مدة عشـر دقائق، كنا على جمر، خوفا من ظهور الشيخ، رجع محمد يحمل كيسا كبيرا:

- حسب تعليماتك يا دكتور، فلوسي أسلمها لدكتور قاسم، ها هي الفلوس، لا نضيع الوقت.

- خطوة صـــحيحة منك، الباقي علينا ... فلوســـك في أمان بأكملها.

وصل محمد معنا إلى سيارة قاسم، فتح ظهرية السيارة ،وضع الكيس الكبير، أوضــح بأنه لا يعرف عدد الفلوس بالضــبط، معها مصــوغات ذهبية وخواتم من الماس، كلها كما قال كانت في شــكل عطايا وهدايا، أقســم أنه لم يســرق شــيئا في حياته، ودعنا محمد روحه المعنوية كانت في قمتها، بعد مشوار ساعة كاملة، دخلنا فيلة قاســم، كانت كرســتين في انتظارنا، بعد أن تناولنا أكلة خفيفة، اســتأذنت كرســتين ،ذهبت؛ لتنام، أحضــرنا الكيس، بدأنا في العد؛ لحصــــر الذهب والمجوهرات والنقدي، بالتقدير الأولى لا تقل عن عشرة آلاف جنيهًا إسترلينيًا.

دكتور قاسم رفض أن يظل المبلغ معه:

- لم أضــع يدي في حياتي على هذا الكم من المال، كرســتين لو رأت هذا لن تصدقني، ستعتبرني سارقًا سطوت على بنك.

الحل بأن آخذ كل الأموال معي إلى بيروت، لا توجد موانع لأخذها من هنا أو دخولها إلى بيروت.

اتصــل قاســم بخطوط الشــرق الأوســط، حاول الحجز لي في طائرة المســاء تفاديا للســفر مع جوليا في طائرة الصــباح ، لكن لم يجد لي مقعدا حتى في الدرجة الســياحية، فالخيار هو طائرة الصباح، فمقابلة جوليا في الطائرة لا مفر منها، في الصباح الباكر وصــلنا أنا وقاســم مبكرين ؛ لتفادي أي عقبات تقف في طريق سفري، وصــلنا المطار أحمل في حقيبتي الشــخصــية كيسًــا بداخله أموال محمد الخرافية، فورا قمت بــالاتصــــال بليليــان ،أخبرتهــا بوصولي الساعة الحادية عشرة والنصف صباحا، فرحت كثيرا، ســتكون في انتظاري بالمطار، عندما انتهيت من المكالمة رأيت محمد السائق على يمينه جوليا يساعدها في إجراءات السفر، أومأت له، دون أن تراني جوليا، انتحيت به جانبا، أخبرته أن أمواله معي علية أن يطمئن:

(١٥)

تنفست الصعداء عندما أقلعت الطائرة، بقامتي الفارعة دون كل ركاب الطائرة، كنت متأكدا أن جوليا رأتني ،تفادتني كما تفاديتها، نمت بعمق لم أذقه طيلة رحلتي، أيقظتني المضيفة، طلبت مني ربط الحزام، نزلت الطائرة، بدأ الركاب في حمل حقائبهم المصاحبة، وأنا أهم بأخذ حقيبتي، إذا بجوليا تقف أمامي ، يبدو عليها الإرهاق والحزن ،مع ذلك ظلت جميلة بشبابها الأخاذ:

- سلام دكتور... هل تصدق إذا قلت لك إن ما حدث كان مدبرا من شرين؟ أرجوك تقبل أسفي.

- أصدقك يا جوليا، الحمد لله أنها جاءت سليمة.

- بالنسبة لي ليست سليمة، ليس معي في حقيبتي حتى أجرة التاكسي، أخذت مني حتى الفلوس التي دفعتها لي، كل ما حدث خلاف بيني وبينها؛ لأنها وعدتني بعمل سكرتارية، لكن زجت بي في عالم أنت تعرفه، أشكر الله أني أنا الآن في بيروت، لا أبرئ نفسي أيضا مما قمت به، فكما أخطأت أنا في جسدي فأنا ضحية أخطائي.

- على أي حال خذي منى هذا المبلغ ،أنا متأسف لما حدث لك.

- مبلغ كبير يا دكتور، لك ألف شكر، أتمنى أن أقابلك في بيروت /هذا تليفوني.

- أكون صريح معك يا جوليا، أنا مقدر لشعورك نحوي، لكن أنا ملتزم وعلى أبواب زواج، إذا سمحت لي الظروف في مساعدتك بإيجاد عمل شريف، فلن أقصر ،سوف أتصل بك.

- تكفيني يا دكتور هذه الكلمات الجميلة الطيبة منك، تأكد أنني ضحية شرين ،لا حول ولا قوة لي، هي التي وضعت جوازك والشيكات السياحية في حقيبتي هي التي أوصلتني إلى الشقة المشبوهة وتركتني هناك، لعل الله أراد بك وأراد بي خيرا.

انهمرت دموع جوليا بتنهدات مكتومة متقطعة وهي تتكلم معي، انفطر قلبي لضياع شبابها وجمالها الأخاذ وجسمها البض، كلانا كان ضحية شرين، شعرت بإصرار على مساعدتها في يوم ما؛ لأن الصدق كان يبرق من عينيها التائهتين في عالم الظلم والخطيئة.

ساعدتها في انتشال حقيبتها من وسط الزحام:

- أنا متأسف يا جوليا مما فعلته معك، وصيتي لك، صوني نفسك من لهو الرجال.

شيعتها بعيوني وهي تخرج من الباب، رجعت ،جمعت أغراضي، ظلت حقيبة اليد التي أحمل فيها أموال محمد الطائلة بكتفي، حقيبتي المشحونة خلت من أي هدايا، لكن عرجت على السوقة الحرة، اشتريت هدايا للجميع.

عند باب الوصول كانت ليليان أول من احتضنني بفرحة الاستقبال، بدون تحفظ، ضممتها إلى صدري، قبلتها أمام الجميع على جبينها ،شعرت براحة كأني أولد من جديد، سلمت على محاسن، الأستاذ بكري الجعلي بنفسه كان من المستقبلين، ما المفاجآت التي ذكرتها ليليان في آخر محادثة بيننا؟!!! لا أتحمل أي مفاجآت أكثر مما قابلتني في رحلتي الأخيرة، قدم لي بكري مفتاح سيارتي الجديدة، قدم لي سائقا اسمه أبو إياد، لم أنس وجهه في يوم حادث سيارتي، فهو سائقا النائب البرلماني توني فنار ، ماذا يفعل هنا؟!

أوضح لي بكري أنه هو الذي سيقود سيارتي، لم أسترح لهذا الإجراء، لكن أعرف بكري لا يخطئ التصرف، سلمت على أبو إياد، ركبت مع ليليان في المقعد الخلفي المفصول تماما عن مقعد السائق، فخامة السيارة وزجاجها العازل لم يشغلني عن احتضان ليليان بذراعي اليمنى طيلة الرحلة، توقف تخوفي من ليليان وشكوكها حول أسباب تأخير سفري، قام أبو إياد بكل مهنية بوضع السيارة الضخمة في الجراج، حمل الحقائب إلى الشقة، قال لي إنه موجود أمام العمارة ينتظر أي تعليمات، فتحت باب الشقة، فاذا بمجدولين تثب فوق عنقى تعانقني من فرط فرحتها، كطفلة رأت أباها وهو عائد من السفر، ضممتها إلى صدري كأب حنون وهي تبتسم ،على عيونها دموع الشوق والفرح، خاطبتني باللغة الإنجليزية؛ لتستعرض مدى تقدمها في الدروس مع ليليان، دخل بكري ومحاسن، جلسنا في الصالون قدمت ليليان ومجدولين الشاي والقهوة وسندوتشات خفيفة، انشغل النواعم بأنفسهن بينما جلس بكري معي في البار:

- ألف سلامة يا دكتور، للأسف، السائق السوداني، ابن عم إسحاق الذي وعدناك به، لم يحصل عل رخصة سواقة بعد، أبو إياد عينته بعد أن أخرجته من الحبس، دفعت عنه الغرامات التي ألبسها له الخنزير توني، أيضا؛ لأسباب استراتيجية تتعلق بمعرفته بأدق تصرفات رجال توني، الشبيحة التي تحيط به؛ إضافة إلى مقدرته الفائقة على معرفة الطرق في بيروت، لكن إذا كنت لا تريده فعندي له أكثر من وظيفة.

- عزيزي بكري، ماذا أقول لك ... وفيت وكفيت، هنالك أمور كثيرة سأخبرك بها لكن فيما بعد.

- اعطني الجواز الأمريكي، أنا في طريقي لاستلام التسوية في قضية فنار، اتفقت معهم على ثلاثين ألف إسترليني بعد أن كانت مائة.

- يا أستاذ بكري ... دي تسوية هائلة لم أتوقعها.

- بعد الأتعاب ونصيب المكتب سأضع في حسابك المبلغ فورا عند استلامي الشيك اليوم.

- هل دفعت لأبو إياد أتعاب الإدلاء بشهادته؟

- نعم، بعد دفع الغرامات؛ لإخراجه من الحبس ومكافأته، قمت بدفع أتعابه، على فكره إذا أصر مستشار فنار على كتابة الشيك باسمك، فعليك تسليمي ألف إسترليني، بعد تمرير الشيك.

- ماذا عن السيارة؟

- هذا حساب وحده، إذا أردت الاستمرار في الأقساط فأنا دفعت لك المقدم، إذا أردت دفعها نقدًا فعليك بسعر السيارة بدون فوائد.

- أفضل أن أدفعها نقدًا بعد استلام الشيك، يا أخي ألف ألف شكر.

تركت بكري في البار، فتحت حقيبتي ،سلمته القلم «بلوبنكت» الهدية ،معه زجاجة ويسكي، وزعت الروائح الباريسية، حقائب للسيدات ،انهالت على القبل من كل الجهات، استأذن بكري، وضع جوازي الأمريكي في جيبه ودع الجميع، ظلت محاسن معنا، عرفت منها أنها في إجازة مرضية لمدة أسبوع، شعرت بتعب مفاجئ بعد الاطمئنان على وجودي في شقتي ومعي ليليان ومجدولين الملائكية ومحاسن الملكة، ليليان همست لي بأنها لا تريد الذهاب إلى الجامعة اليوم، دفعتني للتوجه إلى الحمام والاسترخاء ،نفض تعب السفر، كانت حجرتي المرتبة المعطرة كعريس في يوم دخلته مغرية بالنوم، غبت أربع ساعات بدون انقطاع في نوم عميق، استيقظت على رنين الأواني في المطبخ، وجدت أم محمد أعدت الأطباق التي أفضلها، بينما انشغلت ليليان في تدريس مجدولين، بعد السلام على أم محمد، سألت عن محاسن، علمت أنها رجعت شقتها برفقة أبو إياد في سيارتي الجديدة، كل الكوابيس التي سيطرت على رحلتي، انجلت، جلست إلى السفرة بين ليليان ومجدولين، شعرت بأنني رب أسرة، ليليان أصبحت جزءًا مكملا لروح البيت، بينما ظلت مجدولين البنت المطيعة، المثابرة، تشعل بروحها الجميلة كل أركان الشقة بالحياة والأمل.

راجعت بريدي المكتوب والصوتي، لم أجد غير رسالة من أبي، كانت أثناء وجوده في لندن الأسبوع الماضي، أهم شيء، عرفته من ليليان، أن أحد الضباط الأمريكان من المركز جاء أول أمس، كان يحمل مظروفًا به أوراق تخص مجدولين، لم يسلمها لها، أصر أن يتم ذلك بوجودي، ووجود مجدولين، انصرفت أم محمد، ذهبت مجدولين إلى سريرها بحجرة الضيوف؛ لمراجعة دروسها، انفردت وحدي بليليان في الصالون، حدثتها عن الرحلة وعن دكتور قاسم الجرافي وزوجته كرستين، حدثتها عن محمد السائق، مخطط انتشاله من جنازير الرق الذي يعيشه في القرن العشرين، عن أمواله التي أحضرتها معي، استمعت إلي كأني أقص عليها أساطير القرون الوسطي، لم تصدق أنني أحضرت أموال محمد إلا بعد أن رأتها بعينيها، طلبت منها أن تختار ما تحب من المجوهرات، أقوم أنا بدفع سعرها السوقي لصالح حساب محمد، رفضت رفضا باتا، قالت: إنها لا تحب ولا تحتاج لمثل هذه المجوهرات المبالغ في أحجامها، اقترحت على ليليان الانتقال مع مجدولين إلى حجرتي الواسعة، تكفيني حجرة الضيوف، لكنها فاجأتني بأنها سترجع اليوم إلى حجرتها مع محاسن، حاولت المستحيل، لكنها قالت لي:

- وجودي هنا غير قانوني ولا عرفي.

بعد نقاش مستفيض، قبلت بالاستمرار، على أن تظل مع مجدولين بحجرة الضيوف لحين إيجاد سكن لمجدولين في مكان آخر، سلمتني نفس الظرف الذي سلمته لها قبل سفري ،به نفس الفلوس، لم تتصرف في فلس واحد، ظلت ليليان جالسة بجانبي في الصالون وهي في لبس الجامعة، طلبت منها أن تريح جسمها من حزام البنطلون، ذهبت إلى حجرة الضيوف؛ لتغيير ملابسها.

في هذه الأثناء، تذكرت أنني لم اتصل بدكتور قاسم، قمت نحو طاولة التليفون ،اتصلت به، شكرته على المساعدات، وعلي الأفكار التي أمدني بها في أحلك ظروفي وأنا معه، أعدت معه خطة تهريب محمد ،كيف يمكننا مساعدته بطريقة مبتكرة، بعد ذلك اتصلت بأمي اطمأننت عليها، عرفت أن والدي لايزال في لندن، كان محور كلام أمي عن العروس من هي؟ ما لونها؟ شعرها؟ لم تسأل أبداً هل أنا أحببتها

أنهيت المكالمة مع أمي في اللحظة التي رجعت فيها ليليان بعد أن ارتدت جلبابًا، مغربيًا، مريحًا، فكت شعرها الطويل الأشقر منسابا خلفها، جزء منه أمامها تحاول أن تغطي به صدرها الذي إكتنز تحت الجلباب الفضفاض، جلست في نفس الأريكة بجانبي الأيمن، بدون مقدمات أو تخطيط مسبق سألت ليليان:

- ما رأيك يا ليليان نتزوج؟

سكتت ليليان، قامت من مكانها ،ذهبت إلى المطبخ، أعدت صينية بها إبريق شاي وأكواب، وضعتها على الطاولة أمامنا، وهي مبتسمه، ذهبت إلي حجرة الضيوف ،أحضرت منديلاً أبيض مشغولًا يدويا، كتبت عليه «حبيبي خالد» أعطتني إياه، أخذت المنديل ،قبلته بعمق وشوق وإعجاب، قبل أن تجلس ليليان وقفت بقامتي الطويلة ،ضممتها إلى صدري بقوة وانتشاء وهي تحيط خصري بذراعيها وشعرها الذهبي يتدلى منسابا بين قميصي ووجهها وصدرها المندس في حضني:

- أخيرا؟

ظللت أحتضنها بوضع أهاج غرائزي المتوحشة، بصورة استحييت منها، حاولت إخمادها ،لم تستجب، أبعدت نصفي الأسفل عن جسم ليليان اللدن، أفردت ذراعي الأيمن، حملت ساقيها في يميني، وعلى يدي اليسرة النصف الأعلى من جسمها، وجهي ووجهها متقابلان، جلست وأنا أحملها بكلتا يديَّ على الأريكة وهي تحاول التهرب كالعطر من قبضتي.

تمكنت بحنية مفرطة من وضع نصفها من بعد الخصر في حجري، وجهها يواجه وجهي تماما، بدون أي مقدمات، وعيونها مغمضة، قبلتها قبلة طويلة، حلقنا سويا في حلم وردي التفاصيل، كل الشقة في صمت وخشوع، نسينا ما حولنا نتحرك بحنية ونعومة، فجأةً ارتطمت قدم ليليان بصينية الشاي، طاحت على الأرض بصوت عالٍ كسر الصمت في الشقة، على سماع الصوت هرعت مجدولين من حجرة الضيوف، قبل وصولها قفزت ليليان من حجري كالغزال الشارد أمام صياد، شرعت في تصليح هندامها جمع محتويات الصينية من على الموكيت وهي تهمهم متأسفة ... متأسفة،

فانضمت إليها مجدولين ، ذهبت أنا إلى المطبخ، أحضرت بشكيرًا صببت عليه ماءًا ساخنًا ؛لتجفيف الموكيت، حاولت ليليان دون جدوى إخفاء وجهها المحمر من مجدولين، لكسـر جمود اللحظة، تكلمت مع مجدولين بالإنجليزية فردت علي بطلاقة، ضـحكنا كلنا، رجعت إلى حجرتها، ليليان وهي تضحك:

- حرام عليك ... حرام .... كنت غائبة تماما ... شـكرا للصـينية التي حررتني من عضـلاتك المنيعة التي هيمنت على جسدي الضعيف.

- لقد أخبرت أمي يا ليليان، عن فكرة زواجنا.

- هل نزغرد؟!!

- بالجد أنا كلمتها بدون تفاصيل ... أريدك أن تكلمي أهلك ... ما رأيك!؟!

- سأكلم خالي أولا.

- خير البر عاجله ... الهاتف أمامك.

- أتمنى أن يكون موجودا في البيت.

أدارت ليليان قرص التليفون، كانت المتحدثة فتحية زوجة خالها:

- أهلاً

- ليليان حبيبتي أين أنت!؟! اختفيت منذ زمن.

- سامحيني يا فتحية، والله انشغلت في الدراسة.

- كلميني كيف أخبارك وأخبار بيروت معك ... الحقيقة، أنا وخالك لنا رغبة في التصييف عندك.

- يا سـلام خبر جميل... هل خالي موجود ... أريده في موضوع.

نادت بصوت عالٍ: يا محمود تعال بنت أُختك معك ، استمرت ليليان:

- سلام خالي، مشتاقة لك، كيف أنت وأمي وأبي ويوسف؟
- كلهم بخير، لم أتركهم، أداوم على زيارتهم، أحضــــر معي يوسف أحيانا، يقضي يومًا، يومين مع فتحيه.
- موضوعي كبير، لا يقدر عليه أحد غيرك.
- خير.
- تقدم أحد لزواجي.
- أرجو ألا يكون لبنانيا.
- لا .... سوداني.
- إن شاء الله خير، أ تريديني، أن أخبر أباك وأمك؟!
- لا .... أريد مباركتك أولا.
- يعني لا تريدين رأيي؟!، قولي لي المواصفات.
- دكتور في الرياضيات، رئيس شعبة الرياضيات بجامعة بيروت الأمريكية.
- الله أكبر شيء كبير جدا.
- من أهلنا الحلبة السودانيين؟
- لا ... من الخرطوم، لكن لونه جنوبي.
- ماذا تقصدين؟!
- يعني شديد السواد.
- اللون لا يفرق معي أبدا ... حســـنا ... على الأقل هل أهله معروفون في أمدرمان أو الخرطوم؟
- والده وكيل وزارة الداخلية.

- الله أكبر ... الإنجليزي الأســـود، اللواء إبراهيم الناير؟ يا بنت يا يسارية، هؤلاء برجوازية رجعية.

- ما رأيك إذا قلت لك ... دكتور خالد يساري مثلك.

- متشوق؛ لأقابله أو أكلمه.

- حسنا يا خالي، سأكلمك قريبا من مكتبه في الجامعة.

- مبروك، ها هي فتحيه الرجعية تســـمعني، تزغرد وتقول بيت مال وعيال.

- مشـــكور يا خالي، عليك بإيجاد الطريقة المناســـبة مع أبي وأمي، أنا وخالد عندكم في العيد.

- مرحبًا به ،أنا معك.

- مع السلامة ... أكلمك يوم الجمعة ... أحضر يوسف معك، أشتاق إليه أشد الشوق، أريد أن أكلمه.

- حاضر يا بطه، ربنا يتمم بخير.

وضـــعت ليليان الســـماعة، ارتمت علىَّ تحتضـــنني ،دموع الفرحة تتلألأ في عينيها، مسحت على وجهها بنفس المنديل الذي أهدته إليَّ:

- تأكدي يا ليليان أن يوسف سيكون تحت رعايتي وأحبه كما تحبينـه، لنشـــرب نخب اللحظـة يـا ليليـان .... نـادي مجدولين بسرعة.

- يا خالد دعنا نتريث قليلا، أمامنا مشوار طويل.

- لا أفهم ما تقولين يا ليليان.

- أقصد مشورة أبيك وأبي يا دكتور.

- لا يهم سنواصل مشوارنا سويا... لا يوقفنا أي عائق.

انسلت ليليان من حضني، قادتني إلى البار، نادت مجدولين، تناول كل منا كوبًا من العصير، شرحت بكلمات مبسطة لمجدولين المناسبة، فما كان منها إلا أن أطلقت زغرودة، حضنت ليليان ،حضنتني، وهي تردد ألف مبروك ،ربنا يتمم بخير، فضمتها ليليان إلى حضنها، قالت لها، إن شاء الله، ربنا يتمم ويحقق كل أحلامك أنت أيضا.

(١٦)

يرن جرس التليفون، كان من المركز الأمريكي، طلب مني أحد ضباط القاعدة مقابلته غدا في شقتي، بخصوص الجندي مايكل جيبر، رحبت به، سأكون في انتظارك الساعة العاشرة صباحا، أعطيته عنوان الشقة، عرفت أن الموضوع يخص مجدولين، انصرفت ليليان؛ لمواصلة دروس مجدولين ،خرجت إلى جراج العمارة أتفقد سيارتي الجديدة الفارهة ، وجدت أبو إياد لايزال منتظرا ومنشغلا بتلميع السيارة، تفقدتها بدقة، أعجبني كل شيء فيها إلا الزجاج العازل، لكن أبو أياد شرح لي، من داخل السيارة ترى كل شيء بشكل عادى، لكن لا يراك أحد من خارج السيارة إلا إذا أنزلت الزجاج، اقتنعت بالفكرة، صرفت السائق، على أن يرجع غدا الساعة التاسعة صباحا ؛ لتوصيل ليليان إلى الجامعة.

رجعت إلى الشقة ،انهمكت في مراجعة أوراقي ،حساباتي ،جدول أعمالي في الجامعة الأسبوع القادم، على إتمام مراجعة رسالة الماجستير لكلوديا، التي بدأتها قبل ثلاثة أسابيع مع دكتور مزروفسكي، كان الوقت يقارب منتصف الليل عندما دخلت ليليان مكتبي وقد جهزت نفسها للنوم ، تلبس قميصًا غير شفاف، طوعت نصف قوامها اللدن بدون مجهود، جلست به على طرف المكتب؛ لتراجع معي برنامج صباح الغد، بعد معرفة البرنامج، همست بهدوء:

- تصبح على خير.

طبعت قبلة سريعة على خدي الأيسر فأدرت لها خدي الأيمن، أمسكت بيدها فلم تبخل على بقبلة أخرى، فعلت الشيء نفسه ، انصرفت، لم أجلس كثيرا بعد انصراف ليليان، ذهبت إلى حجرتي، نمت نوما عميقا خاليًا من الكوابيس.

في الصباح وجدت مجدولين تمارس رياضتها اليومية بينما أعدت ليليان القهوة والشاي مع خبيز عملته قبل يومين استعدادا لاستقبالي، شربنا الشاي سويا، حضر أبو إياد في موعده، أخذ ليليان إلى الجامعة جلست في انتظار الضابط الأمريكاني، في الساعة العاشرة والنصف بالضبط رن الجرس، فتحت الباب لأجد الضابط الأمريكي الذي هاتفني مساء الأمس، شاب مفتول العضلات:

- هل أنت الدكتور خالد؟
- نعم أنا الدكتور خالد ... تفضل.

قدمت له جوازي الأمريكي؛ لإثبات شخصيتي، جلسنا في صالوني المطل علي البحر، بعد شرح طويل لقصة صديقي مايكل جيبر الذي اختارني وكيلا عنه، طلب الضابط مشاركة مجدولين صديقة مايكل؛ لسماع ما يقوله، ناديت مجدولين ،كانت خائفة لكني طمأنتها، جلست تستمع وأنا أترجم لها بدقة، سلمها الضابط وثيقة سفر أمريكية، باسم مجدولين أحمد الظاهر حسب البطاقة التي كانت تدخل بها إلى القاعدة، بنفس الصورة الفوتوغرافية، سلمها أيضا تذاكر سفر إلى مدينة أتلانتا جورجيا وخمسين دولارًا نقدًا، وقعت مجدولين على استلامها ببصمة إصبعها وتوقيع خطي تعلمته من ليليان، سلمني خطابًا من صديقي مايكل، الذي أرسل إلى مهمه في الحدود السورية لمدة أسبوعين، اندهشت حقا كما اندهشت مجدولين المسكينة وهي جاهلة تماما بما يحدث، كانت بين الفرحة والحزن؛ لأن أمها المطلقة لم ترها منذ ستة أشهر عندما هربت إلى المركز الأمريكي؛ لتعيش مع مايكل جيبر.

بعد خروج الضابط انتحبت مجدولين من الفرح بتباشير الرجوع إلى عش مايكل، ومن الحزن على فراق أمها، مجدولين تعلم جيدا أن الرجوع إلى أهلها هو الذبح الشرعي بما يسمى رد الشرف، بدأت تصرخ، أريد أمي معي، ضممتها إلى صدري بحنان، استطعت إفهامها بأن موضوع أمها ليس بالصعب، لكن عليها السفر أولا؛ لخطورة موقفها، أقنعتها بحكم حصولها على الجنسية الأمريكية

فلها الحق بان تحضـــر أقرباء ها وعلى رأســـهم أمها، تقبلت مجدولين كلامي بالفرحة كالطفلة الصغيرة، قالت سأسمي مولودي خالد على اسمك يا دكتور إن كان ذكرا، وإذا كانت بنتًا سـأسـميها ليليان، حبيبتك وزوجتك، وبارك الله فيك وفي عروستك ليليان.

عبر تلك المقابلة، بدأ خلاص مجدولين من كوابيس الغَّلب والضجر والهروب، بدأ مجهودي يثمر تدريجيا، لقد كان ملفها من الأجندة السـاخنة التي شـغلتني، شـعرت بأنني قمت بدور شـهم نحوها ونحو صديقي مايكل جيير الزنجي الأمريكي البسيط، صاحب القلب الطيب، الذي تعلق بحبه لمجدولين، وفق في تخفيف الحكم عليه، واســتجابة الضباط لطلبه المتوج بالحب والإنسانية، مجدولين بدت مرتاحة البال، بداية من اليوم، في يدها أقوى هوية شـخصـية في العالم، وثيقة السـفر الأمريكية، ستسافر إلى أقوى بلد في العالم، بلد احتضن أسوأ عبودية مر بها الإنســان في تاريخه، بلد اســتوعب درس نضـــال الزنوج المنهجي، الزنوج الذين أخذوا حريتهم بأيديهم، فرضخ الرجل الأبيض لثورتهم، من ثم رفعت أمريكا شـــعار الحرية للجميع ،في جميع أنحاء العالم، كلنا الآن في انتظار عودة مايكل من مهمته العســكرية، بدأت ليليان مساعدة مجدولين في شراء مستلزمات سفرها؛ لأنها لا تجرؤ على الخروج من شـــقتي خوفا على نفســـها من معارفها وأهلها، كان على ليليان توعيتها وتحضـيرها بما لزم؛ لمقابلة عالم جديد سـتسـافر إليه ،وضـعت لها برنامجًا دراسـيًا مبسطًا تسير عليه يوميا، سـألتني مجدولين بعد مغادرة الضابط الأمريكي:

- هل يمكنني إعطاء هذا المبلغ لأمي؟

- لا، احتفظِ به ســتحتاجينه عند وصـــولك إلى أميركا، أنا سأدفع لأمك فيَ الوقت المناسب،

بكت المسكينة، أخذت تردد بارك الله فيك يا دكتور، بارك الله فيك.

أسهمت ليليان في تعليم مجدولين أبجديات اللغة العربية والإنجليزية، كانت مجدولين تتمتع بذكاء غير عادي في استيعاب الدروس، في أقل من شهر عرفت الكتابة بالإنجليزية والتحدث بما يكفي لدخولها إلي الولايات المتحدة، كما عرفت كتابة اسمها وما تيسر من اللغة العربية والإنجليزية، هونت ليليان عليها شهور حملها غير المخطط، فصلت لها فستان زفاف؛ لإتمام مراسم زواجها من مايكل بعد وصولها إلى أتلانتا، بمساعدة ليليان ومساعدة القابلة الفلبينية تمت التحاليل اللازمة لمجدولين في مراحل حملها، كانت مجدولين كالملاك الوديع بشعرها الذهبي المنسدل حول جيدها الطويل كأنها حورية طارت بأجنحتها الناعمة وهبطت دون قصد على أرض لا ترحم الإناث، عمرها إحدى وعشرون سنه، عاشت ماسي جنوب لبنان والضاحية، تعمل أمها خادمة منزل بعد طلاقها قبل مولد مجدولين.

(١٧)

في الساعة الواحدة ظهرا أرسل إلي بكري سائقه ،طلب مني الحضور فورا إلى مكتبه، أخذت معي حقيبة وضعت فيها أموال محمد السائق ،اتجهت إلى مكتبه، استلمت الشيك المكتوب باسمي من مستشار توني فنار شخصيا، الذي انتظرني بمكتب بكري حيث وقعت علي إيصال استلام كان معه، بعد مغادرة المستشار تشاورت مع بكري في موضوع السائق محمد، سردت له قصصي مع زميله دكتور قاسم الجرافي، كان بكري على عجلة من أمر الشيك، قررنا الذهاب إلي البنك الفرنسي الذي يوجد فيه حسابي، اتصلت بالمدير؛ ليتيح لنا مقابلته، في موضوع أموال محمد السائق، نصح بكري بفتح حساب ادخاري منفصل له ،وضع المجوهرات في صندوق خاص، استقبلنا المدير، تم إيداع الأموال، دفعت مستحقات بكري وثمن سيارتي الجديدة لحساب بكري بالتحويل المباشر.

في موضـوع مخططي لتخليص محمد خميس من عبوديته، نصـح بكري بتعديل الخطة، فبدلا من عمل جواز مزور ليخرج به، نصـح باحضـاره إلى بيروت، بنفس جواز بلده ،عند حضـوره هنا نقوم بعمل اللازم، لفت نظري أيضـا، أن القاعدة الأمريكية تقوم بتجنيد جميع الجنسيات، وتدريبها، وإرسالها، إلى ميادين القتال المنتشرة في العالم، أضاف، أن أموال محمد كفيلة بشراء حتى جواز دبلوماسي، فلا خوف عليه، بل يجب إيجاد طريقة محكمة، لوصوله إلى بيروت، رجعت مع بكري إلى مكتبه، اتصلنا بدكتور قاسم بعد تبادل السلامات وقصص وذكريات قديمة مطولة بينه وبين بكري، أخذت السماعة، بينت لقاسم تغيير خطة تهريب محمد السائق، حسب رأي بكري، وافق على أنها الأحسن، إذا نفذناها بصـورة محكمة، فاجأنا قاسـم بنيته في زيارتنا قريبا، مع زوجته الدكتورة كرستين، أضـاف أن موضـوع محمد سيكون محكما، إذا تمكن من الحضـور ومحمد السائق معه في نفس الطائرة، الفكرة جميله، قررنا الاتصـال بقاسم غدا لمعرفة ما يمكن عمله.

يبدو أنني أدخلت بكري بدون أذن منه، في مشـاريعي الطوعية التي يقترب أكثرها إلى الخيال ، كلمته عن مجدولين فتحمس لموضـوعها، قرر أن نقيم لها ولمايكل جيير حفل زفاف بفيلته الضخمة المطلة على البحر في حي جونيا ببيروت، أضاف أيضا أنه سيكون في نفس اليوم خطوبته من المستشارة محاسن، هذا ما أفرحني أكثر، باركت لبكري ، أخبرته بقراري في خطبة ليليان فقال: ثلاث مناسبات في يوم واحد، أضفنا فرحة رابعة بحضور د. قاسم وزوجته ومحمد إذا سـارت الأمور بخير، من مكتب بكري قبل رجوعي إلى البيت، اتصلت بالضابط الأمريكي الذي زارني في شقتي بخصوص مايكل ومجدولين، طلبت منه مقابلة مايكل بعد الرجوع من مهمته في سـوريا، وعدني خيرا وأنه سـيتصـل بي بعد ترتيب المقابلة بأسـرع فرصـة، تبادلت الفكرة مع بكري عن كيفية ترتيب مقابلة مجدولين مع أمها، اتفقنا أن ليليان بحكم شـبهها للبنانين هي خير من يقوم بمهمة الاتصال بأم مجدولين، بعد معرفة العنوان بالضبط.

اتصلت بشقتي، كانت ليليان قد رجعت من الجامعة، انشغلت بتدريس مجدولين، شرحت لها خطة إحضار أم مجدولين قبل سفرها، تحمست ليليان للموضوع، قررت القيام بالمهمة يوم الجمعة، لاحتمال وجود أم مجدولين في بيتها، في هذه الأثناء، اتصلت بصديقي جستن ابن السفير الهولندي، لم أجده، لكن ردت على صني، اتفقت معها على اللقاء مساء عندي في الشقة، كانت فرحة جدا، طلب بكري من سكرتيرته تحضير القهوة، ترك كرسي مكتبه، جلس بجانبي، شعرت بأنه يريد مني شيئا مهمًا، بدأت تتضح قصة خطوبته وعلاقته مع محاسن، بتحفظ، أنا أعرف مسبقا من دكتور قاسم تقريبا بعض الأشياء، لشعور بكري بالتقارب بيننا في أمور عدة، خاصة الفلوس التي استطاع نزعها بحرفية وحنكة من النائب البرلماني توني فنار، مساعدتي في شراء السيارة الجديدة الفخمة، بحساسية وتحفظ، سرد قصة طلاق محاسن من زوجها الأول:

- الطلاق كان بحكم المحكمة الشرعية السودانية التي اشتكى فيها والد محاسن عدم شرعية وتكافؤ زوجها السابق، يسمى مبارك كان وقتها نائب محافظ، عدم التكافؤ الاجتماعي بينه وبين محاسن إذ أثبت بالوثائق حقيقة والد مبارك ،يسمى مبروك، أنه كان من أرقاء عمدة المتمة.

- شخصيا كقانوني كنت ضد قرار المحكمة الشرعية القاسي، وأنا ابن عمها، لأن محاسن أحبت مبارك مبروك الذي عرفته أثناء دراستهما معا في جامعة الخرطوم؛ لذلك ضحت بأهلها ،ضربت بقرار المحكمة عرض الحائط، بالتالي جاءت معه إلى لبنان حيث عمل في السفارة التي تعمل بها محاسن الآن، بعد ولادة ابنتها نشبت بين محاسن ومبارك مشاكل ربما تكون عادية، لكنها في يوم الطلاق وصفته بالعبد في مشادة كلامية، فما كان منه إلا أن رمى عليها يمين الطلاق بالثلاث ، رجع إلى السودان، لم تفلح أية محاولات منها أو مني للعدول عن رأيه، تحول الحب إلى كراهية عارمة من جانب مبارك.

بعد سماع القصة، عاد إليَّ هاجس جدتي وهواجس الرقيق، شعرت بأني كسوداني، أعيش في عالم هش مفكك، المسكوت عنه أكثر بكثير مما نعلمه ونراه، علاقتي بالأستاذ بكري بدأت ترى التحفظ والتباعد بطريقة غير معلنة، بعد فترة، في مقابلة عرضية، سمعت من بكري القصة الثانية، طلاقه من زوجته السورية:

- المعادلة يا دكتور كانت متساوية، طلاقي من زوجتي السورية كان تقريبا لنفس الأسباب، العنصرية بين الأبيض والأسود عندما شعرت بالاضطهاد المستمر لي كأسمر وسط السوريين، كان خيار الطلاق مباركا من زوجتي التي أحبها وتحبني، لدرجة أنها من الضغط الاجتماعي، تركت لي ابنتها التي رأيتها معي في شقة محاسن؛ لأن بها سمرة خفيفة.

سألت نفسي، أين دكتورة كرستين، السويدية، زوجة دكتور الجرافي، العالمة، من زوجة بكري السورية؟! ... ما أكبر الفرق بين المجتمع العربي والمجتمع الأوروبي؟! كان من الصعب على التعليق، بعد سماع القصتين، اكتفيت بجملة واحدة:

- «نحن يا أستاذ بكري، ندين بتفسيرات قرآنية لم توضح لنا كيف نطيق بعضنا البعض» .

قبل الخوض في موضوع خطوبة بكري من محاسن في تلك الجلسة، وصل السائق، اضطررت للانصراف، قررت المرور على مكتبي في الجامعة قبل الذهاب إلى البيت، في مكتبي، قمت بمراجعة جداول التدريس، خطة إنهاء تصحيح رسالة الماجستير لكلوديا، اتصلت بالدكتور مزروفسكي؛ لإخطاره برجوعي، وجدته مكتئبا جدا اكتفي بقوله:

- سأوضح لك أسباب اكتئابي لاحقا.

رجعت إلى شـقتي بعد التسـوق، وجدت ليليان ومجدولين منهمكتين في الدروس، خادمة منزلي، أم محمد تعد مائدة العشـاء، يرن جرس الشـقة، يدخل جسـتن وصـني المتشـوقة للقاء ليليان ومجدولين، بدأنا في الأكل والشـرب والاسـتماع إلى الموسـيقى، جسـتن برزانته وأدبه الجم انتحى بي جانبا، تركنا البنات مع مجدولين، وهي تسـتعرض بينهن مقدرتها في اللغة الإنجليزية، أصـررت على جسـتن تسـليمي فواتير استشـفاء مجدولين، لم يحضرها معه، رفض رفضا باتا أخذ أي مبلغ، قمت بإعطائه هديته التي اشـتريتها له من السـوق الحرة، القميص الحريري، زجاجة الويسكي، قامت ليليان بتسليم زجاجة عطر للدكتورة صني.

(١٨)

قبل بدء جلسـتنا في الصـالون، يرن جرس التليفون من المركز الأمريكي، الضـابط الذي زارني يخبرني أنه قد نظم لي لقاءً في حضور مجدولين صباح الغد الساعة الثانية عشرة، بعد الظهر في المركز، أخبرت مجدولين، طفقت تبكي من شـدة الفرح، كانت الساعة بعد منتصف الليل، عندما انصرف جستن ودكتورة صني، ذهبت مجدولين إلى حجرة الضـيوف؛ لتنام، جلسـت مع ليليان في البار، بدأنا مراجعة أحداث اليوم، أولها كانت قصـة محاسـن التي سـمعتها من بكري، وجدت ليليان تعرفها بل ، أضـافت أن زواجها من بكري سيكون شكليا:

- لا أفهم قصدك.

- من الشـروط الدينية إذا طلقت المرأة المسلمة ثلاث مرات، الزواج من شـخص ثاني يسـمى المحلل؛ لتصـبح حلالًا لزوجها الأول، إذا رغب في إرجاعها.

- والله ما فاهم

- محاسـن طُلقت بالثلاثة من مبارك مبروك، لكن هي متعلقة به حتى الآن.

- حسنا ... هل هو يريد إرجاعها؟!
- حسب ما عرفته من محاسن بأنها تحبه وهو يحبها.
- خبريني ما موضوع زواج بكري؟!
- لإتمام شرط التحليل حسب نصوص الشريعة.
- لا أصدق.
- بكري يقوم بزواج صوري، يسجل الزواج في المحكمة الشرعية، إذا اقتنع مبارك بإرجاعها يطلقها بكري، لا تنس، بكري ابن عمها ،يريد مساعدتها.
- هذه مسرحية لا يوجد فيها أي نوع من الإنسانية.
- يا حبيبي هذه حدود الله ... هل عندك حل آخر؟!
- لا أصدق بكري ولا محاسن الحكيمة أن يقبلا بهذا النوع من الحلول.
- يا دكتور هي مجرد ورقة .... يعني لا يضاجعها.
- فهميني يا ليليان والله ما فاهم حتى الآن.
- يعني لا يمارس معها الجنس، بالرغم من النص الديني الذي يلزم مضاجعتها؛ ليتم التحليل الكامل.
- هل هذا مقنع يا ليليان؟! وتخيلي نفسك في نفس الموقف، تعملي أيه؟

ضحكت:

- أنا فعلا في نفس الموقف، ألم أخبرك أن زوجي طلقني بالثلاث، إذا فكرت في الرجوع اليه وهو موافق، سأختارك يا دكتور لتكون المحلل.
- يعني أكون تيسًا؟!، ألم تسمعي قول الرسول؟:
- (ألا أخبركم بالتيس المستعار)، قالوا: بلى يا رسول الله قال: (هو المحل فلعن الله المحل والمحلل له).

ضحكنا سويا ،وقفنا كل منا يواجه الآخر، ضممت ليليان إلى صدري ،قررنا الجلوس في البلكونة المطلة على البحر، أجلست ليليان على حجري، خدي ملتصق بخدها بحميمية دافئة، تناولنا موضوعنا الخاص ،الإسراع في طلب يدها من أهلها أثناء زيارة العيد، اتفقنا على كل التفاصيل وبقبلة عميقة انصرف كل منا إلى النوم، حضر السائق في موعده، بعد الإفطار والقهوة التي أعدتها مجدولين، ذهبت ليليان إلى الجامعة؛ لمقابلة اليوم، لبست مجدولين فستانا خاصًا بالحمل؛ لتذهب معي لمقابلة مايكل في المركز الأمريكي، كانت مجدولين بين الضجر والفرحة، أنا بين الحذر والترقب خوفا أن يراها أحد من أهلها وهي تخرج من شقتي تحسبا لأي طارئ، أخذت تاكسيًا، ذهبت إلى الجراج الذي تركت فيه سيارتي المرسيدس القديمة للتصليح، أخذت السيارة، رجعت إلى الشقة، أخذت مجدولين معي للمقابلة في المركز.

أخذنا الضابط إلى مكتبه حيث كان مايكل في انتظارنا، أحضان وقبلات مجدولين ومايكل، دموع الفرحة بعد فراق دام أكثر من شهرين، انسحبت مع الضابط، تركنا مجدولين مع حبيبها مايكل الذي اندهش من مقدرتها المتواضعة، في المخاطبة باللغة الإنجليزية، فلم يكن وجودي ضرورة للترجمة، أوضح لي الضابط أن مايكل بإذن خاص، سيرافق مجدولين إلى أتلانتا جورجيا؛ لمقابلة أسرته بعد عشرة أيام، ربما يقيم مراسم زواج لها في الكنيسة، إذا رأت عائلته ذلك، أو في مسجد إذا رأت مجدولين، لكن رسميا، هو متزوج منها، وهي مواطنة أمريكية، شكرت الضابط، ثم رجعت إلى المكتب الثاني، حيث يوجد مايكل ومجدولين، شفاه مجدولين وخدودها احمرت، من كم القبل المنهال عليها وهي تجلس في حضن مايكل، أخبرتها أنني أعمل جادا في جمعها بوالدتها، قبل سفرها إلى أميركا، عندما سمعت وعدي، قفزت من حضن مايكل، عانقتني وهي تردد: الله يخليك يا دكتور، مايكل:

- حقا يا دكتور خالد أنت مسيح هذا القرن.

ضـحكنا، تبادنا الأمنيات، كتب مايكل رسـالة موجهة إلى ليليان يشـكرها على مجهودها في تدريس مجدولين اللغة الإنجليزية، انتهت فترة الزيارة المسـموح بها لمايكل، ودع مجدولين وهو يحتضنها حتى موقف سيارتي، وعدته بالاتصال قريبا، رجعت آمنا إلى الشقة مع مجدولين.

(١٩)

خطرت ببالي فكرة، وأنا جالس بمكتبي في الشـقة، هي الاسـتفادة من جوليا لإحضـار والدة مجدولين، بدلا من وضـع ليليان في تجربة صـعبة كهذه، خاصـة أن لهجتها لا تمت للبنانيين بصـلة، أعلم جيدا حسـاسـية صـلتي بجوليا، ومدى خطورة تعرف ليليان عليها، قبل خروجي، اتصـل بي أسـتاذ بكري، كان يريدني لموضـوع مهم، لم أسـأله عن السـبب، توجهت فورا إلى مكتبه، كان معه في المكتب وسيط عقارات، يحمل كتالوجًا به عروض عديدة، بعد التعارف خرج بكري من حجرة مكتبه إلى الممر، طلب مني مرافقته إلى حجرة أخرى، بينما ظل الوسيط مشغولا بتحضير العروض، جلسـت معه فقال:

- دكتور خالد، بالمبالغ المهولة التي معك الآن، فإنني أرى استثمارها في العقار، له عوائد مضاعفة، اسمع لي جيداً.

- طبعا يا أستاذ، والشكر لك.

- عفوا ... حتى لا نضـيع الوقت، أنا اشـتريت فيلتي المطلة علي البحر في حي جونيا قبل سـنة، الآن تضـاعف سـعرها، اشـتريتها من فلسـطيني لبناني هاجر إلى كندا، الفيلا الملاصـقة لفلتي، شبيهة بها تماما، ملك لشقيق الشخص الذي اشتريت منه، الآن رأيتها بين معروضات الوسيط، يبدو لي أنه بيع اضطراري؛ لأن الأثاث ضـمن البيعة، فمن الواضـح أن صـاحبها قد هاجر أيضـا إلى كندا، يريد بيعها في يومين بأي سعر ، الدفع نقدًا، أنت تعرف من يملك النقود في هذه الأيام؟!، ما رأيك؟

- مبدئيا موافق لكن هل ممكن معاينتها؟
- حالا إذا عندك وقت الآن.
- نعم عندي.

أسرع بنا إسحاق سائق بكري، ومعنا الوسيط، لم أصدق ما رأيته، تتكون الفيلا من ثلاثة طوابق، سطح به حوض سباحة، حديقة واسعة، عشر حجرات نوم بحماماتها، ثلاثة مجالس ،ثلاثة مطابخ، ملحق في ركن الحديقة خاص بالسواقين والخدم، أجمل أثاث دنماركي في الطابق الأول، في الطابق الثاني أثاث سوري ،في الثالث أثاث دمياطي، الجدران محلاة باللوحات الزيتية العربية، لم أقل لبكري أكثر من موافق مية المية.

رجعنا إلى مكتب بكري ،معنا الوسيط، كتبت الشيكات المطلوبة، سلمتها لبكري ،تركت له إتمام الأمور القانونية.

استأذنت، اتجهت إلى شقتي، وجدت ليليان مشغولة مع مجدولين، أعطيتها الرسالة المرسلة من مايكل جيير، بعد كل هذه الإنجازات، لا تزال أحاسيسي بأم مجدولين تشغلني، أمها المسكينة، التي تبحث عن ابنتها، قلبها يتقطع؛ لفقدانها، كما تقطع قلب جدتي، وهي تطرد من حوش جدي الناير وتترك ابنها الوحيد مكرهة، إحساس لا يعرفه غيري ومجدولين المسكينة، أجد نفسي في سباق مع الزمن؛ لأحقق أمنية مجدولين في مقابلة أمها قبل سفرها بعد عدة أيام.

موضوع محمد خميس السائق، من أكبر التحديات الجديدة أمامي، خاصة أن أمواله معي تحت تصرفي؛ لذلك اتصلت بدكتور قاسم، أوضحت له الخطة، وهي استدراج شرين شخصيا، بمكافأة مالية، لإقناع الشيخ الشمهري؛ ليسمح له بالسفر؛ للزواج من سودانية تسكن بيروت، يرجع بعد انتهاء مراسم زواجه الوهمي تركت التفاصيل لقاسم، بإحضار محمد إلى مكتبه في الجامعة وشرح الخطة، وجد دكتور قاسم الخطة أحسن، من عمل جواز سفر مزور، وعدني بالنتيجة بأسرع فرصة.

تعودت إشراك ليليان في رؤوس المواضيع، تفاديت إدخالها في التفاصيل، كما تعودنا يوميا نقضي وقتا طويلا في البلكونة المطلة علي البحر، شعرت في هذه الليلة بأن ليليان تود أن تقول لي شيئًا مهمًا، لكنها تبحث عن الوقت المناسب؛ لذلك لم أضايقها، انصرف كل واحد منا إلى مخدعه، في الصباح أخذنا السائق أبو أياد إلي الجامعة، ذهبت ليليان إلى محاضراتها ،ذهبت إلى مكتبي، حيث انتظرني دكتور مزروفسكي، قمت معه بإجازة رسالة الماجستير لكلوديا، في احتفالية مبسطة اجتمع فيها لفيف من أصدقاء كلوديا في الكافتيريا، حضرتها مع دكتور مزروفسكي، تناولنا المرطبات تقبلنا التبريكات والشكر من أهلها.

رجعت المكتب؛ لمراجعة بعض الجداول ،بمساعدة كلوديا قمت بتصحيح امتحانات الفترة للصف النهائي لشعبة الرياضيات، لم يرجع مزروفسكي كعادته للجلوس معي في مكتبي، بعد انصراف كلوديا جاء يبدو عليه الإرهاق والحزن، سألته عن السبب فقال: إن أسرته اليهودية من بولندا لا تعترف باليهود الشرقيين أي أهل كلوديا، لذلك لا يوافقون على زواجه، بدون إقناعهم يستحيل أن يتزوج؛ مجمل القول، عنصرية من نوع آخر بالرغم من أن الديانة واحدة، تبادلت معه بعض الأفكار الدينية والسياسية ،وجدته متصلب الفكر والأفق، لا يقرر لنفسه إنما عائلته هي التي تملي شروطها عليه، قاطعنا جرس التليفون:

- أهلاً

- بكري يا دكتور، مبروك مفتاح الفيلا معي.

- يا رجل بهذه السرعة؟!!

- صاحب الفيلا كان يريد الثمن نقدًا، سافر اليوم الساعة الواحدة بعد إنهاء كل شيء معي شخصيا من التاسعة صباحا في الشهر العقاري، استعملت صور جوازك الأمريكي، سجلت الفيلا باسمك، وأنا بدوري أخذت عمولتي منه، ما رأيك نتقابل هناك، أنا راجع البيت الآن، أصبحنا جيرانًا.

- مسافة الطريق، إلى اللقاء.

نزلت إلى الموقف حيث ينتظرني السائق، توجهنا إلى كلية الطب، وجدنا ليليان في انتظارنا، توجهنا سويا إلى حي جونيا حسب العنوان الذي كان سهلا على أبو أياد، تركت الموضوع مفاجاة لليليان، رأينا سيارة بكري أمام منزله المجاور ترجل منها، تقابلنا سويا في مدخل فيلتي الجديدة، تبادلت ليليان السلام مع بكري، قال لها مبروك، دخلنا، قلت لليليان مبروك هي لا تعلم شيئا، لايزال الحارس القديم والبستاني موجودين لا يعلما شيئا عن البيع.

قالت ليليان

- تستحق يا دكتور.

ضمتني إليها وهي فرحة بما رأت، أخذت تردد عندما وصلنا السطح حيث يوجد حوض السباحة وإطلالة على البحر.

- ألف مبروك، ألف مبروك، هذا قصر والله يا خالد، ليست فيلا.

فعلا لا نحتاج لإحضار أي شيء حتى الثلاجات كانت مكتظة بالمشروبات والمأكولات، يمكننا المبيت إذا أردنا، لكن تذكرنا أن مجدولين في الشقة وحدها.

ودعنا بكري بعد أن شكرناه ،سلمنا المفاتيح للحارس، انصرفنا، في الطريق أخبرتني ليليان بعدم موافقة أهلها بفكرة زواجي منها وهي لم تتوقع غير ذلك، اتفقنا أن إستراتيجية إرضاء الأهل جزء هام من فرحة الزواج؛ لذلك علينا أن نسعى بكل الوسائل كما فعلت محاسن المناضلة.

- أنا من جانبي يهمني ابني أولا ثم أمي ثانيا فأنا متأكدة من إقناع أمي.

- أنا أيضا متأكد من إقناع أمي.

- لماذا هذه الفيلة الكبيرة؟! يا خالد الشقة تكفينا.

- يا بنت الحلال ... ممكن إحضار أهلنا معنا ،يسكنوا معنا.

- يعجبني فيك يا خلود، التنظير والخيال، إن شــاء الله كلامك يصبح حقيقة.

- العيد قريب، سنسـافر السـودان ،نرى ماذا نفعل، أنا متوقع صديقي دكتور قاسم وزوجته دكتورة كرستين أن يكونوا معنا في السـودان أيام العيد؛ ليرى أهلي وأهلك كيف سـلوك الخواجات، وكيف سلوكنا.

- بالمنطق أنا أصـلا خوجاية لكن الأقدار أزالت أهلنا ،تغيرنا قهرا في العهد التركي إلى مسـلمين، نعيش في دول عربية كتبت علينا الرجعية.

ضـحكت ليليان ،ضـحكت معها مؤكدا أن ما قالته حقيقة، كان وقتها قد صـف السـائق السـيارة الجديدة بجانب سـيارتي القديمة، طلبت من أبو إياد أخذ سيارتي القديمة، إصـلاح التصـادم الخلفي بطريقتـه ،في أي مكـان يراه، كـانـت مجـدولين في انتظـارنـا بالعشـاء، أخبرتني أن شـخصًـا اسـمه قاسـم اتصـل، فعرفت أن موضـوع محمد السـائق قد تحرك، قبل أن أجلس للعشـاء اتصلت بدكتور قاسم:

- أهلاً

- كنت في انتظارك، يا رجل،

- مرحبًا دكتور قاســـم، إن شــــاء الله الأمور تحركت في موضوع محمد.

- محمد خميس اتضح أنه أشطر منك مني.

- ماذا حدث؟! ... خير.

- الموضوع لا يحتاج شرين ولا غيرها.

- محمد أقنع الشـيخ بأنه ذاهب للزواج في الصـومال، الشـيخ وافق ،حضـــر له الجواز ،أعطاه مبلغًا محترمًا لزوم الزواج، بعد غدٍ سيصل إلى مقديشيو في هوتيل اسمه شبلي، اكتب الرقم عندك.

- والله خبر عظيم جدا .... وفر علينا مصـروفات ،كفانا شـر شرين.

- ما نريده الآن شــخص يقابله هناك؛ ليســهل له الســفر إلي بيروت.

- يـا دكتور فعلـت مـا أمكنـك والبـاقي على .... عليـه متوقع حضورك الخميس القادم مع كرستين.

- حسنا دعني أقلب الأمور.

وضـعت السـماعة، التفت، وجدت ليليان واقفة خلفي، لم انتبه إليهـا وهي في انتظـاري؛ لإنهـاء المحـادثـة والرجوع إلى مـائدة العشاء، سألتني وباستغراب وزعل:

- مَن تكون شرين هذه يا خالد؟!

تلعثمت؛ لأن اسـم شـرين هو الاسـم الوحيد الذي خشـيت أن تعرفه ليليان، ماذا أفعل الآن والكذب آخر ما أتعامل به؟؟

- إذًا هيا نتعشـــى، مجدولين تنتظرنا، أريد النوم مبكرة، غدا عندي عمل كثير، لازم أشـتري ملابس جديدة لمجدولين وحقائب سفر.

لم تجلس معي ليليـان في البلكونـة كمـا تعودت، كنـت أتوقع أن تشـاركني الفرحة بشـراء الفيلا، ماذا نخطط سـويا فيها، لكنها ذهبت رأسـا مع مجدولين إلى غرفة الضيوف، جلسـت وحدي في مكتبي، لم أخرج إلى البلكونة، عاودني مرة أخرى الشـعور أن ليليان تسـتعمل الحاسـة السـادسـة، بدون شـك أنها تعرف ما دار بيني وبين شـرين في تلك الليلة اللعينة، لا بد لي أن أخبرها، لكن في الوقت المناسب، ذهبت لأنام ؛ لأن برنامجي مكتظ جدا يوم غد، في الصـبـاح أحضـر أبو إياد سـيارتي القديمة بحالة جيدة جدا، تم إصـلاح التصـادم الخلفي كأن لم يحدث لها أي شيء، تصادم مطابق تماما للأصل.

قبل أن أودع ليليان، طلبت منها الاتصـــال بمريم الصـــومالية؛ لطلب المساعدة منها بخصوص محمد السائق، الذي من المفروض أن يصل مقديشيو عاصمة الصومال مساء الغد، كتبت لها ورقة فيها اسمه بالكامل ،اسم الفندق ،ميعاد وصـول الطائرة، ودعتني ليليان بقبلة باهتة من جانبها، ذهبت إلى الجامعة مع السائق.

(٢٠)

فكرت وأنا في مكتبي، أن وقت الســفر قد اقترب جدا بالنســبة لمجدولين، يجب أن ترى أمها قبل سفرها، كان قراري أن أستعين بجوليا، اتصـلت بها ،قابلتها في مطعم قريب من منزلها، انتظرتني أمام الباب برونقها وملابسها المشدودة على جسدها الشاب ظنًا منها أنني أريدها لنفســي، رافقتني في سيارتي المرسيدس الصغيرة، ذهبنا سويا إلى فيلتي الجديدة، في الطريق شرحت لها مهمة إحضار والدة مجدولين.

أخبرت الحارس بأن يستقبل جوليا بعد الرجوع من مهمتها، في حجرة نوم كبيرة في الطابق الثالث من الفيلا ،معها السيدة مسيلة أم مجدولين، أعطيت جوليا مبلغًا من الليرات اللبنانية، أصيبت بالاندهاش أشعرتني بأنها أكثر من مستعدة لمساعدتي في المهمة، أخذت مني عنوان سكن مسيلة جميل والدة مجدولين، أوضحت لها خطورة المهمة، ربما تكون مسيله مراقبة من قبل أهلها، فيجب الحرص لأبعد الحدود، اتفقنا أن نتقابل في الفيلا بعد ثلاث ساعات.

حرصا علي سلامة الخطة أوصلت جوليا إلى موقف التاكسي، على أن نلتقي حسب الاتفاق في الفيلا بعد ثلاث ساعات، تركت تعليمات للحارس بأن يتصل بمكتبي في الجامعة إذا حضرت السيدتان، جلست منتظرا أربع ساعات لم يصلني أي تليفون، جن جنوني ،اتصلت بالحارس:

- متأسف لم أفلح في الاتصال بك، لكن وصلت السيدتان منذ ساعتين.

حمدت الله، اتصلت بشقتي ،طلبت من مجدولين أن تلبس أحسن ملابسها وتنتظرني في الجراج، بسرعة جنونية وصلت، أخذتها الي الفيلا ، لم أدخل معها بل أمرت الحارس بتوصيلها إلى الطابق الثالث، معها كمية من الأكل الطازج والمشروبات ،أن يخطر جوليا، التي نجحت في إحضار السيدة مسيلة إلى الفيلا، باني في انتظارها أمام الباب.

نزلت جوليا بعد دقائق تبكي، جلست بجانبي في السيارة تحكي لي مشهد اللقاء، شكرتها كثيرا ،لم أوضح لها تفاصيل القصة، في الطريق وعدت جوليا بأنني ملتزم بمساعدتها ،لن أنسى جميلها أبدا فيما قامت به اليوم، رجعت الشقة، وجدت ليليان قد رجعت من الجامعة، أخبرتها بتفاصيل اللقاء بين مجدولين وأمها بدون ذكر جوليا، لم تمهلني دقيقة واحدة، توجهنا سويا مع السائق إلى الفيلا، معنا باقة كبيرة من الزهور وملابس وروائح.

ونحن في الطريق، أخبرتني ليليان بتفاصيل مقابلتها مع مريم الصومالية بخصوص السائق محمد خميس، أنها اتصلت بأختها وطلبت منها السفر من مدينة هرجيسة إلى مقديشيو العاصمة؛ لاستقبال محمد، غدا سوف تخابرها؛ للتأكد وستتصل بنا في المساء.

بعد وصولي مع ليليان إلى الفيلا سبقتني مسرعة إلى الطابق الثالث؛ للوقوف على فرحة مجدولين بعد مقابلة أمها، بمجرد ظهوري، شبت مجدولين على رقبتي، قبلتني في كل أجزاء وجهي وهي تبكي وتقول لأمها: هذا هو الرجل الذي أنقذ حياتي ومعه أختي وحبيبتي ليليان، دمعت عيناي وأنا أضم السيدة مسيلة إلى صدري، سيدة جميلة أرهقها الدهر، بدأت التجاعيد على جبهتها وأطراف وجهها، حاولت تقبيل يدي فسحبتها، ضممتها إلى صدري مرة أخرى، استمرت ليليان بدموع الفرحة ورهبة اللقاء تهنئ مجدولين ترحب بالسيدة مسيله؛ لكسر المشهد الدرامي المهيب، وإيقاف الدموع المنهمرة منا جميعا، ومن الوقفة السعيدة التي أحكمت إخراجها بسلام، وقفت:

- اسمعوني، كلنا سنبيت اليوم هنا فما رأيكم؟

فقالوا جميعا:

- شكرا لك يا دكتور فكرة رائعة.

جميعنا جلسنا في المطبخ، أكلنا ،شربنا ،تبادلنا القصص مع السيدة مسيلة وهي تردد:

- لا أصدق أهذا حلم ؟!

ترد عليها مجدولين:

- لا يا ماما هذا دكتور خالد أبي، هذه ليليان أختي، عملوا لي المستحيل ،بعد غدٍ سترين عريس بنتك مايكل.

قامت مجدولين من مكانها، ضمت أمها إلى صدرها، انشغل الجميع في تبادل المشاعر والحب، طلبت من السائق الإسراع إلى شقتي؛ لإحضار ملابس لي ولمجدولين وليليان، كنت فخورا بهذا الإنجاز الذي لعبت جوليا فيه الدور الأكبر، كيف يمكنني أن أفصح لليليان بتفاصيل القصة!؟!، لا أشعر بمقدرتي على الكذب على ليليان، فهي شخصية خارقة الذكاء، متحررة في فكرها، لا تقف قوانين الدين والتقاليد أمامها، تستفتي نفسها أولا، تسخر من أي راي لا يمت إلى المنطق، طيلة الفترة التي جمعتني بها كنت أتعلم منها أكثر مما أعلمها، هزمت مواقفي في جولات عدة؛ لأنها صريحة؛ لا تقدم على شيء إلا وهي واثقة منه، لا تندم على فعل شيء ما دامت مقتنعة به؛ قررت أن أترك تفاصيل كيفية لقاء مجدولين بأمها، إلا إذا استجوبت من قبل ليليان.

كل المشهد كان شبيها بفيلم بطولات وتضحيات وغراميات وانتصار البطل في النهاية، في قرارة نفسي كبطل لهذا الفيلم شعرت بالهزيمة، الاعتراف لهذه المرأة التي أحبتني بدون مقدمات احببتها وأنا أجهلها جهلا تاما، أصبح حتميا، فالحب أن لا تعرف شيئا وإذا لم يُنجنِ الصدق معها فالكذب لا ينجيني، اليوم هو يوم الاعتراف بالهزيمة، في تلك الليلة، بعد أن هيأنا لمجدولين وأمها كل شيء في الطابق الثالث

انسحبنا أنا وليليان إلي الطابق الثاني، أخذت ليليان دشًا ساخنًا كما فعلت أنا في الحمام الثاني ،غيرنا ملابسنا، صعدنا إلى السطح، جلسنا حول حوض السباحة نتهامس ،نجتر عظمة هذا المكان الذي جمع بين مجدولين وأمها في مشهد أقرب إلى خيال المصباح السحري.

بينما نحن سويا نداعب حلمًا نسعى سويا إلي تحقيقه، كان نسيم البحر المنساب من الشمال ينعش روحينا، نقاء السماء المطلة بنجومها التي تتلألأ دون انقطاع، قررت ليليان السباحة بملابسها العادية، اختفي نصفها الأسفل في الماء، شعرها الذهبي تدلى من خلفها يسبح مع موج البركة المتأني بزخات النسيم، حول جسدها المتمرد، تجمعت انعكاسات النجوم الراقصة على سطح الماء، أنا جالس على كرسي وجهًا لوجه مع ليليان أتأملها، كأنها عروس من عرائس البحر، ابتل قميصها، التصق بصدرها المكتنز الذي بانت حلماته وهو يهتز كلما تحركت بعفوية، أدهشتني وهي تسبح بمهارة، تقاوم كثافة الماء بساقيها كأنها سمكة زينة ذهبية تمرح في إناء من الكريستال الخالص.

أنا في حلم!؟! لا أصدق، هل هذه ليليان أم حورية بحر قفزت إلى الماء من وسط العدم؟!، ظللت صامتا أشاهد بشغف هذا الجسد المستبد المثير، تحرك داخلي وحش كاسر لابد من تسكينه، فهذه ليليان وليست شرين في مسبح الشيخ، إنها شريكة حياتي في المستقبل، بعد مشوارها القصير داخل المسبح، رجعت ليليان، نبهتني بأن أسرح السائق الذي أحضر الملابس من الشقة؛ لأن الساعة قد تأخرت، استمرت في السباحة، نزلت إلي جراج الفيلا أخذت الملابس من السائق، طلبت منه الذهاب إلى الشقة وترك العربة هناك والحضور غدا بعد الظهر.

رجعت بسرعة ، وجدت ليليان تركت حوض السباحة ،دخلت حمام غرفتها بالدور الثاني، بدأت بدوري في تحضير حجرتي، دخلت الحمام، لبست منامتي، عندما انتهيت فتحت باب غرفة ليليان لأمسيها بالخير، وجدتها مندسة تحت اللحاف الحريري وهي مبتسمة ،عيونها تتلألأ بالفرحة وتنبئ بشيء لم أحل طلاسمه:

- ضــــع الملابس في الخزانة واجلس هنا بجانبي، قل لي عن رحلتك بأمانة.

جلست بتردد على طرف السرير

- لم أُخفِ عنك شيئًا.

- ماذا عن ... شــرين وجوليا؟! قصــص ســفرك المثيرة!! حبيبي ... أنا أحب التفاصــيل، كنت أحس بك في تلك الليلة ... قل لي يا دكتور.

- سأقول لك ... لكن نتركها ليوم ثانٍ.

- أريد سماعها هذه الليلة.

- لو صحيح أنت حبيبي؟!! ... قل.

(٢١)

توكلــت على الحي الــذي لا يموت، تــذكرت مرة أخرى مقولــة الصــــوفي الشــيخ فرح ود تكتوك «لو الصـــدق لم ينجك الكذب لا ينجيك»، بدأت ســرد قصــتي باختصـــار، وليليان تقول لا ... أرجوك التفاصيل ... أعد من جديد، هي تستمع بكل حواسها ،عيونها المتلألئة المثيرة ،جسدها المندس تحت اللحاف تمسك يدي بحنية ولطف، عندما انتهيت من ســردي الطويل وتفاصــيله المثيرة المخجلة، شــعرت بأنني غسلت نفسي، ليليان ظلت ممسكة بيدي:

- هل تحبني حقا يا خالد؟!

- نعم

- لكن لماذا؟!

- أكيد غلطة.

- طبعا لا.

- لكن معادلاتك الرياضـــية البســـيطة تقول واحد ناقص واحد يساوي صفرًا ، أليس كذلك؟!

لذا ... سوف أقوم بغلطة أيضا؛ لنكون سواسية.

أطفأت ليليان نور الشمعدان بيدها اليسرى، جذبتني إلى شفتيها قبلتني قبلة طويلة، تسللت بحذر شديد معها تحت اللحاف، التحم جسمها المخملي العاري تماما بجسمي، تفصلني المنامة عن تفاصيلها الخفية المثيرة، لا أسمع إلا نفسها الصاعد النازل من أعماق صدرها الذي اندس وجهي بين تضاريسه اللدنة، أسمع تأوهاتي المتقطعة بقبل اللهفة في كل شبر من المساحة المتاحة أمامي، عيناي مغمضتان لكنى أرى كل شيء بوضوح، نزعت المنامة عن جسدي، أتاحت لي المستور دون عناء، طوقت عنقي بذراعيها الناعمتين، ليندس أنفي في صدرها، يستنشق عبق عطرها المثير ،الذي حمل بصمتها الخاصة ،لم يكن كغيره من عطور النساء، لحظة استنفار لم تدون مذكراتي مثلها عبر تاريخ مغامراتي الرومانسية، ليليان المستحيل الذي أبني حلمي عليه، ها هي انهارت أمامي كما انهرت أنا أمامها، ها هي ليليان تبادلني صدقها دون تصنع.

المرة الأولى بإثارتها يغيب العقل والمنطق، استمررنا في تناعم ولطف، يدي تمتد برضائها تارة وتمنعها تارة أخرى، حتى استوينا، ترك كل منا فطرة الله بين الذكر والأنثى تنساب بصنع الصانع، لهفة وحب ورغبة وتناغم، رمينا الغطاء بأرجلنا، لم يعد ساتر يحول بيننا، تشهد علينا الستائر، السقف، الجدران، رأتنا كما خلقنا الله، لقد كنت متوحشا، انسابت ليليان في وسط جسمي العملاق كقطعة زبد في جسم ساخن، تتوسد ذراعي الأيمن، تمسك صدرها يدي اليسرى، قامتي استدارت حول جسدها المخملي الدافئ، غبنا، في الصباح شعرت بيد ناعمة تمر بخدي بهدوء، أسمع همسا:

- صباح الخير يا خالد.

فركت عيني، رأيت ليليان تجلس بجانبي تلبس قميص النوم، وفي يدها منامتي، وجهها متورد، عيناها تشعان بالبهجة والفرح وتهمس مرة أخرى:

- صح النوم يا دكتور، الساعة عشرة.

- ليليان هل هذا حلم؟!

جذبتها إلى صـــدري، قبلتها قبلة حارة طويلة، أردت إدخالها تحت اللحاف كما فعلت بي البارحة، لكنها قاومت ،ابتعدت عني وهي تضـــحك حتى لبســـت منامتي، أخذتني إلى الحمام، تركتني، خرجت إلى المطبخ، وجدت مجدولين بوجهها الطاهر وأمها يحتضـــنان بعضـــهما، ليليان تصـــب القهوة ،توزع الخبيز الذي أحضره طباخ جاري الأستاذ بكري، جلسـت، جلسـت ليليان على حجري وهي تتبسم ويدها اليمنى حول عنقي قالت بصوت خافت:

- لن أذهب إلى الجامعة اليوم.

- طبعا ... ماذا حدث ؟!

- اسأل نفسك يا دكتور.

- خجولة من نفسي لا أصدق ما فعلته، أنت رجل متوحش ... لا أستطيع الوقوف على رجلي، فضيحة لو عرفت محاسن... أجلس في حجرك الآن؛ لأني لا أستطيع الجلوس على الكرسي.

- كما قلتِ يا ليليان ... غلطة ناقص غلطة تساوي صفر.

ضحكنا سويا، اندمجنا مع مجدولين وأمها، بدأت أسأل أمها عن طبيعة عملها فقاطعتني مجدولين:

- ماما من اليوم لن تعمل بالليرات القليلة التي تحصـــل عليها في الشـــهر، ســـأرســـل لها من أمريكا، كمية من الدولارات في الشهر.

- ما رأيك يا مجدولين إذا اشـــتغلت أمك هنا في الفيلا؟! مرتبها في الشهر كما تريد، تسكن أيضا هنا معنا.

- الله يبارك فيك يا دكتور، لا أريدها ترجع للضاحية.

- غدا تذهب إلى الســـوق مع أبو إياد، تشـــتري كل الملابس التي تريدها.

(٢٢)

قامت السـيدة مسـيلة أم مجدولين من الكرسـي، قبلت يدي، وهي تبكي، قامت ليليان من حجري ،ضـمتها إلي صـدرها، وصـل طباخ الأسـتاذ بكري معه من أطباق الإفطار أعطاني رسـالة كتبها الأسـتاذ بكري:

- الرجاء الاتصال فورا بالدكتور قاسم الجرافي في مكتبه.

لم أهتم بالفطور الشهي بل أدرت قرص التليفون:

- أهلاً دكتور

- أولا اكتب عندك، تليفون محمد في فندق شـبلي مقديشـيو ... قال لي إنه قرر الزواج من فتاة قابلته في الفندق.

- والله إنـه رجـل خطير .... ربمـا تكون أخـت مريم، طـالبـة صومالية مع ليليان في كلية الطب، تقول : إن والدها رئيس القضاء في الصومال.

- القصة أصبحت حقيقة، قال إنه سيسافر هرجيسة معها غدا.

- شكرا سأتصل به فورا ... أذكرك يا قاسم، في انتظارك حسب وعدنا، اكتب رقم تليفوني الجديد

- تحياتي إلي ليليان.

- مع السلامة.

نقلت أخبار محمد إلى ليليان، فرحت:

- أكيد شقيقة مريم تكون جميلة مثلها.

تنـاولنـا جميعنـا الإفطـار ،قـامـت أم مجـدولين بخـدمـة المنـاولـة والنظافة، حضـر أبو إياد في موعده، أوصـلني إلى الجامعة، قمت بتقديم محاضـرتين، رجعت مكتبي، اتصـلت بأمي في البيت ، طلبت منها إرسـال السـائق؛ لإحضـار عمي أبكر من الجامعة؛ لأني أريد التحدث معه في أمر مهم بعد سـاعة، تفاديت الكلام عن العرس مع أمي، علمت منها أيضـا رجوع أبي من لندن، وأنه بمكتبه في وزارة الداخلية.

قررت الاتصال بمحمد خميس، قبل الاتصال بوالدي، طلبت من السنترال رقم فتح التليفون للصومال، تم توصيلي بمحمد بعد محاولات عدة:

- أهلاً محمد، معك دكتور خالد من بيروت.

- أهلا، الحمد لله سمعت صوتك ... كيف أخبارك؟

- بخير ... ما شاء الله عليك، والله أنت رجل ذكي ... ما موضوع العرس؟!

- يا دكتور فرصه لا يمكن أن أفوتها، بنت لم أر أجمل منها في حياتي، لم أصدق أنها تقبلني بهذه السرعة، لكن الحمد لله، غدا سنسافر معا إلى بلدها؛ لمقابلة والدها.

- يا رجل ألف مبروك، فلوسك هنا في أمان أودعتها البنك،

- ما دامت في يدك أنا مطمئن ... لا تستعجلوا عليَّ، البلد هنا جميله جدا، أريد شهر العسل هنا، إذا هون الله، ومعي الحمد لله مبلغ كبير من الشيخ يكفي ويزيد.

- مبروك، اعمل حسابك ،خليك في اتصال، مع السلامة.

جلست أدون ليلة أمس، أحلل شخصية ليليان التي عجزت تماما التكهن بها، كتبت شخصية أقوي مما تصورت، كيف تنهار أمامي بهذا الشبق العارم؟! إنها محافظة ،لها مبادئ راسخة في كل شيء، هزمتني في كل المواقف، محتار أنا... كل ما أعرفه أن حبي لها لم ولن يتغير، لماذا قمت بفعلتي أثناء سفري الأخير؟! حقا كانت غلطة لا تغتفر، وما فعلته ليليان معي في السرير ليلة أمس، هل هو خطأ؟! ربما قررت ليليان أن تحتفظ بحبي وشبقي وتهوري لها وحدها، لكي أبتعد عن أي رغبات خارج الدائرة التي تربطنا معا، هل زواجنا مؤكد في مثل هذه الظروف؟! أسئلة يعج بها رأسي، شعرت بأنني أريد الحديث مع ليليان، أدرت قرص التليفون:

- أهلاً حبيبتي كيف يومك؟ كيف حالك؟!!

- الحمد لله، تمكنت من الحركة.

- أقسم بالله يا ليليان، حبي لك أكثر مما كان.

- يا خالد أنت تعرف كيف أهلي زوجوني ... الجنس لم أعرف عنه إلا في الكتب، لكن العملي كان ليلة أمس ... كما يقال الجوع كافر، لكن الجنس أكفر، وفي هذه الليلة سأتم لك الناقص، سأرقص لك ما رأيك؟

ضحكت ليليان بأعلى صوتها، ضحكت معها:

- مراهقة ولا إيه يا ليليان؟!

- لم لا ...؟! دعنى أراهق، وهل كانت لي فرصة المراهقة قبل ذلك؟!

- أي نوع من الرقص؟! سوداني، مصري، أوروبي؛ أختار لك الأسطوانة المناسبة.

- كله، محاسن علمتني رقص الرقبة، والرقص المصري والأوروبي أعرفه... على فكره أحضر ملابسنا من الشقة، لا أريد الرجوع إليها، أريد منك شراء قمصان نوم على ذوقك.

- طلباتك أوامر يا حبيبة قلبي، على فكره بكري ومحاسن سيحضران للغداء عندنا اليوم؛ لمباركة الفيلة.

- أحضر معك مأكولات جاهزة، أنا بالذات اشتهي خروفًا مشويًا، سأخبر محاسن؛ لتحضر لي ملابس من البيت.

- حسنا سأحضر فورا بعد مكالمة عمي في السودان.

- بالله لا تنس الميكاب في الشقة.

- والله لا تحتاجين ميكاب، لكن سوف أحضره معي ... مع السلامة.

اتصلت ببيتنا في السودان، وجدت عمي في انتظاري:

- لك التحية عمى أبكر، أريد إنشاء معهد علمي للبنات باسم جدتي مستورة في قريتها «عد الفرسان»، أريدك أن تقوم بدراسة جدوى بأسرع فرصة، الميزانية مفتوحة، في حالة إعداد الخطة أريد منك تجميد سنة دراسية؛ لأنك شخصيا ستقوم بالصرف وكل ميزانية المشروع سأودعها في حساب خاص باسمك في البنك العثماني.

- سأقوم فورا بإعداد الدراسة، تأكد يا خالد أن المشروع سيتم قبل حضورك في العيد.

- لك الشكر عمي العزيز، موضوع قبولك في جامعة ألمانية سيتم بعد انتهائي من تحرياتي، وفقنا الله في إنهاء المشروع.

- نحن هنا في انتظارك، مع السلامة.

- شكرا ... أريد مواصلة الكلام مع أمي.

تكلمت مع أمي، وعدتها بأني سأصارح أبي في اتصال مساء اليوم بموضوع زواجي من ليليان، تركت لأمي تليفوني الجديد بالفيلة، توجهت مع أبو إياد إلى شقتي، حملنا معنا كل ما يمكن حمله إلى الفيلة ومن بينها جهاز الفاكس، في الطريق أخذنا طلب الخروف المشوي من مطعم حضرموت.

بعد وصولي إلى الفيلة، صعدت إلى السطح، فُوجئت بذوق ليليان الرفيع وقد أعدت مائدة الغداء بمساعدة مجدولين وأمها حول حوض السباحة، وزعت باقات الزهور على الطاولة المستطيلة، الأطباق أعدت بدقة ورونق، حتى الموسيقى الهادئة تعرفت ليليان على تشغيل معداتها بمهارة، استقبلتها بالحضن:

- أريد مقابلة طبيب ... لا أستطيع المشي ... أنا مضطربة يا خالد، ماذا أقول للناس؟!

- أنا السبب يا ليليان، سأعمل اللازم ... هل يمكن أن تستحملي حتى انصراف الضيوف؟

- ربما أحسن بالنسبة لي لبس فستاني الطويل الكحلي؛ لتغطية الكدمات الظاهرة على رجلي اليمنى، ألا ترى البقع السوداء عليها؟!

- حسنا اذهبي إلى حجرتك .... أحضرت لك ما طلبتي، وضعته في الدولاب.

- لا أستطيع النزول على السلم.

- دعيني أحملك قبل حضور الضيوف .... علي فكرة قدمت الدعوة لصديقي جستن والدكتورة صني الحبشية، ما رأيك أن تكشف عليك؟!

- حرام عليك أن تفضحني مع من كانت صاحبتك ،تسكن معك.

- من أين أتيت بهذه المعلومة ؟!

- كلمتني بنفسها عندما نقلت مجدولين من شقتهم.

- لا حول ولا قوة إلا بالله ... والله مصيبة ... ماذا أقول.... سأطلب من جستن الاتصال بدكتور السفارة الهولندية ليحضره معه.

- لا لا لا ... لن أترك رجلا يمسني بيده بعدك .... اترك الموضوع يا خالد.

أوصلت ليليان محمولة على ذراعيَّ إلى حجرة النوم في الطابق الثاني، قبل أن أضعها على رجليها استمرت ممسكة بعنقي بقبلة عميقة استمرت حتى سمعنا صوت محاسن وهي تقول بيت مال وعيال.

تركت ليليان في الغرفة، خرجت فورا؛ لاستقبال محاسن معها بكري وابنته لميس وابنتها هاديه، تبادلنا التبريكات، صعدنا إلى السطح، حيث أعد الطعام بواسطة طباخ بكري، وصلت أم محمد، أطلقت زغرودة طويلة، بدأت فورا في نظافة الحمامات ،ترتيب الحجرات في كل الفيلا، وصل جستن، معه صني إلى السطح، أول ما قالته صني:

- أين ليليان ؟!،

دللتها على مكانها، نزلت دخلت عليها وهي تلبس الفستان الطويل، وسألتها عن البقع السوداء التي لاحظتها على رجليها، صارحتها ليليان بما حدث بيني وبينها ليلة أمس، قامت بالكشف عليها، طلبت لها أدوية أحضرها السائق من الصيدلية المجاورة، تمت الإسعافات الأولية ،ضمدت أماكن الالتهابات، رجعت صني إلي السطح ،معها ليليان متعافية تماما، تركتها تستقبل الزوار، وقفت صني أمامي وهي تضحك:

- حرام عليك يا خالد ماذا فعلت في هذه البنت المسكينة؟!
- ماذا حدث؟!
- نفس ما حدث لي معاك أول مرة ... إنها تريد شهرا كاملا حتى تصير صالحة.
- حرام عليك شهر كامل؟!
- نعم شهر كامل، ضحكت.
- ألا يوجد علاج سريع!؟!
- لا أعتقد.

بينما أنا في حديثي مع صني أقبلت ليليان نحونا تمشى بصورة طبيعية، قالت وهي متوردة الخدود من الخجل:

- شكرا يا دكتوره صنَي الحمد لله أنا بخير، هيا بنا إلى طاولة الطعام.

كانت حفلة رائعة، استمتع الجميع بالأكل والشرب والموسيقي، قامت صني أيضا بكشف طبي كامل على مجدولين، طمأنتها على حملها، انصرف الضيوف ،طلبت من جستن وصني قضاء الليلة معنا، ذهبت مجدولين وأمها للنوم ،صرفت أبو إياد على أن يرجع غدا عند الظهر.

(٢٣)

في جو جميل ونحن نشرب ونستمع موسيقى، اقترحت صني ارتداء ملابس السباحة، نزلت مع جستن الحوض، أما أنا فانشغلت مع ليليان نتكلم في موضوع الزواج وكيفية إقناع الآباء، إذا كان لا توجد أي مشكلة مع الأمهات، أول مرة أتمكن من إقناع ليليان بشراب القليل من البيرة، عساها تحرر ذهنها ولو لفترة قصيرة من الجدية والمنطق، تجاوبت معي، شربت نصف كوب.

دار بذهني سؤال سخيف، ترددت في طرحه، لكن تجرأت، سالت ليليان:

- عفوا يا ليليان ... يدور بذهني سؤال ملح وسخيف في نفس الوقت، ترددت مرارا في طرحه، كيف أقنعت نفسك بمضاجعتي في تلك الليلة؟!

وضعت الكوب بعنف على الطاولة، انتفضت ثائرة، وقفت أمامي:

- فعلا إنه سؤال سخيف يا خالد.

- متأسف، أنا ما قاصد أي شيء سيئ.

- شعوري نحوك يا خالد كان صادقا، لكنك بهذا السؤال قد قتلته؛ لأني ببساطة أقنعت نفسي بذلك، النساء لهن اشتهاء، كما لكم، لكننا نكتمه خوفا وخجلا من تحقيركم، في بعض الأحايين لا نستطيع الكتمان، وهذا ما حدث لي ليلة أمس، فلا تجعلني أندم علي فعلتي كما ندمت أنت من مضاجعة القحاب في رحلتك الأخيرة.

- يا ليليان مرة ثانية أقول لك متأسف ،سؤالي فعلا سخيف.

- لا تبخسني يا خالد ... أنا لست قحبة، أنت تعرف بالرغم من تربيتي الدينية التقليدية التي لم أقتنع بها؛ لأنها مليئة بالتصنع وتعدد الوجوه، وجهي واحد، لا أكذب ،لا أمثل، لم يكن صعبا علي أن أمثل عليك دون انقطاع حتى يتم زواجنا، ليكن في علمك، لو كذبت على في استجوابي لك ليلة أمس عن شرين وجوليا لما أتحت لك جسدي

لأني أعرف شخصك المقارب لشخصي، لولا ذلك لتجاهلتك من أول يوم، إذا أنت نادم علي، وتراني رخصت أمامك بعد تلك الليلة، عاتب على نفسك في أنك انتهكتني، فأنت أبعد ما تكون عني، هذا فراق بيني وبينك إلى الأبد شكرا يا خالد.

نهضت ليليان تبكي بصوت متشنج، اتجهت إلى السلم، أنا أجري خلفها محاولا تهدئتها، والاعتذار عن سؤالي السخيف، لم تسمح لي حتى بلمسها، دخلت حجرتها، بدأت في جمع ملابسها وهي تواصل البكاء، تحولت إلى قوة جبارة ومارد لا توقفها الأيدي أو الحواجز، صرخت في وجهي:

- تبا لك وتبًا لليوم الذي عرفتك فيه، غب عن وجهي الآن، سأخرج إلى الشارع، سأصل إلى حجرتي عند محاسن بأي طريقة، لا أريد توصيلي يا خالد، مع كل هذا أحبك وأحبك وأنت لا تستحق، أريد أن أنسى وأتخلص من حبي لك.

- يا ليليان الدنيا ليل اتركي الموضوع للصباح.

- لا يمكن أن أبيت معك تحت سقف واحد، ابتعد عني.

دفعتني بيدها، صرخت:

- اتركني ... اتركني ... ابتعد عني ...

في هذه اللحظة وصل جستن وصني مذعورين، اقتحما حجرتنا، كانت ليليان تحمل في يدها حقيبة، وضعت أغراضها فيها، وهي تصرخ حتى جف حلقها:

- ابتعدوا عني، اتركوني.

أسرعت نحوها صني، ضمتها إلى صدرها، أحضر جستن كوبا من الماء، شربت منه قليلا، جلست على السرير تغطي وجهها، لا تريد أن ترى أحدا أو تنظر نحوي، لم يكن لي خيار غير الخروج من الحجرة مع جستن، تركنا ليليان وصني وحدهما.

بأدبه المعهود لم يسألني جستن عن أي شيء، جلست معه صامتا مشتت الفكر، منكفئا على وجهي كمجرم ينتظر ساعة الإعدام، بعد فترة وجيزة، خرجت صني من حجرة ليليان، طلبت من جستن مساعدتها في توصيل ليليان إلى منزلها في بيت محاسن، طلبت صني منى عدم التعرض لها، أو حتى الكلام معها، ظللت في مكاني بالمطبخ، همس جستن لي، وهو يربت على ظهري معبرا عن أسفه، وأنه لا يعلم شيئا حتى الآن، وعدني بتسوية الموضوع غدا، أظلمت الدنيا أمامي، توقف تفكيري تماما، وأنا أري ليليان تخرج من الفيلا تحمل أغراضها بصحبة صني وجستن، بكل ما أوتيت من علم وخبرة عجزت في علاج الموقف أو إقناع ليليان، انشل عقلي، لم أعد أرى طعما لحياتي في الفيلة أو المال المتوفر في يدي.

بعشوائية غير مسبوقة في تاريخ حياتي، وإرباك كما الزلزال من وقع الموقف، انتابني شعور فقدت من خلاله موطئ قدمي وشخصيي، حينها قررت التوقف نهائيا عن أي تفاعل يربطني بأي إنسان، في تلك الساعة من ساعات الليل، تغيرت إلى شخص سالب لا يقدم ولا يؤخر، لم أنم ثانية واحدة، تذكرت شيئا واحدا، تذكرت جدتي وهي تثبت أمام إهانة كرامتها ،تثبت أمام قساوة سلب ابنها الوحيد من حضنها، تذكرتها وقد أعادت صياغة حياتها مرة أخرى، كل ذلك حدث لجدتي البسيطة التي لم تكتسب أي تعليم يعينها على مصائب الدهر، إيمانها بالله وبنفسها كان المعين لها الوحيد، الإيمان بالنفس ... أين أنا الآن ضعيف، لا حول ولا قوة لي، أين إيماني بنفسي؟! ذهبت حبيبتي ليليان الملهمة لكل ما خطته يداي معها ونفذته عزيمتي بقوتها.

عند شعوري بالضعف، دائما أحس بضرورة التحدث مع أمي، بدون أجندة بدون أي موضوع مجرد سماع صوتها كفيل بإلهامي وإعادة الثقة في نفسي، كانت الساعة السادسة صباحا أدرت قرص التليفون:

- أهلاً
- خالد صباح الخير، لماذا لم تتصل أمس كنت في انتظارك ... أمك خبرتني أنك ستتصل بي في موضوع زواجك.
- يا أبي ... متأسف كنت مشغولا .
- لا تحفظ أي احترام لأبيك؟!
- متأسف.
- ما موضوع زواجك !؟!
- هل تسمح لي أن أكلم أمي؟
- أمك؟! يا دكتور، تريد أن تستشير أمك؟! شيء عجيب.
- لا أقصد شيئا ... أريد التحدث معها.

أخذت أمي السماعة، خنقتها عبرة:

- حبيبي خالد ... ابني ... ماذا حدث لك؟!! حدثني كان عندي شعور في هذه الليلة أنَّ مكروهًا حدث لك يا بني.
- كنت أريد السلام عليك.
- ماذا أصابك يا ابني ... صوتك متغير؟! هل أنت بخير؟!
- أريد حضورك إلى بيروت.
- ماذا حدث؟! كيف يمكنني الحضور بالطائرة وحدي؟!!
- سأدبر هذا الأمر مع عمي أبكر.
- ماذا يقول والدك؟! العيد على الأبواب وحضورك هنا معنا كما وعدت.

- موضوع مهم بيني وبينك فقط.
- مادام الأمر كذلك سأخابر عمك، مع السلامة.

بعد الانتهاء من مكالمتي المبعثرة مع أمي، دخلت أم محمد مطبخ الدور الثاني كعادتها في الصباح، أعدت الشاي والقهوة، نادت مجدولين وأمها، سألتني مجدولين عن ليليان، تظاهرت بأنني لم أسمع السؤال، أعادت السؤال مرة أخرى، أخبرتها أنها رجعت إلى حجرتها مع محاسن؛ لنشوب مشكلة بيني وبينها، نزلت دمعة من عينها:

- يا دكتور ... غدًا حفل زواجي، مايكل غدًا لازم يشوف ليليان ... لازم ... لازم تكون معنا.
- يا مجدولين سأعمل المستحيل.
- ما رأيك إذا ذهبت إليها مع أمي لنتكلم معها؟
- فكره جيدة،

يرن جرس التليفون:

- أهلاً
- أهلا محاسن.
- أنا في مستشفى الأمل من أمس، ليليان فاقدة الوعي تماما، هي في الإنعاش.
- لا إله إلا الله ... أنا السبب ... أنا السبب يا محاسن ... حالا أكون عندكم، ماذا حدث خبريني يا محاسن؟!
- حضرت ليليان مع صني أمس بالليل، قالت لي إنها زعلانه بدون أي تفاصيل، دخلت حجرتها، صحوت الصباح، وجدتها على الأرض في مدخل الحمام... اكتشفت أنها شربت زجاجة مطهر كاملة، انتحار واضح لكن الله ستر... والله عين سحر يا دكتور، لم أتوقع أنها تكون متهورة بهذه الطريقة.

- لا حول ولا قوة إلا بالله ... مسافة الطريق يا محاسن.

لم أكلم أم محمد ولا مجدولين، لبســـت في دقائق، خرجت مســرعا إلى باب الفيلة، طلبت من الحارس إحضــار تاكســي، انطلقت إلى مستشفى الأمل، أمام حجرة الإنعاش وجدت محاسن تنتظرني، قالت:

- المستشفى سجل الحالة شروعًا في الانتحار ،قضية جنائية،

لم يســمح لي بالدخول لرؤيتها إلا بعد إنهاء تحريات الشــرطة، اتصلت بأستاذ بكري؛ لمشورته، حضر بنفسه، تولى الأخذ والرد مع الضـابطة المتحرية من نسـاء الشـرطة، تم الكشف الكامل على ليليان بعد غســيل المعدة، تسـلمت محاســن تقرير الطبيبة، لكنها ترددت أن تطلعني عليه، سلمته للأستاذ بكري، انتحى بكري بي جانبا في حجرة استقبال المستشفى، وكان مضطربا للغاية:

- الموضـــوع جنائي، كبير جدا، لابد إخطار أ هل ليليان في السودان بما حدث، وبما أنك الشخص المعني بصورة مباشرة في تقرير الأطباء، فلا بد من معالجة التقرير وتغييره لدرء الإحراج أمام أهل ليليان.

- لا أفهم ما تقصد.

عرض على التقرير، قرأت بذهول جملة فيه ، وقعت الأوراق من يدي.

- قضية جنائية ... الشروع في الانتحار ... تعرضت المريضة ليليان لاغتصاب وحشي يجب البحث عن الجاني محاكمته ،محاكمة المريضة ليليان بعد تماثلها للشفاء.

لم يستجوبني بكري كعادته، وضعني أمام الأمر الواقع، بكل خجل اعترفت له بكل شــيء، وعدني بفعل المســتحيل؛ لتغطية الفضــيحة، علما بأن النيابة ستأخذ ليليان إلى الحبس بعد شفائها.

انتظرنا حتى أفاقت ليليان، سمح لمحاسن برؤيتها، خرجت محاسن ثم سمح بدخول الأستاذ بكري، ظللت منتظرا، أخبرتني محاسن.

- ليليان بكت، سألت عنك.
- هل يمكنني الدخول؛ لرؤيتها؟!!
- متأسفة يا دكتور خالد... قالت لي سلمي على خالد، لكن لا أريد رؤيته، والله لقد أصابتكم العين.
- مصيبة ... ماذا أفعل!؟!

خرج بكري من حجرة العناية المركزة:

- الخروج من ورطة النيابة في موضوع الاغتصاب يحتم إصدار شهادة مغايرة بأسرع فرصة، أما موضوع الانتحار يجب أن تعترف ليليان بأنها شربت ما كانت تعتقد أنه دواء يساعدها في الالتهابات التي أصابتها؛ لذلك لابد من الاتصال بالدكتورة صني حالا ؛ لمعالجة التقرير.

سألت بكري:

- هل يمكنني رؤيتها؟!!
- ممكن أن تدخل معي ... لقد أقنعتها بخطورة الوضع إذا لم تكن معنا في الصورة، عرفت منها أنها هي جزء من السبب فيما حدث، تأسفت.

اتصلت فورا بجستن ،أفهمته الموضوع، وعدني بالحضور بأسرع ما يمكن مع صني، وصل السائق ومعه مجدولين وأمها، قبل دخولي مع بكري أسرعت مجدولين ، دفعت الباب، دخلت وهي تبكي، دخلت مع بكري، انتظرت خلف الستارة، أسمع بكاء ليليان وعويل مجدولين وهي تردد:

- حبيبتي ماذا حدث؟! أريدك يا حبيبتي في فرحي غدا ومايكل معنا يا ليليان، أنا أحبك يا ليليان، أحب بابا خالد، ماذا حدث يا حبيبتي.

لم أتمالك أعصابي، انضممت بدموعي إليهم، أمسكت يد ليليان، ملت نحوها ،قبلتها على جبينها قبلة خفيفة، وهي تحتضن يدي على صدرها:

- سامحني يا خالد.

- سامحيني أولا، فأنا الغلطان.

وصلت دكتورة صني إلى حجرة العناية المركزة، معها أوراقها التي تثبت أنها الطبيبة الشخصية لليليان، طلبت التقرير الطبي بعد إظهار بطاقتها الشخصية كدكتورة مسجلة، ابتعدت عن سرير ليليان، تركت المجال لصني للتفاهم معها ،خرجت من الحجرة مع بكري، أوضح بكري لوكيلة النيابة:

- أن الموضوع ليس كما يقول تقرير المستشفى «انتحارا وتحرش جنسي»، أمامك زوجها دكتور خالد، إنما خطأ في خلط الأدوية تشهد عليه الدكتورة صني دكتورتها الخاصة.

تطلعت وكيلة النيابة نحوي بشيء من التعجب والإعجاب، وقعت على تقرير الدكتورة صني، انصرفت مبتسمةً، تمت التسوية مع المستشفى، الإسعاف في مجملها، دفعها بكري، خرجنا جميعنا من المستشفى ،معنا ليليان إلى منزل محاسن، تركتني المجموعة مع محاسن وليليان في سيارتي، توجه الجميع إلى منزل محاسن، عند الباب أخذت ليليان ممسكا بذراعها، حتى حجرتها، وهي تمشي بتعسر:

- الحلم الجميل انقلب إلى كابوس يا خالد ... فضيحة وأنا السبب ... لكن لا أزال أحبك وأيضا زعلانة منك ... وما كنت أعرف أني فظيعة بهذه الطريقة ... النتيجة فضيحه، كنا حلوين ومستورين، الآن كلهم يعرفون قصتنا.

- ليليان أرجوك الذي حدث حدث ،لا يمكن إرجاعه ... الدنيا فيها دروس مستمرة، من كان يتنبأ بالذي حدث؟!

بعد دخولي مع ليليان إلى حجرتها جلســـت في حجري، قبلتني بشوق، لفت يديها حول رقبتي:

- كنت على وشــك الموت يا خالد ... ماذا كان ســيحدث لك بعدي؟!

- كنت سـأحصـلك في نفس اليوم ... لا أصـدق يا ليليان... لو كنت أعرف أنك هكذا، لما أخليت سبيلك من الفيلة.

- حبيبي خلّود أنا خجلانة من نفســـي ... فضـــحت نفســـي، فضحتك ،عذبت الناس كلهم.

وصـــلت مجدولين وأمها وجســـتن ودكتوره صـــني إلى بيت محاسن، أما بكري فلم يسمح له الوقت لمواعيد مسبقة في المحكمة، جلسـنا جميعنا في الصـالون، قدمت محاسـن البارد والشـاي، تفادى الجميع الحديث فيما حدث، ما عدا صني قالت لليليان:

- لماذا يا ليليان؟! ينتظرك الكثير في هذه الدنيا، خذي بالك من نفسـك ومن خالد، رجل قلبه كبير فلا تغضـبي منه، عليك أن تفهمي يا ليليان، أن هذه الدنيا لعب ولهو.

مجدولين وأمها لا يعرفان حتى تلك اللحظة ما حدث، تمسكت مجدولين ،أصــرت ألا ترجع إلى الفيلا إلا إذا كانت معها ليليان، جلست بيني وبينها تحتضننا سويا باستمرار، قالت للجميع ،بنبرة باكية:

- أبي خـالـد أعد لي حفلـة فرحي، كلكم أريـدكم معي ،كلكم ســـاعدتموني في خلق حياة كريمة، هذه أمي ،أختي ليليان، غدا مايكل وأصحابه معنا، شرفوني؛ لأنكم أنتم أهلي الوحيدون.

ثم أجهشت بالبكاء.

دمعت ليليان، حضـــنت مجدولين، توجهت إلى حجرتها، لحقت بها بعد عشـــر دقائق ،وجدتها أعدت حقيبتين من أغراضـــها، عانقتني، همست:

- هل ترضـــي بي بعد كل ما فعلت يا خالد ... الله يعلم كيف حبي لك.

- ليليان حبيبتي والله ... بعد خروجك من الفيلة قررت أن أودع الحياة، الشـــيء الوحيد الذي أبقاني حتى الصـــبح هو أمي، كنت منتظرا؛ لأسمع صوتها ،أودعها الوداع الأخير، بعد محادثة أمي مباشرة وصلني خبرك من محاسن هذه المرأة العظيمة.

- لا يزال زعلي معي ... أخجل مما فعلته، لكن راجعه معك الى الفيلا ... كما قلت يا حبيبي ما حدث لا يمكن إرجاعه، لكن ممكن استيعاب دروسه، الحياة مدرسة أبدية.

- هيا بنا ... أرجعي لي روحي التى رحلت عني، فكم لنا من أعمال خير تنتظرنا، لا يمكنني إنجازها إلا معك، يا حبيبة قلبي، متأسف جدا لما بدر مني، فعلا سؤالي لم يكن في مكانه.

(٢٤)

خرجت من حجرة ليليان أحمل الحقائب كسجين تم الإفراج عنه، وقف الجميع ، هللوا بالفرحة ،اتجهوا إلى السيارات، قررت محاسن مرافقتنا، جلســـت في المقعد الأمامي بجانب السـائق، احتضـنت مجدولين ليليان من جانب وأنا بالجانب الآخر، حمل السـائق الحقائب إلى السـيارة، وصـلنا إلى الفيلة، أم محمد أعدت أشـهي المأكولات، دخلت ليليان إلى حجرتها ،معها محاســـن ومجدولين، رتبن الملابس بالخزانة، انضـمت إليهن أم محمد، أخذت ليليان إلى الحمام حيث أعدت لها الجكوزي، تركتها؛ لترويح جسـدها المتعب من عناء الليلة الماضــية، قامت محاســـن بإطلاق بخور في كل المكان، نزلت إلى الحديقة، جمعت باقة ورود حمراء رائعة ، أحضــرتها إلى حجرة ليليان، ســألت عنها ،أخبرتني محاسـن أنها تستحم في الجكوزي، شـجعتني على الدخول عليها ؛ لإهدائها باقة الورد، لكن ترددت تخوفا أن تنفجر ليليان في وجهي كليلة أمس.

بعد إصرار محاسن دخلت على ليليان في يدي باقة الزهور، كانت عارية تماما نصفها داخل الجكوزي، مدت يدها اليمنى؛ لتتناول الزهور واليسرى غطت بها صدرها العاري، قبلتها قبلة حميمية قبل أن تحجب باقة الورد وجهها المتورد عني، جلست على يمينها على حافة الجكوزي ،أخذت الورود منها، بعد أن استنشقت بنفس طويل رائحتها التي طغت على رائحة البخور، وضعت الباقة في زهرية الكريستال التي تتوسط زجاج الحمام العازل، ظللت صامتا حذرا في كل خطوة أقوم بها مع ليليان، اخترقت ليليان الصمت:

- أريد أن أكلم أمي يا خالد ... لي فترة لم أكلمها.

- حسنا سأحضر التليفون لك هنا ... أنا أيضا أريد مكالمة أمي بعدك.

- حبيبي خالد ... لماذا أنت حذر بهذه الصورة؟! ... حبيبي لنرجع كما كنا ... إذا موافق، اطلب من بكري إذا أمكن، أن يعد لنا شهادة زواج مدني، لا أريد الانتظار أكثر من ذلك يا خالد.

- موافق ... ولو أن موافقة الأهل مهمة، لكن لا تهم كثيرا.

- إذًا في حفل مايكل ومجدولين، يستحسن إعلان زواجنا.

- لا مانع، لكن من الأحسن أن نحتفل به مع محاسن وبكري بحضور دكتور قاسم وكرستين.

- حسنا سأكلم أمي بعد الغداء.

اجتمعنا كلنا حول المائدة التي أحسنت أم محمد تنويعها بما يناسب الجميع، التف الجميع حول ليليان التي خرجت من حجرتها كالعروس البكر ليلة زفافها، تلبس فستانًا شفافًا وردي اللون وضعت وردة حمراء على الجانب الأيمن من شعرها، تحمل في يدها باقة الورد التي تقربت بها، قربانا لعودة حياتنا من جديد، تفاديت الجلوس بجانبها لأتركها تفضفض عما في صدرها من آلام بعد أن أصبحت قصتنا حديث الجميع، بعد العشاء، انصرف الأصدقاء حتى أم محمد ذهبت؛ لتستريح في حجرة الخدم ،مجدولين وأمها انصرفتا إلى حجرتهما في الطابق الثالث.

وجدت نفسي وحيدا مع ليليان في المطبخ، أخذتها بلطف وحنية إلى حجرة النوم، ذكرتها بالاتصال بوالدتها، استأذنت بعد أن ضممتها إلى صدري بحميمية حذرة، ذهبت إلى حجرة مكتبي الكبيرة في الطابق الأرضي، التي صممتها قبل يومين ،وضعت فيها جهاز الفاكس والتليفونات، اتصلت بالأستاذ بكري:

- تحياتي أستاذ بكري، سأرسل لك شيگًا؛ لتسوية حسابات مستشفى الأمل.

- حسنا لا داعي للاستعجال.

- أريد أن أعرف إمكانية إصدار شهادة زواج لي وليليان.

- لا توجد صعوبة لكن لابد من شهادة من السودان توضح أن ليليان غير متزوجة، وإذا كانت مطلقة يجب الحصول على شهادة الطلاق، أما بالنسبة لي شخصيا، لا أحتاج إلا الجواز هذا من ناحية المحكمة الشرعية، لكن إذا أردنا شهادة مدنية فلا توجد أي عقبات من هذا النوع.

- سأرد عليك بعد التشاور مع ليليان.

رجعت إلى ليليان، وجدتها لاتزال تتكلم، قدمت لي السماعة قالت هذه مريم الصومالية تريد التحدث إليك:

- أهلا مريم، شكرا على المساعدة.

- يا دكتور خالد والدي اتصل من مدينة هرجيسة، يريد معرفة المزيد عن محمد، يقول إنه سوداني لكن لهجته خليجية.

- يا مريم وضحي ما حدث؟!

- محمد يريد الزواج من أختي الصغيرة حليمة، وهي أيضا تعلقت به بشدة.

- حسنا، مبروك عليهما.

- نعم، لكن أبي يريد معرفة محمد أكثر.

- حسنا يا مريم، أنت وصديقك مدعوان غدًا عندنا، سأوضح لك كل شيء، اكتبي عندك العنوان.

- تمام ... سنكون عندكم غدا ،شكرا.

- مع السلامة.

وضعت السماعة، جلست بجانب ليليان على السرير، شعرت أنها متوترة، لكن لم أتدخل:

- شرحت لأمي كل شيء، قالت أبي سيحضر إلى بيروت الأسبوع القادم.

- غريبه ... أنا أيضا أمي وعمي سيحضران الأسبوع القادم.

- ماذا نعمل يا خالد؟!

- بصراحة علينا وضع خطة استراتيجية جديدة؛ لإقناع الأهل بزواجنا.

- المهم أمامنا أسبوع.

(٢٥)

نزلت مع ليليان إلى الدور الأرضي؛ لترى مكتبي الجديد، أعجبت به ليليان، طلبت بعض التغييرات الطفيفة في وضع الكراسي، مالت بجسدها على الأريكة الجلدية بعد تغيير وضعها، اتصلت بالمركز الثقافي الأمريكي، أخبرت الضابط كاسبر، دعوته إلى مناسبة فرح مايكل ومجدولين مساء الغد، دعوت معه بقية أصدقاء مايكل والمترجمين، تركت له العنوان ،أرسلت خريطة المكان بواسطة الفاكس.

صعدت مع ليليان إلى السطح ،جلسنا في مكاننا المعتاد على طرف حوض السباحة، السيدة مسيلة والدة مجدولين كانت مع السائق في السوق؛ لشراء ملابس لها ولمجدولين تليق بالمناسبة، أم محمد جهزت العشاء أمامنا في السطح، نادت مجدولين، في نفس اللحظة رجعت أم مجدولين من التسوق ،استعرضت علينا ما أحضرته لنفسها ولابنتها من الملابس الفاخرة.

اتصـــلت ببكري، طلبت منه إذا أمكنه الحضـــور مع محاســـن للعشاء معنا.

في أثناء العشـــاء جلســـت بجانب بكري وعلي يميني ليليان، استفسرنا عن إمكانية استخراج شهادة زواج مدني، اتفقنا أن نتقابل بمقر المجلس البلدي ،معنا جوازات السفر، وصية بكري بالنسبة لي هي استعمال الجواز الأمريكي لأسباب عدة منها عدم خضوعي لأي تساؤل عن ديانتي؛ لأن الجواز الأمريكي لا يبين هوية الديانة كما أنه يمهد لليليان الحصـــول على الهوية الأمريكية مســـتقبلا، تشـــاورت مع بكري في موضـــوع محمد الســـائق، التفاهم مع مريم غدا حول المشـاكل التي يمكن أن تقف حجر عثرة في زواجه بأخت مريم في الصومال.

عندما انفضَّ الجميع، انصـــرفت مجدولين إلى حجرتها مع أمها دخلت أم محمد إلى حجرة ليليان ،نظمتها، غيرت الفرش، وضـعت باقة كبيرة من الزهور، كما فعلت الشـــيء نفســـه في الحجرة المجاورة، ظللت على طرف حوض السباحة مع ليليان وهي تتوسد ذراعي الأيمن ويدي اليسرى تتحسس شعرها الأشقر المنساب على كتفيها كقطة أوت إلى صـــاحبها تبحث عن الدفء والراحة، فتحت ليليان أزرار قميصـــي وهي تمشـط بأناملها الدقيقة شـعر صـدري، تبعث في مداخلي نشـــوة الحب والســـكينة، كأنها تعتذر لي بدون كلمات.

النجوم تتلألأ منعكسة على ماء حوض السباحة، تختلط ببعضها كلما هبت نســـمة من البحر لتحرك الماء الســـاكن، رائحة اللافندر والنرجس والورود المتنوعة المنبعثة من حديقتي ومن حديقة جاري بكري، تنعش المكان، توحي بأقاصيص ألف ليلة وليلة، أقاصيص حريم الســـلطان في عهود العبودية في ألبانيا وتركيا العثمانية، مخيلتي أطلقت لنفســـها العنان، لكن لا أزال حذرا في أي خطوة أخطوها مع ليليان، بعد الذي حدث وما ترتب عليه من أحداث مدوية في محيط معارفنا المحدود

همست إلىَّ ليليان:

- هيا يا حبيبي أنا أشعر بالتعب .
- ألف سلامة هيا بنا .

نهضت من مكاني حاملا بكلتا يديَّ ليليان، نزلت بها إلى حجرتها، وضعتها على السرير بكل عناية، قامت من السرير، دخلت إلى حجرة الملابس الملحقة، غيرت ملابسها، ارتدت قميص نوم شفافًا ورديًا فاتحًا، توجهت إلى الحمام، توجهت إلى حجرتي، لبست منامة حريرية بيضاء، بينما أنا منشغل بغسيل وجهي وأسناني في الحمام، أحس بذراعي ليليان تحيطان خصري ،تهمس:

- تعال يا خالد ... لا تتركني وحدي يا حبيبي
- سأكون معك حالا.
- أنا انتظرك حبيبي.

كنت مرعوبا من نفسي، تكرار الماضي، لكن دخلت حجرة ليليان وقد أطفأت الأنوار إلا بصيصا يعكس أنوار الحديقة من خلف الستائر الشفافة مكنني من الوصول إلى سريرها، دخلت تحت اللحاف، احتضنت جسدها، الذي يفصلني عنه قميص نومها الشفاف ومنامتي، احتضنتها ،سيطرت على شهوتي، حتى نامت كالطفل تتوسد يدي اليسرى، وبعد ذلك أمتعني النوم وحبيبتي ليليان إلى جانبي.

في الصباح ،حسب الموعد مع بكري، لبسنا أفخر الثياب، معنا دبل غالية الثمن أحضرناها منذ بداية تعارفنا، أمام القاضي المدني والمحامي بكري، أصبحت زوجا رسميا لليليان، باستخراج شهادة من المجلس البلدي، وثيقة الزواج التي حصلنا عليها بالطبع دعمت شرعية وجود ليليان معي في الفيلة، إشعار احتماعي محترم بين معارفنا في لبنان، أما موضوع اعتراف أبي أو أبوها فلايزال عقبة علينا اجتيازها، على أي حال كان كلانا في أشد الفرح.

في طريقنا ذهبنا إلى الشقة، جمعنا بعض الأغراض التي نحتاجها، عند اقترابنا من الفيلا، لفت السائق نظري إلى وجود سيارات جيب عسكرية مرابضة حول الفيلة من جميع الاتجاهات، بها جنود يستعملون هواتف لا سلكية، تخوفت ليليان ،طلبت الرجوع إلى الشقة لكن طمأنتها أن وجود الجنود الأمريكان مرتبط بزيارة مايكل وأصدقائه لفيلتنا مساء اليوم، مما يحتم عليهم حراسة مشددة، تفهمت الموضوع، دخلنا الفيلة التي قام متعهدون بتهيئتها بالأنوار والزينة، دخلت ليليان على مجدولين في الطابق الثالث، بدأت تهيئتها مع أمها بملابس الزفاف التي أحضرتها لها.

راجعت الرسائل الصوتية بمكتبي، وجدت رسالة من والدي طويلة صدمتني لأبعد الحدود، لم أستغرب من الرسالة، هذا هو المتوقع من أبي الله يسامحه، عنصرية وجهل وإصرار في الفارغ، لم تغير رسالة أبي أي جديد أو قديم في تفكيري، لو واجهته بالمسكوت عنه في يوم من الأيام، لما أرسل هذه الرسالة، والدي يدور حول حلقة مفرغة يفرضها علي؛ لتصفية مرارات قديمة، هل نسي أبي أمه جدتي المناضلة ملك اليمين مستورة؟! يا له من عالم لا نطيق فيه بعضنا البعض، عالم مليء بمرارات ،أحقاد ،أخطاء الماضي، عالم زادته التقاليد والجهوية.

دخلت ليليان إلى مكتبي، جلست على الأريكة الجلدية وهي مرتاحة البال، فرحة بهذا اليوم الذي يتوج علاقتنا، يتوج قصة مجدولين الطويلة، التي ساهمت شخصيا في نهايتها السعيدة بتعليم مجدولين ورعايتها إلى هذا اليوم المفرح، مددت ليليان جسمها بأكمله على الأريكة:

- حبيبي خلود تعال إلى جنبي ... نحن حلال على بعض.
- أكيد حبيبتي دعيني أكمل هذه المذكرة حالا.
- مالك مضطرب وغاضب يا خالد ؟!
- غاضب على أبي، أرسل إلي رسالة مخجلة.
- يا سيدي ماذا تتوقع منه... اترك الغضب جانبا يا خالد، اليوم يومنا.

جلست على حافة الأريكة، أحطت بذراعي الأيسر جسد ليليان، رفعتها، أجلستها على حجري ،دون تخوف أو تردد، قبلتها قبلة طويلة كتمت أنفاسها وهي متعلقة بكلتا ذراعيها بعنقي، صعدت إلى الدور الثاني وليليان بين ذراعي كالطفل الرضيع، وضعتها على السرير:

- الباقي ساعتين لحين حضور الضيوف ... ما رأيك في ...؟
- نفس ما أفكر فيه ... ألسنا متزوجين؟!
- أتمنى أن تكون الالتهابات قد انتهت.
- انتهت الحمد لله ... المرة الأولى معك كنت كما البكر، بعد أربع سنين من الطلاق أول مرة أعرف الجنس منك ... أنا جاهزة يا حبيبي.
- وأنا أيضا يا حبيبتي.

بجراءة كاملة بنيت بليليان ساعة من المتعة التي لم أمارس مثلها في حياتي العامرة بالحسان، تصرخ، تتأوه، تضحك، تبكي، تقبل، تتقلب تتلوي في إقبال وإدبار كرّ وفرَّ ،لم نتوقف إلا بدخول الحمام دقائق والرجوع إلى السرير، خرجت من الحمام آخر مرة:

- خالد ... هذا يكفي يا روحي، دعني أحضر نفسي لمقابلة الضيوف، أنت عليك لبس البدلة التي اخترتها لك قبل أسبوع.
- حسنا ... هيا بنا نلبس.

بينما أنا منشغل بلبسي، اتصل بي الحارس بأن هنالك مجموعة من الأجانب تحمل معدات موسيقية تريد دخول الفيلة، عرفت أنها الفرقة الموسيقية من المركز الأمريكي، حضرت إلي فرح مايكل، خرجت؛ لاستقبالهم، توجهت بهم إلى حوض السباحة، حيث أعدت الزينة والمأكولات، قامت أم محمد بإكرامهم لحين وصول الضيوف.

وصلت محاسن، أطلقت زغرودة طويلة في قلب الفيلة، وهي تردد مبروك علي ليليان ،على مجدولين ،علي خالد ،علي مايكل، خرجت ليليان ومجدولين؛ لإستقبالها، كانتا في لبس الزفاف كحوريتين على أعتاب الفردوس الأعلى، حتى الحمل لم يظهر على مجدولين بجسمها المتماسك وقوامها البض الشاب، ليليان بجمالها وأناقة ملبسها وحليها كانت كخيال هبط على أرض الحقيقة دون استئذان.

(٢٦)

في منتصف الممشى بين البوابة ومدخل الفيلا، وقفت ،عن يميني ليليان ،عن شمالي مجدولين في انتظار مايكل، خلفي جستن وصني ومحاسن ووالدة مجدولين ومريم الصومالية وصديقها، دخلت سيارة جيب خاصة، ترجل منها مايكل يلبس بدلة بيضاء، يحمل باقة كبيرة من الزهور، معه المستر كاسبر وضابطة أمريكية بيضاء من سلاح الصواريخ الموجهة، أفلتت مجدولين من يدي، جرت ،ارتمت على مايكل، احتضنها ،رفعها بذراعيه، توجه بها إلى مدخل الفيلة، تبعه الضيوف الأمريكان زنوج وبيض رجال ونساء، زملائي المترجمون، مستر كاسبر منشغل بهاتفه اللاسلكي، بدأت فرقة الجاز تعزف السلام الأمريكي، تسمر كل أمريكي في مكانه وهو يحيي بالطريقة العسكرية حتى انتهى العزف.

زغردت أم مجدولين وسط إعجاب الضيوف، بدأت موسيقى الجاز الراقصة، وقفت خلف البار الملحق حوض السباحة، الضابطة الأمريكية التي كانت مع مايكل في سيارة الجيب، إنهال عليها الضيوف وهي توزع الشامبانيا والبيرة والويسكي والكونياك، دكتوره صني الحبشية فتنت الجميع برقصها المتواصل، وصل بكري متأخراً؛ لانشغاله كالعادة إلى ساعات متأخرة من الليل، يتابع القضايا التي يعج بها مكتبه، جلس بجانب محاسن ثم استجاب لطلبها في الرقص، عرفته بمريم الصومالية وصديقها، طلبت مريم الحديث معي على انفراد بما يخص محمد خميس، انتحينا جانبا في السطح بعيدا عن صخب الموسيقى وضجيج الضيوف، طلبت منها أن تسمح للاستاذ بكري بصفته القانونية أن نشركه في النقاش، لم تمانع نزلنا سويا إلى مكتبي في الطابق الأول، تبادلنا المعلومات، بادرت مريم:

مع احترامي للسـودانيين، ونحن أهل، لكن القبلية في الصـومال لا تزال الحكم العدل بين الصوماليين، والدي كرئيس للقضاء الشرعي في الصـومال لا يجد طريقة تمكنه من معرفة أصل محمد السـائق، حتى يقر نكاح أختي الصغيرة به، أختي مقتنعة بالزواج من محمد، نحن أصـلا من شـمال الصـومال أصـولنا يمنية في غاية التأخر والعصـبية العرقية، ابن عمي يريد زواج أختي، لكن ظهور محمد عقد الأمور، تكلمت مع أمي اليوم وجدتها مقتنعة بزواج محمد كما اقتنعت بزواجي من الأمريكي الذي تعرفونه، أنا مع أختي، يجب أن تترك لها حرية اختيار زوجها.

من كلام مريم اتضحت العنصرية العرقية الموروثة أيضا في بلد كالصـومال، فكنت واضـحا معها في توضـيح محمد السـائق، رأيت تحررها الواضـح وهي خارج بلادها، وارتباطها بأمريكاني أبيض روبرت بترسن، فيمكنني تجنيدها فكريا؛ ليتم زواج محمد:

- يجب علينا يا مريم أن نحارب العنصـرية بجميع أنواعها، أوضحت لك أن محمد من الأرقاء، ورثه سيده كتركة من أموال والده، والد محمد أيضـا رقيق مملوك حتى مماته، أنا أيضـا الدكتور خالد بهيبته أمامك، جدتي كانت من الرقيق فهل من المقبول أن نظل أرقاء؟!

تدخل أسـتاذ بكري بما له من تجارب ومعرفه من النواحي القانونية: قانونيا لا يوجد أرقاء في العالم قاطبة، لكن بكل أسف لايزال العالم العربي والإسـلامي يصـر على إبقاء الرق يجد له التبريرات الدينية من بعض أمهات كتب التفاسـير، محمد يمكنه أن يتزوج من أمريكا أو أي بلد غير عربي بدون أي مشـكلة، إذا كان الزواج بالمال فلمحمد من المال ما يمكنه أن يتزوج ملكة جمال العالم، علينا أولا يا مريم تحرير محمد من الدونية التي عاشـها طيلة عمره في بلده، عمليا سـيتم تحرير محمد تماما بعد وصـوله إلى بيروت ثم نقله إلى بلد غير عربي، بحمد الله له من المال ما يساعد في كل ذلك، فإذا كانت شقيقتك راضية بمحمد يا مريم فسنحضرها هنا، مستقبلا سترافقك في رحلتك إلى أمريكا فما رأيك؟!

- أنا معكم، سأعمل بكل ما أملك من المنطق أمام أبي، حتى إذا اضطررت للسفر وحدي، أو مع خطيبي روبرت بترسن.

فقلت بعد سماع ما قالته مريم:

- سنحضر لك تذاكر السفر والعودة، إذا رأيت مرافقة صديقك أيضا نجهز له تذاكر السفر، على أي حال سأتصل بمحمد في فندق مدينة هرجيسة بالصومال ،نعرف منه آخر الأخبار.

- فكرة جميلة، وأنا على أتم استعداد للسفر.

بعد اتضاح قصة محمد خميس السائق، لمريم، نهضت:

- هيا بنا، لمواصلة الحفل، أوفيكم بأخبار محمد في صباح الغد.

الموسيقي والهرج يسيطران على السطح، وجدت ليليان ترقص مع مايكل ،مجدولين ترقص مع كاسبر ،أم مجدولين مع أحد الجنود السود، الجميع في فرح ما بعده فرح، بكري يرقص مع محاسن، استمر الحفل إلى الساعة الثانية صباحا، عندما أعلن كاسبر انصراف الجميع لكنه سمح لمايكل بقضاء الليلة معنا في الفيلة، أمر جنود الحرس بمواصلة وجودهم حول الفيلة، للحراسة لحين توصيل مايكل ومجدولين إلى مطار بيروت غدا الساعة الواحدة ظهرا،

حضرت أم محمد غرفة ملاصقة لغرفتها للسيدة مسيلة، أما أنا فجلست مع ليليان على حافة المسبح نناقش مستقبلنا شبه المعلق على رقبة أبيها وأبي، بعد الاطمئنان على راحة ونوم الجميع دخلنا حجرة النوم ،لم نفق إلا على حركة أم محمد وأم مجدولين في المطبخ ، كان الإفطار الأخير لمجدولين في وطنها لبنان، هي تتجه لوطنها الجديد أميركا مع زوجها مايكل.

في الساعة الثانية عشرة، حضر السائق ،معه الحارس؛ لأخذ حقائب مجدولين، حضرت عربة جيب من المركز الأمريكي، بها أغراض مايكل، توجهنا جميعنا إلى مطار بيروت ، ودعنا مايكل ومجدولين وهي تبكي ،تحتضن أمها الباكية طيلة الطريق، فرحة النجاة لمجدولين وألم فراقها، سيطرتا على ليليان ،نزلت دموعها في صمت ونحن نتجه إلى سيارتنا، كان مشهدا مهيبا ،انتصارا شامخا لمجهودي الذي بذلته دون مقابل، مجهود ليليان الصادق في مساعدة مجدولين.

(٢٧)

في طريق العودة من المطار، قررت ليليان المرور على حجرتها بشقة محاسن؛ لمراجعة بريدها، جلست وحدي في حجرة الاستقبال، طالت مدة انتظاري، لكن أمهلتها حتى خرجت من حجرتها في حالة توتر وغضب:

- هيا بنا يا خالد ... الظاهر أن أبي أصابه جنون ... ترك لي رسالة مؤلمة .

- ماذا حدث يا ليليان ... أخبريني.

- لا لزوم يا خالد.

- كيف يا ليلبان ... ما يخصك يخصني ... نسيت أننا متزوجان؟!

- نعم ... لكن ما توقعت أبي بهذا الشكل ... صراحة أخجلني كلامه.

- مهما كان كلامه، لابد من الوضوح مع بعض.

- يا ليليان رسالة أبي كانت أيضا مخجلة، أحضري الشريط معك لنسمع الرسالتين في الفيلة؛ لنقرر ماذا نعمل.

- علينا أن نمارس الجدل والمنطق مع أهلنا ؛ لنقنعهم.

عند وصولنا الفيلة، دخلنا مكتبي طأطأت رأسي خجلا، أدرت الجهاز لتستمع ليليان رسالة والدي المسجلة:

- صـــباح الخير ... يا خالد يا ابني أنت تتهرب مني في موضوع زواجك ،تريد استشارة أمك قبل استشارتي، كلام غير مقبول ... عرفنا أهل البنت التي تريد أن تتزوجها، هي بنت الشاهر تاجر الأقمشة الشامي المعروف في شارع الجمهورية، يا ابني، نحن لا نتزوج من الحلب «الغجر»، أتريد أن تدخل علينا حلبية في البيت!؟! ماذا يقول الناس عنا ؟! أين نخفي وجوهنا؟! لعلمك أي بنت بلد أحسن منها بمليون مرة، يا ابني فكر، لا تتركنا نندم على التعب في تربيتك، إذا بنت خالك لا تريدها، هنا ألف بنت بلد تتمناك، لماذا تتزوج حلبيه؟! ننتظرك في العيد ،أمك عندها مرشحات لا حصر لهن، يا خالد احترم مكانة أبيك، ماذا يقول الناس عني؟! ابن وكيل وزارة الداخلية تزوج حلبية؟! يا ابني عندنا الزواج في السودان، زواج العائلة قبل البنت، من هي ومن أي عائلة ومن أي قبيلة؟! لو تفهم الأصول يا دكتور، مع السلامة.

بعد الاستماع، ضحكت ليليان، ثم بكت فجأة، ارتمت في حضني:

- ينتظرنا الكثير؛ لإصلاحه في مجتمعنا المسلم يا خالد، لا أعتقد أي نظرية فلسفية يمكنها تغيير مجتمعنا ... كنت أعتقد الماركسية كفيلة بتغيير مجتمعاتنا، لكن لا اعتقد الآن يا خالد.

- من رسالة أبي، الملحوظ قمة التناقض والعقلية العنصرية المريضة، لابد من وجود علاج ... أول خطوة هي إصرارنا كشباب على تفكيرنا ورفض لي الأيادي من العائلة.

- هذا بالنسبة لك كرجل في مجتمع ذكوري لا يحترم المرأة مهما كانت، زوجة ،أم أخت ،خطيبة ، عشيقة.

- دعينا نستمع، ماذا قال أبوك ثم ندرس خطتنا.

وضعت ليليان الشريط، استمعنا لما قاله والدها:

- اتصلت بك عدة مرات لم أجدك في البيت، هل أفهم بعد تركك لداخلية الراهبات أصبحت مارقة علي حل شعرك؟! خالك الشيوعي وصل الخبر لأمك، فهمت منها كل شيء، قبل إبداء رأيي، زوجك السابق عزيز أبو ولدك يوسف يريد إرجاعك من أجل ابنه، قصة الطلاق بالثلاثة ليست مشكلة، أنا استشرت شيخ الأمين عبدالرحمن، أخبرني عن الحلول، انتظر موافقتك ،لازم توقفي الدراسة حالا حتى نكلم عزيز في افغانستان، انس موضوع دكتور خالد الناير، ما عندنا بنات نزوجها لرقيق، نعم وكيل وزارة الداخلية إبراهيم أبوه راجل محترم ،ساعدنا كثيرًا في شغلنا ،سهل لنا فتح مكتب شندي المسجل باسمك، لكن ليس معنى ذلك أن يتجرأ ابنه ويتقدم لزواجك، مستحيل ... هل تعرفين من أين هؤلاء؟! هؤلاء أرقاء، علمهم الإنجليز ووضعوهم فوق رؤوس الناس، تريدين ان تصبحي مثل خالك الشيوعي أم ماذا؟! تتزوجين رقيقًا!! أ تعرفين معنى كلمة عبيد، اسمعي كلامي رجوعك لعزيز مؤكد، أريد ردك بأسرع فرصة، مع السلامة، سأكون عندك في بيروت الأسبوع القادم.

استمعت إلي الشريط، ليليان ممسكة بذراعي الأيمن، أنا مطأطئ الرأس، أنظر إلى الأرض تحت أرجلي، كلمات كانت كالسكاكين الحادة تقطع قلبي ومشاعري إربا إربا، تغتال شخصي وتثير داخلي فيروس العنصرية البغيض، وقع الكلمات أعاد إلي وجه جدتي عليها رحمة الله، عاشت معذبة مهزومة وضيعة أمام أسيادها، استمعت جدتي وجها لوجه لكلام أقبح مما قاله والد ليليان، لكن لو قال والد ليليان ما قاله في هذه الرسالة مباشرة أمامي، لبصقت على وجهه.

كان لابد لي من كسر الصمت، دموع ليليان منهمرة من الأسى والحزن والخجل حتى بللت كُم قميصي:

- سبحان الله ... لا فرق بين رأى أبي وراي أبيك، رأيان، ينسخان بعضهما ،هذا يضعنا الاثنين في كفتين متساويتين، كل ما ورد في الرسالتين محبط ،مخز ،مؤسف، لكن علينا الصمود يا ليليان ومواجهة المستحيل، خاصة نحن نحمل شهادة زواج الآن، الدفاع عنها واجب، حقا تألمت يا ليليان، لكن لا خيار غير الصمود معا إلى الأبد.

ظلت ليليان تدفن وجهها ورأسها وشعرها المبعثر في مساحات وسط صدري، عيونها الدامعة الزرقاء الناعسة الحزينة تعبر عن رفضها واستنكارها لما قاله أبوها، ليليان كانت ولاتزال تلهم مشاعري للصمود أمام أهوال المستقبل المجهول:

- متأسفة ... متأسفة ... متأسفة يا خالد لهذه الرسالة البشعة ... لكن لن أسمح كما قلت لك سابقا، لأي أحد، حتى أبي، أن يغتال شخصيتي، أيغتال شخصية من أحب ... أما أبو يوسف، فيستحيل رجوعي إليه، أفضل الموت عليه، فأنت عضدي وزوجي وحبيبي وأبي، الذي أعتمد عليه من الآن لحمايتي، لا شيء في هذه الدنيا يفرقنا عن بعض، لن أسافر إلى السودان بعد اليوم، لا يهمني بعدك يا حبيبي إلا ابني وأمي، وأنا وأنت جديران بأن نعالج قضيتنا، ما دمنا نعالج قضايا غيرنا من المظاليم في هذا العالم المتوحش، سأظل معك وسأتم دراستي بعزمي وعزمك.

أمسكت بيدها، قبلتها، صعدنا إلى السطح، جلسنا كالعادة على الطرف الأيمن من المسبح أروح عنها مرارة المشهد وألم الصدمة التي أصابتها وأصابتني، لا خيار أمامي إلا السير في الدرب الذي بدأته مع ليليان.

(٢٨)

فجأة ذكرتني ليليان بوعد مريم الصومالية والأستاذ بكري، بالاتصال مع محمد خميس بفندق هرجيسة، فبدلا من مناقشة مشكلتنا الماثلة أمامنا فضلنا شغل أنفسنا مؤقتا بقضية محمد، أحضرت التليفون، وضعته على الطاولة أمامنا، قمت بالاتصال المباشر بفندق هرجيسة:

- أهلاً

- معك فندق هرجيسة ... خدمة العملاء.

- ممكن أكلم محمد حجرة رقم ٢٢؟

- محمد نقل إلى المستشفى أمس في حالة خطيرة.

- لا حول ولا قوة إلا بالله ... هل يمكن معرفة الأسباب؟

- التفاصيل عند الشرطة ... كل ما نعرفه أنه وجد داخل حجرته وقد سددت إليه ثلاث طعنات، لكنه لم يفارق الحياة.

- هل يمكن الحصول على تليفون المستشفى؟

بعد الحصول على رقم تليفون المستشفى أخبرت ليليان بالتفاصيل، كان تعليقها:

- لا أصدق .

- مسكين محمد ... كالمستجير من الرمضاء بالنار، أكيد محاولة سرقة.

- المصائب لا تأتى فرادى.

- لا يوجد حل غير سفري؛ لإنقاذ هذا المسكين.

- كيف يا خالد، تتركني في هذه الفيلة الواسعة وحدي؟!

- ليليان أنت خياري الأول في كل الأحوال، والله مصيبة كبيرة ... أنا السبب.

- ما رأيك لو أرسلت مريم وصاحبها الأمريكاني، لكن إذا كان لابد من السفر بنفسك، فسأرافقك يا خالد.

- سأتصل بالمستشفى أولا؛ للاستفسار عن الحالة.

حاولت عدة مرات، لم أفلح، رجعت إلى الفندق مرة أخري، أعطوني رقمًا آخر، أيضا فشلت في الوصول، أخيرا اتصلت ليليان بمريم الصومالية، أبلغتها بالخبر ،قامت مريم بالاتصال بأختها في هرجيسة.

بعد أربع ساعات من الانتظار، عرفنا أخيرا أن من قام بمحاولة قتل محمد مجهول، عرفنا أن حليمة أصرت على الزواج من محمد، بالرغم من رفض والدها قاضي قضاة الصومال، المتمسك بحكم الشرع الإسلامي، بعد أن عرف أن محمدًا عبد مملوك ،لا يعتبره كفءً لابنته، إذ إن النص يقول:

- قوله صلى الله عليه وسلم -:«لا يزوج النساء إلا الأولياء، ولا يزوجن إلا من الأكفاء» وفي رواية: «لا تنكحوا النساء إلا من الأكفاء، ولا يزوجهن إلا الأولياء».

كانت ليليان تجيد البحث في المراجع الفقهية أكثر مني بحكم زواجها السابق بأحد الإسلاميين، يبدو أن رسالة أبيها المسجلة ،التي تكلم فيها عن رجوعها إلى زوجها الأول بعد الطلاق الثالث دفعها لإجراء بحث أطلعتني بما فيه من معلومات كنت أجهلها تماما:

المطلقة ثلاثاً، تُحرم على زوجها، حتى يطأها أي يجامعها ـ زوج غيره.

المعني المقصود، حتى تتزوج زوجاً، لا يمكن أن يكون زوجاً إلا إذا كان النكاح صحيحاً، حتى لو الزوج الثاني تزوجها بعقد صحيح ودخل عليها ،لكن لم يطأها، فإنها لا تحل للأول، دليل ذلك قصة امرأة رفاعة القرظي، فإن رفاعة زوجها، طلقها ثلاث تطليقات، تزوجت بعده بعبد الرحمن بن الزُّبير، لكنه ليس عنده قدرة على النكاح

جاءت تشتكي إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم:

- إن رفاعة طلقها وبتَّ طلاقها، أنها تزوجت عبد الرحمن بن الزَّبير، وليس معه إلا مثل هدبة الثوب أشارت بثوبها، فقال لها النبي صلّى الله عليه وسلّم: «أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا، حتى تذوقي عسيلته، ويذوق عسيلتكِ» يؤخذ من هذا أنه لا بد من الجماع، حتى يكون النكاح مراداً حقاً.

عندما قرأت لي ليليان ما جمعته من معلومات حول الطلاق بالثلاث، شعرت بإهانة للمرأة، في الوقت الذي كرم الإسلام المرأة كما يقال في كتب الفقهاء، لم نجلس حول حوض السباحة في ذلك اليوم، جلسنا في مكتبي نراجع المستندات، نبحث عن أفضل مخرج؛ لإرضاء والد ليليان ووالدي، وصلنا إلى أحسن الحلول حسب تقديراتنا وحساباتنا المبنية على الوضوح والمواجهة، في الساعة الثانية صباحا خلدنا للنوم.

في الصباح توجهنا سويا إلى الجامعة مع السائق، ليليان في كلية الطب أنا إلى مكتبي، في الساعة الواحدة ظهرا تقابلنا سويا في الكافتيريا، أشركنا معنا مريم الصومالية، لمعرفة المزيد من التفاصيل عن محمد، لم يكن لديها أكثر مما عرفناه، قررنا استشارة الأستاذ بكري وإطلاعه على ما أصاب محمد في هرجيسة والاستفادة من رأيه القانوني.

بعد اتصالي الهاتفي مع بكري، طلب منا جميعا الحضور للغداء معه، بحضور محاسن في فيلته، بعد الغداء، جلسنا في الصالون، استمعنا إلى مريم، بعدها، قرر بكري إعطاء قضية محمد لمكتب محاماة متعاون معه في مدينة هرجيسة بدلا من سفري أو سفر مريم؛ لأن هنالك قضية جنائية ،هي محاولة اغتيال محمد وعدم وجود أي شخص لصيق به غير حليمة شقيقة مريم، التي منعها أبوها من أي اتصال به، قام بكري بالاتصال بالمحامي «عبدي حرسي»، شرح له الموضوع، أعطاه اسم المستشفى والفندق حيث يقيم محمد، ألح بكري على الاتصال الفوري بمحمد، لضرورة التفاهم معه، ثم الشروع مع نيابة هرجيسة للدفاع عن محمد، ومن ثم رفع قضية على الجاني المجهول.

بعد ساعتين رن التليفون بمنزل بكري ،كان المتكلم محمد خميس بعد تبادل السلام مع بكري أخذت السماعة:

- ألف سلامة يا محمد.
- لو لا إرادة الله يا دكتور، كنت انتقلت إلى الدار الآخرة.
- كيف أنت الآن؟!
- الحمد لله تمت العملية ... لكن أحتاج فترة نقاهة عدة أيام.
- لا أريد أن أتعبك بالكلام ... لكن الأستاذ «عبدي حرسي» سيتولى القضية ،سيقبضون على الجاني.
- لم تقصر معي حليمة، طول الوقت معي في المستشفى.
- نتوقع وصولك هذا الأسبوع إلى بيروت، سيقوم مكتب المحاماة بعمل اللازم.
- يا دكتور، لا يمكن أن أغادرها بدون حليمة، أنا عارف أن أباها رافض، لكن لن أتراجع مهما كلفني الأمر ما دامت هي راضية بزواجي.
- إن شاء الله سيتم كل شيء بخير ... وإذا لزم الأمر سأحضر بنفسي إلى الصومال، ممكن أكلم الآنسة حليمة؟
- تفضل يا دكتور فهي بجانبي الآن.

فضلت ترك السماعة لمريم؛ لتتكلم أختها، بعد تشاور دام عشرة دقائق بينهما باللغة الصومالية، عرفنا من مريم أن والدها غير موجود في هرجيسة، عندما تم التهجم على محمد، حليمة لن تقبل أي زواج بغير محمد، أما موضوع التهجم عليه فلا يزال مع النيابة.

جميعنا غادرنا فيلا بكري، قام سائق سيارتي بتوصيل مريم إلى شقتها.

في الصباح قبل الإفطار، دخلت أم محمد حجرتنا مسرعة ،معها التليفون، كان المتكلم مايكل جيير من أتلانتا جورجيا:

- أهلاً دكتور خالد ... وصلنا بخير، لكم الشكر على المساعدات التي قدمتموها لنا.

- سعيد باتصالك، أتمنى لك ولمجدولين أسعد حياة معا.

- مجدولين بجانبي تريد محادثتك.

- أهلاً ... مجدولين الحمد لله على السلامة.

- أشكرك أبي دكتور خالد، التحية لليليان أختي الحبيبة، في منتهى السعادة هنا مع أم مايكل وأخواته.

- ليليان تريد أن تكلمك ... أمك بخير ستحضر فورا؛ لتحادثك.

تبادلت ليليان ومجدولين عبارات الشوق والتمنيات، لحين حضور السيدة مسيلة أمها من حجرتها، بدموع الفرحة واصلت السيدة مسيلة الكلام مع ابنتها، تركناها بحجرتنا ،ذهبنا إلى المطبخ؛ لتناول طعام الإفطار، انضمت إلينا السيدة مسيلة بعد الانتهاء من مكالمتها، تبادلنا معا أخبار مجدولين وحياتها الجديدة في أميركا.

في الصباح قامت ليليان بتحضير المرتبات لخدم المنزل، سلمتها لأم محمد؛ لتوزيعها عليهم، في طريقي إلى الجامعة مع ليليان عرفت من أبو إياد أن زوجته توفيت أمس، بعد غارة إسرائيلية على غزة، ترحمنا عليها، سمحنا له بالسفر غدًا مع مبلغ إضافي؛ لتغطية مصاريف العزاء.

(٢٩)

بعد انتهاء المحاضـرات، اصـطحبت ليليان إلى مكتب الأسـتاذ بكري؛ للمسـاعدة في تحضـير أوراق ثبوتية تتيح للسـائق أبي إياد الرجوع إلي لبنـان بعد رفع المأتم، في موضـــوع محمد خميس الموجود بالمستشفى في مدينة هرجيسـة بالصومال، أوضح بكري أن القضية تحتاج شهرًا على الأقل، أن مكتب المحاماة في الصومال بمدينة هرجيسة، سيشرف على وجود محمد بالمستشفى وإقامته في الفندق لحين انتهاء القضية، لحسن الحظ محمد احتفظ بكل ماله عند إدارة الفندق.

بهذا الوضــع، وجدنا أنا وليليان، الوقت الكافي لقضــية زواجنا الشـائكة، اتفقنا على مخطط دقيق، قمنا بوضـعه ،درسـناه سـويا؛ ليجعل حلها سهلا، سارت حياتي مع ليليان في الفيلة مليئة بالنشاط والاتصالات شبه اليومية بمحمد في الصومال، تتبع أخبار مجدولين ومايكل جيير في أتلانتا، كذلك عملي في الجامعة، مكتب الترجمة في القاعدة سار بصورة روتينية.

مشـروع السـودان، أتم عمي أبكر دراسـة الفكرة التي طلبتها منه، وهو بناء معهد في قرية عد الفرسـان بدارفور باسـم جدتي مسـتورة، أرســلت إليه التمويل اللازم عن طريق أبي، بالرغم أن أبي لم يكن متحمسـا للموضـوع، شـعرت براحة نفسـية ،أنا أتابع التقارير التي تصلني أسبوعيا من عمي.

قرر الأسـتاذ بكري تأجيل زواجه من محاسـن على طلب صـديقة دكتور قاســم الجرافي الذي أجل زيارته إلي بيروت لظروف العمل وغياب عميد الجامعة، الدكتور فيروز فترة طويلة في لندن مرافقا أمه؛ للعلاج، كل هذه العوامل جعلت الجو هادئًا لبدء مخططنا الدقيق أنا وليليان في الأسبوع القادم.

بعد أسبوع ،في يوم الثلاثاء وصل السيد أحمد الشـاهر إلى مطار بيروت حسب ما قاله لابنته ليليان في رسـالته المسجلة، قابلته ليليان ومعها محاسن، محاسن لا علم لها بالخطة التي وضعناها أنا وليليان، لا تعرف غير المسـاعدة في توصـيل والد ليليان إلى بيروت هيلتون، حيث تم الحجز له، واصطحابه إلى شقتها أولا؛ لتفقد حجرة ليليان.

كان السيد الشاهر منشرحا وهو يستقبل محاسن مع ابنته ليليان، نقل إلى محاسن أخبار أهلها مع بعض الخطابات المرسلة معه، فهو يعرف عائلة محاسن منذ تاريخ وصوله السودان والسكن بجوار عائلة محاســن في منزله القديم بمدينة أمدرمان، وبداية تجارته بها بجانب دكان والد محاســن، قبل انتقاله إلى فيلته الحالية المطلة على النيل الأزرق في الخرطوم.

ظلت ليليان مستمعة بأدب وحذر في حضرة أبيها، لم تفتح معه أي موضوع جانبي، بعد شرب الشاي، في غمرة أخبار السودان والتعرف على حياة ليليان في بيروت، طلب السيد الشاهر من محاسن الذهاب إلى الفندق؛ لأنه كان يحس بالإرهاق من عناء السفر.

بسيارة محاسن في الطريق إلى الفندق، كان السيد الشاهر يجلس في المقعد الخلفي منهمكا مع الصحف التي وجدها بجانبه في المقعد الخلفي، بينما كانت ليليان مع محاســن في المقعد الأمامي، فجأة وبصوت عال خاطب الشاهر محاسن باستغراب، هل حقيقة أن وكيل وزارة الداخلية السودانية سيحضر غدا إلى بيروت؟ ردت عليه محاســن لا علم لي بالموضــوع، فقرأ لها الخبر المنشور في صحيفة النهار الصادرة اليوم:

«ســيصــل إلى بيروت يوم الأربعاء غدا الســيد اللواء إبراهيم الناير وكيل وزارة الداخلية الســودانية لفترة أســبوع للاســتجمام والراحة، اللواء إبراهيم هو والد الدكتور المعروف خالد إبراهيم الناير عميد شعبة الرياضيات بالجامعة الأمريكية ببيروت، مرحباً بالضيف الكريم» .

استغربت محاسن بينما ظلت ليليان صامتة، على وجهها ابتسامة خفية، ظل الشاهر يتلعثم ،يردد والله لا علم لي لم أقرأ هذا الخبر في الصحف الســودانية ... ما كنت أعتقد أن اللبنانيين يهتمون بشؤون الســودان بهذه الطريقة ... لابد لي أن أقابله فللرجل فضــائل كثيرة علينا.

أمام الفندق نزل والد ليليان مسرعا مضطربًا ،ودع محاسن، ثم ترجلت ليليان من السـيارة ،ودعته ،حاول أن يتبادل معها بعض الكلمات، لكنها أسرعت، راجعة إلى سيارة محاسن بحجة أن سيارة محاسن، قفلت ممر العربات أمام الفندق، في طريق الرجعة إلى منزلها بصحبة ليليان، كانت محاسن متشوقة لمعرفة القصة، لكن ليليان أكدت لها أنها مجرد صدفة، محاسن لم تقتنع، أصرت على معرفة هذه المفاجأة الغريبة، لاذت ليليان بالصمت، رغم إصرار محاسن المتواصل.

أما أنا ففي صباح يوم الأربعاء توجهت بسيارتي المرسيدس القديمة إلى مطار بيروت؛ لاستقبال والدي قادما بالخطوط الجوية السودانية من الخرطوم، فوجئت أن أمي ترافقه بدون إخباري، فرحتي برؤية أمي سيطرت على المشهد، ركضت فاتحا ذراعي، ضممتها بقوة إلى هامتي الفارعة، أحسست بالطمأنينة بوجودها، بعد ذلك سلمت على والدي بالحضن.

بعد أخذ الحقائب، اضطررت أن أطلب تاكسيًا لأبي، أشرت لسائق التاكسي بالتوجه إلى بيروت هيلتون ،اصطحبت أمي في سيارتي الصغيرة، كان الطريق مزدحمًا، تغير المسار إذ إن طائرة إسرائيلية ضربت تجمعا للمجاهدين الشيعة في طريق المطار؛ لدراية سائق التاكسي بشعاب بيروت وصل الفندق مع أبي قبلنا بساعة كاملة.

عندما دخلت بهو الفندق، أجلست أمي في جانب بعيد ذهبت إلى مكتب الاستقبال؛ لأرى ما تم في استقبال والدي، بادرني الموظف، سألني إذا كنت أبحث عن السوداني الذي قدم اليوم السيد/ إبراهيم الناير قبل أن أجاوبه، أشار إلى حيث يجلس أبي، فإذا بي أراه جالسا مع شخص أشقر، من ملامحه عرفته والد ليليان الرجل الذي يفترض أن يكون والد زوجتي، توجهت إليهما، كنت أدرس كل خطوة أقوم بها، ماذا أقول ،كيف أتصرف، وقفت بقامتي الفارعة مواجها أبي تاركا الرجل خلفي تماما، اعتذرت أوضحت لأبي سبب تأخري، لم يرد على والدي، بل بادر بتقديم السيد الشاهر:

- سلم على عمك الشاهر.

سلمت عليه بحرارة مفتعلة، كانت على وجه السيد الشاهر علامات الاستفهام والتعب والإرهاق ظاهرة، من الواضح أنه لم ينم طوال الليل وهو يفكر فيما قاله لابنته عن والدي وعني.

الشاهر حتى تلك اللحظة لا يعرف ماذا قال أبي عنه في الرسالة المسجلة:

ولو عرف الشاهر ما قاله أبي عنه، لخفف عليه كل الهم والارتباك، كلاهما لا يعرف ماذا قال الآخر عنه، يمسك السيد الشاهر، أنفاسه لكيلا يعرف وكيل وزارة الداخلية السودانية ما قاله عنه في رسالته المسجلة لابنته، خوفا على مصالحه التجارية والمالية الكبيرة في السودان، في الجانب الثاني يغطي وجه أبي الخجل لكيلا يعرف السيد الشاهر ما قاله لي عنه.

شكرا للتكنولوجيا، أنا وليليان من يملكان المعلومة الكاملة، أبي كان يعرف ما قاله لي في رسالته المسجلة، السيد الشاهر يعرف ما قاله لابنته ليليان في رسالته المسجلة.

انسحبت، تركت والدي مع السيد الشاهر، ذهبت إلى أمي، أخذتها إلى الجناح ،معنا خادم الفندق يحمل الحقائب ،بعد عشر دقائق حضر الوالد.

كان أبي مضطربًا ،منزعجًا جدًا من مقابلة الشاهر، أمي بدأت في فتح الحقائب وترتيب الملابس في خزانات حجرة النوم الفارهة، جلست مع أبي في حجرة الاستقبال بالجناح، شعرت بأنه يشتم رائحة مقلب، سيما أنه وكيل وزارة الداخلية وله تجارب ودراسات وممارسات عدة في البحث عن الحقيقة، عندما بادرني بسؤال:

- كيف حضر هذا الشاهر بالتوافق مع حضوري، كيف حجز في نفس الفندق، شيء غريب؟!

- أظنها صدفة مجردة يا أبي.

- ثم ثانيا، كيف عرف اللبنانيون بزيارتي ليكتبوا عني في الصفحة الأولى من صحيفة النهار؟! لا بد أن يكون في الأمر شيء.

- يا أبي ألا تعرف هنا في لبنان، يكنون التقدير لحكومة السودان؟! أليس السودان هو الحكومة الديمقراطية الوحيدة مع لبنان في العالم العربي.

- احجز لي فورا في مكان آخر ،بأسرع فرصة أو نسكن في شقتنا ... لا أريد رؤية هذا الشخص.

- شقتنا تحت الصيانة السنوية، من الصعوبة إيجاد مكان آخر، هذا موسم الصيف للسواح ... لكن سأحاول.

- يا خالد أرجوك لا تتكلم عن موضوع الزواج أبدأ، ولا أريد أن يعرف هذا الرجل ما سجلته لك في الرسالة.

- اطمئن يا أبي، طبعا لا أقول له، بالرغم من إصراري على الزواج من ابنته.

- يا ابني ليليان مطلقة فلابد أن يكون فيها عيب عليك بشابة أصغر وبكر.

سمعت والدتي النقاش، انضمت إلينا:

- ما دام هذه رغبة ابني، فلنترك له حرية الاختيار.

- ألا يوجد اختيار غيرها؟! البلد مليئة.

- يا أبو خالد، أنا أريد رؤية ليليان، بعدها نحكم.

تدخلت في النقاش، شرحت لأمي وأبي، لماذا اخترت ليليان:

- ليليان بالرغم مما قاله والدي عنها، فهي راضـــية بالزواج مني.

قفز والدي من مقعدة مذعورا:

- هل أسمعتها التسجيل؟!

- نعم يا أبي ... واجب علي أن أصـــارحها بالصـــدق من البداية، فبدون الصدق لا معنى لزواجي منها.

- لا حول ولا قوة إلا بالله ... معنى هذا الكلام أنها ســتخبر أباها بما قلته لك في التسجيل.

- هنالك احتمال ... ليس بالضـرورة، لكن سـأطلب منها عدم ذكر محتويات الشريط لأبيها.

- حســنا ... ما دام هذا رأيك ورأي أمك، فلا مانع من جانبي ... لقد لويت ذراعي يا دكتور، أرجوك أن تقنعها بعدم إخبار أبيها بما قلته لك في الشريط.

- لا يا أبي ... أنا أريد منك الموافقة غير المشروطة.

تدخلت أمي:

- مبروك عليك يا ولدي، ربنا يتمم بالخير.

- أمي أنـا فخور بـك، أقســم أنـك أحســن من المتعلمـات والمتعلمين، سأحاول تدبير لقاء لك مع ليليان بأسرع فرصة.

اتصــلت بمطعم الفندق، طلبت الأكل المفضــل للوالد والوالدة، اسـتأذنت بحجة أن سـيارتي لا تزال أمام الفندق ،انصـرفت بهدوء فرحا بما حققته دون جدل أو عناء، وصـلت إلى مكتبي في الجامعة حيث كانت تنتظرني ليليان علي أحر من الجمر، وضحت لها ما تم بالتفصيل، قالت بأعلى صوتها.

- هذا رائع نتيجة تخطيط سليم يا خالد.

اتصلت ليليان فورا بوالدها من مكتبي ،أخبرته أنها في طريقها إلى الفندق، أخذتها بسيارتي، تركتها، رجعت، بعد ساعة اتصلت ليليان من مكتب الاستقبال في الفندق، طلبت حضوري؛ لأخذها.

كادت تطير من الفرح وهي تقفز داخل سيارتي، قالت بصوت عالٍ:

- هذا رائع نتيجة تخطيط سليم يا حبيبي.
- ماذا حدث يا ليليان؟! ... أخبريني بربك.

سردت لي تفاصيل اللقاء مع والدها، بلسانها تم الحوار التالي بينهما.

بادرها أبوها:

- ممكن تشرحي لي كيف جاء اللواء إبراهيم إلى بيروت في نفس موعد حضوري هنا يا ليليان؟!
- لا أعرف ... أعتقد أنها مجرد صدفة يا أبي.
- لماذا حجز في نفس الفندق؟! أريد الرحيل اليوم.
- لا علم لي لماذا ... لا أعتقد أن هنالك خيارات في شهور الموسم في بيروت.
- هل وصلتك الرسالة التي سجلتها لك في التليفون؟!.
- نعم وصلتني ... أريد أن أؤكد لك عدم رغبتي في الرجوع إلى رجل طلقني ثلاث مرات، أنت تعرف ذلك، الرجاء يا أبي أن تفكر في مصلحتي واختياري.
- تقصدي دكتور خالد؟ ... يستحيل.
- لماذا؟؟
- لقد وضحت لك رأيي في الرسالة المسجلة.

- لكنه متسمك بي حتى بعد الاستماع إلى رسالتك المسجلة.

هنا قفز الحاج الشاهر من مقعده غاضبا:

- تقصدي أن دكتور خالد سمع رسالتي بالكامل!؟!

- نعم يا أبي أسـمعتها له؛ لأرى رد فعله نحوي، فبالرغم من قسـاوتها البغيضـة، وجدت الدكتور خالد أكثر إصـرارا على ارتباطنا، هذا ما قدرته فيه؛ لثقته بنفسه وحبه لشخصي ،أيضا تسامحه وشهامته.

- لا أريد أن تصـل رسـالتي إلى والده ... فللرجل فضـائل علينا، فلو انقلب علينا فإن مصـالحنا ضـاعت ،ربما يطردنا من السودان بسحب الجنسية منا.

- لا أعتقد أنه يفعل ذلك ... فهو ليس رجل انتقام يا أبي، لقد وصفته في رسالتك بالعبد، أنسيت يا أبي أن جدتي كما ذكرت لي سـابقا، من ملك اليمين في قصـر سيد قرشي في اللاذقية، إبان الحكم العثماني اشـتراها من البـانيا؟!، اطمئن يا أبي على مصـالحك، سـأؤكد لك اليوم عدم نقل الرسـالة إلى وكيل وزارة الداخلية اللواء إبراهيم الناير.

- صدفة غريبة يا ليليان ... رأيت دكتور خالد اليوم مع والده هنا في الفندق، يبدو أنه رجل ذو خلق، تعرفت عليه، حقا إنه رجل وسيم وعالم، ذو مكانة، لكنه أسود اللون يا ليليان.

- ما العيب في الأسـود يا أبي نحن بشـر خُلقنا من أب واحد وأم واحدة ... لماذا نفرق؟! ألم يقل الإسلام إننا سواسية كأسنان المشـط؟!، أريد موافقتك يا أبي على رغبتي الصـادقة في زواج الدكتور خالد.

- يا ابنتي، عندنا خيارات داخل الأسـرة وخارجها ... فكري يا ليليان ،لا تلوي ذراعي.

- دعيني أخابر أمك مساء اليوم.

- أمي لا تمانع؛ لأن خالي أقنعها، أنت تعرف ذلك.

- أهم شـــيء عندي الآن، ألا يعرف اللواء إبراهيم ما قلته ... تأكدي من الدكتور خالد وردي على اليوم، ليس لي وجه أقابله به وهو معي في نفس الفندق.

- ســـأذهب إلى مكتب الدكتور خالد في الجامعة؛ لأطلب منه عدم تسريب ما سمعه في الشريط لأي شخص آخر خاصة أباه.

- أسرعي أنا في انتظارك.

- هل أفهم أنك موافق على زواجي بالدكتور خالد؟!

- إن شاء الله خير.

قامت ليليان من مقعدها، ضمت أباها إلى صدرها، بكت بدموع الفرح، انصرفت لتجدني في انتظارها في موقف سيارات الفندق.

من باب الفندق توجهت مع ليليان إلى بيت محاســـن، قررنا توضيح المخطط الذي رسمناه ونفذناه لكي تكون معنا في الصورة، خاصة أنها ستقيم حفلة عشاء على شرف والد ليليان.

(٣٠)

عند وصولنا الشقة، فتحت محاسن الباب:

- أهلا وسهلا محاسن... كيف حالك.

- الحمد لله ... لكن يا شباب، أرجو أن تشركوني معكما في الموضوع؛ لأني سأقوم بعد الغد بدعوتك ووالد ليليان للعشاء ... أريد أن أفهم، هل ما حدث هو مجرد صدفة؟!

- قبل كل شيء، أرجو إضافة أبي وأمي إلى المدعوين فإنهما وصلا صباح اليوم.

- لا أصدق، الحمد لله على حضورهما ،أنا سعيدة جدا ... هذا تدبير رباني ... لكن لا أفهم حتى الآن، لا أصدق أن تلعب الصدف كل هذا ابداً.

- لك ألف حق يا عزيزتي محاسن، حان الوقت لنخبرك بالحقيقة ... إنه المخطط الذي قمت به مع ليليان قبل أسبوع، المخطط بنيناه على رسالة مسجلة من والد ليليان وأخرى مسجلة من والدي بخصوص الزواج، الحمد لله نجح تماما في هذا اليوم كما رسمناه، كان المخطط كما يلي: -أكد والد ليليان حضوره إلى بيروت أول أمس الثلاثاء، قبل وصوله كان على ليليان الرجوع إلى حجرتها معك تحسبا لمقابلة والدها، من جانبي تفاهمت أيضا مع الوالد علي أن يحضر يوم الأربعاء لمناقشة زواجي، أرسلت إليه أيضا التذاكر خوفا من تغيير رأيه، أو تغيير ميعاد حضوره؛ لانشغاله المستمر بأمور الأمن في السودان، أيضا أكدت له الحجز، قمت بحجز جناح لكل منهما في نفس الفندق بيروت هيلتون، بالإضافة إلى ذلك نشرت إعلانًا مدفوع الأجر بالصفحة الأولى في جريدة النهار نصه كما قرأه عليك الحاج الشاهر وهو في سيارتك، وضعت ليليان عنوة صحيفة النهار بجانبه في المقعد الخلفي.

وضـعت محاسـن يديها على رأسـها من الدهشـة ،قالت بأعلى صوتها:

- يا لكما من دهاة ... إنها حبكة محكمة وذكية للغاية ... فهل نبارك!؟!

- عليك يا محاسـن بزغرودة كبيرة... لقد وافق أبي، وأيضـا وافق أبواه، حقيقة أننا انتزعنا موافقتهما الاثنين بدون عناء أو تسـويف أو تأجيل، اسـتعملنا نظرية مواجهة الخصـمين وغياب نصف المعلومة عن كل منهما.

أطلقت محاسن زغرودة زلزلت أركان الشقة، ضمت ليليان إلى صـدرها فرحا، باركت لنا اتصـلت فورا بالأسـتاذ بكري الجعلي، قررنا أن نتقابل سـويا معه بمطعم أريج المجاور لشـقة محاسـن؛ للمباركة وضع برنامج تكريم الزوار.

حضـر الأسـتاذ بكري متأخرا كعادته، عندما سـمع من محاسـن تفاصيل قصـتنا، قال: هذا المخطط هو صـميم ما يقوم به المحامي، امتلاك المعلومة والأدلة من الخصمين واستعمالها في المرافعة أمام القضـاة للحصـول على الحكم النهائي، منتهى الذكاء يا دكتور، ألف مبروك، اقترح أن يتم التكريم بفيلتك يا خالد مسـاء الغد، خير البر عاجله، ليليان تستحق كل خير؛ لصمودها المدهش.

بعد خروجنا من المطعم ومواصـلة خطتنا المشـتركة، رجعت ليليان مع محاسن إلى حجرتها ،من تليفونها الخاص اتصلت بوالدها طمأنته حسـب طلبه بعدم تفشـي محتويات الرسـالة لأي أحد، الاطمئنان للسيد اللواء إبراهيم ومكاشفته، أضـافت من عندها ،كي لا يكون هنالك حرج، يستحسن إخباره مبدئيا بقبول فكرة الزواج.

ذهبت إلى الفندق، طلبت الوالد ومعه أمي، في جولة حول بيروت، اعتذر الوالد:

متأسف، أنا معزوم على العشاء مع السيد الشاهر، لو لا ذلك لرافقتكما.

استشفيت من كلام أبي أن رسالة ليليان لأبيها أحدثت مفعولها، بما أن قصدي هو إشراك أمي في معاينة فيلتي، تحقيق أمنيتها في مقابلة ليليان؛ لذلك أخطرت أم محمد ومسيلة بتحضير عشاء فاخر تحضير حجرة في الطابق الثاني؛ لاستقبال أمي.

عند وصولي إلى الفيلا، وجدت السائق قد رجع من غزة، واسيته، ترحمت على زوجته، دون الإطالة معه في أموره الخاصة، طلبت منه الإسراع بإحضار ليليان من شقة محاسن، في المدخل استقبلتنا أم محمد بالترحاب الحار، قدمت باقة من الورود لأمي، أخذتها إلى حجرتها المعدة بالذوق السوداني، تفوح منها رائحة بخور الصندل المختلطة برائحة النرجس والورد الجبلي.

لم تتمالك أمي فرحتها، أطلقت زغرودة سودانية طويلة، بجانب زغرودة السيدة مسيلة أم مجدولين وزغرودة أم محمد، ضمتني أمي إلى صدرها بالفرحة الصادقة، جلسنا إلى السفرة المعدة حول حوض السباحة، طلبت من أم محمد ومن مسيلة الجلوس معنا على الطاولة تكريما لأمي، استمعت أمي بالتفصيل إلى قصة مجدولين من أمها مسيلة، من أم محمد قصة موت زوجها في السجون الإسرائيلية، كيف عوضها الله بمعرفتي ،معرفة ليليان وهي تخدمنا بإخلاص وحب.

وصلت ليليان بعد نصف ساعة، في الفستان الأبيض الذي اشتريناه بمناسبة زواجنا المدني، صفت شعرها الأشقر مسدلا من الأمام يكاد يغطي صدرها، من خلفها وصل إلى خاصرتها، عيناها تشعان بالفرحة والأمل والإرادة، بالحضن على صدر أمي وعلى رموشها دمعات الفرحة وحرارة اللقاء، جلست ملتصقة بأمي ، تحتضنها وزغاريد أم محمد ومسيلة تكسب الجلسة روح البهجة والفرح

أمي اســتمرت تردد: «عروس الســرور يا خالد»، الله يتمم لكم وهي تمرر يدها على شعر ليليان باستمرار ،تتمعن بدقة في عيونها الزرقاء:

- عروس الســرور يا ليليـان، حفلات العرس على أنـا في بيروت وفي الخرطوم وفي الدامر، وحنتك أحنيها أنا بيدي مثل حنة ولدي،

بعد لقاء مدهش ،مفرح اســتمر ســاعات من الليل، تأكدت أن إعجاب ليليان بأمي صـادقا، ودعتها بالأحضـان بعد العشـاء راجعه إلى حجرتها في شـقة محاسـن، في طريقي لتوصـيلها إلى السـيارة قالت لي:

- أتمنى أن أرزق بنتا تشبه أمك، إنها جميلة حقا.

- حبيبتي ليليان، أمامنا مشــاوير ومهام ضــخمة قبل التفكير في الإنجاب.

- أنســيت يا خالد ليلتنا؟! من الســابق؟ لأوانه، لكن أقول لك إنني أشعر بحمل.

- لا أصـــدق ... ماذا تقولين يا ليليان؟! أمامنا عقبات لا يعلم بها إلا الله.

- بعد كل ما حدث بيننا ... تقول هذا يا خالد؟!

- لا ... لا يا ليليان والله ســأقف معك ،لو على جثتي، أتمنى أن يكون الحمل حقيقة ... لكن لا أعتقد.

- لنر يا حبيبي بعد أسبوعين سـأعرف ... تصـبح على خير، لنكن على أهبة الاستعداد ليوم الغد أمام الآباء.

- عندي خطة ليوم الغد.

- ماهي يا خالد!؟!

- غدا يوم الجمعة ... ما رأيك في اصطحاب محاسن معك لزيارة أبيك في الفندق، على أن يكون لقاؤكم جميعا في مقهى الفندق في الدور الأرضي، بعد وصولك بنصف ساعة، سأحضر مع أمي إلى الفندق أيضا لنفس المقهى ،نترك الأشياء على طبيعتها.

- فكرة رائعة، هذه تكملة للخطة الأصلية يا خالد، الى اللقاء غدا.

- النصر لنا إن شاء الله،

بدلا من التوجه إلى السيارة التي كانت تنتظر ليليان على باب الفيلة مباشرة، جذبتها بلطف، دخلت الحديقة معها، خلف شجرة اللافندر التي تفصلنا عن الباب، قبلتها، ضممتها إلى صدري في صمت لدقائق، اتجهت معها إلى باب السيارة ،انطلقت مع السائق.

بعد انصراف الجميع جلست مع أمي حول المسبح، قصصت عليها تفاصيل تعرفي على ليليان، كيف تم شراء الفيلا بمساعدة بكري، تكلمنا عن محاسن ،مساعداتها لليليان ولي أيضا، لم أبخل على أمي بتوضيح قصة التخطيط لحضور أبي ووالد ليليان في نفس الأسبوع ،في نفس الفندق، لكن لم أخبرها برسالة أبي المسجلة ولا رسالة السيد الشاهر لابنته ليليان.

لم تخف أمي فرحتها بعد التعرف على ليليان، بل وضعت خطط فورية لعرسي على أن يكون في منزل كبير لنا في أمدرمان اشتراه الوالد بجوار منزل أهل محاسن بحي المسالمة، فهي لا تريد عمل العرس في منزل الحكومة بالخرطوم، بدلا من أن تطلب منى ترميم المنزل وتحضيره لحسابي، قررت بيع ذهبها الخاص والصرف على المشروع.

أمي الحبيبة في حساباتي هي الأكبر والأهم في حياتي، تأتي بعدها ليليان ثم بقية الأسرة، لم أرفض خططها العاجلة، جبرا لخاطرها الذي يتوج حياتي، قررت أخذها غدا إلى البنك ،أعرض عليها مجوهرات محمد خميس؛ لتنتقي منها ما تريد، أضع المقابل نقدا لصالحه، أمي تعرف أن لي من المال ما يمكنني من شراء قصر في السودان، لكن حبها كأم تريد أن تغمرني بحر مالها؛ لتفرحني وتفرح نفسها وعائلتها،

في تلك الليلة المباركة، جربت أمي حمام الجكوزي لأول مرة، بمساعدة أم محمد، نامت نوما هانئا، بعد الإفطار الذي أصرت أن تضع بصماتها المطبخية عليه، جلست بجانبها، تصر على بأكل كل ما طبخته، في ذلك الصباح الرائع.

(٣١)

اتصلت مبكرا بليليان؛ للتأكد من الخطة، ردت على خادمة محاسن أكدت لي أن محاسن وليليان ذخبتا إلي الفندق قبل عشر دقائق، تعجبت؛ لأن الموعد المتفق عليه لم يحن بعد، لبست البدلة التي ظهرت بها يوم زواجنا المدني، أصرت أمي على تغيير ربطة العنق إلى التي اشترتها في الطائرة ضمن الهدايا التي أحضرتها لي، امتثلت لخيارها الموفق، انطلقنا إلى الفندق حسب المخطط.

كانت الدهشة إذ لم نجد ليليان ولا أبوها ولا محاسن، وجدت مفتاح باب جناح أبي معلقًا مع بقية المفاتيح، قبل سؤالي، قال لي موظف الاستقبال، جميعهم ذهبوا إلى مستشفى السلام مع السيد الشاهر الذي أصيب بنوبة قلبية صباح اليوم.

اصطحبت أمي معي في السيارة وهي بدورها لا تعرف شيئا، اتجهنا صوب المستشفى، عند وصولنا، أشارت مسؤولة الاستقبال إلى حجرة العناية المركزة بعد سؤالي لها عن السيد الشاهر، يا للهول ... نفس المكان الذي كانت فيه ليليان قبل أسابيع، شعرت بالدوران وأنا أركض أمام أمي ،بذاكرتي رعب ذلك اليوم المخيف، وجدت أبي ومحاسن أمام باب غرفة العناية المركزة، قبل الانتهاء من سؤالي لهما وصلت أمي، سلمت على محاسن بالحضن ، لا دراية لها من قريب أو بعيد بالموضوع، تركتهم سويا دون سابق معرفة.

لم أنتظر، دخلت منزعجا إلى الغرفة دون استئذان، حاولت الممرضة منعي، لم أمتثل حتى تدخلت ليليان، كان السيد الشاهر في غيبوبة كاملة، وقفت بعيدا، لبست مثل ليليان سترة معقمة، ظلت ليليان ممسكة بيد أبيها، عيونها دامعة، أشعرتني بأن السحر قد انقلب على الساحر، أن مخططنا الذي جاء بوالدها إلى بيروت كان قاتلا، يا للهول لم أستطع الكلام مع ليليان، لا أعرف التفاصيل، خرجت من الحجرة ، وجدت أبي وأمي وأيضا محاسن صامتين كالأموات:

- ألم تعرف شيئا يا خالد؟!

- لا يا أبي ... ماذا حدث في الفندق؟

- كنت جالسا مع السيد الشاهر في مقهى الفندق نشرب القهوة، قبل القهوة تناول الشاهر حبة أسبرين أمامي، كان عاديًا جدا، فجأة وقع على الأرض، قمت ببعض الإسعافات الأولية طلبت مساعدة إدارة الفندق، قامت إدارة الفندق باتصال هاتفي، حضرت بعده ابنته ليليان ،معها السيدة محاسن، وصل الإسعاف في عشر دقائق، كان لابد لي من مرافقته، كانت ليليان متماسكة، قوية تتصرف بوعي ودراية، في الإسعاف قال الطبيب إنها جلطة.

- الله يستر عليه، يستر على ابنته الطيبة.

- والله هذه عين ... الله يستر علي دكتور خالد وعلي ليليان، إن شاء الله أبوها يطلع بخير من المستشفى.

بعد عشر دقائق خرجت ليليان ،الحزن يغطي وجهها المحمر، سلمت على أمي بالحضن ،اتجهت إلى أبي، سلمت عليه بأدب واحترام:

- أشكركم جميعا على المساعدة، فأبي يحتاج عملية قلب مفتوح وتجديد شرايين، العملية ستبدأ فورا فهو تحت البنج الكامل، سأظل في المستشفى معه حتى إنهاء العملية، أرجوكم ترجعوا إلى الفندق وترتاحوا.

قال والدي وأشار إلى بيده:

- خليك مع ليليان، الله يصـــبرها وعمك الشـــاهر يحتاج مساعدتك، لا تتركه وحده،

قالت أمي:

- ربنا يشـــفي أباك يا ابنتي... ،خالد واقف معك إن شـــاء الله العملية تنجح يا رب.

- ربنا يجيب العواقب سليمة يا ليليان، سأظل معكم يا دكتور خالد.

أخذ الســـائق أمي وأبي إلى الفندق، رجع مرة أخرى، أخذ محاسن، بعد إصراري وإصرار ليليان على رجوعها إلى شقتها؛ لأن ابنتها هاديه تحتاجها،

ونحن في انتظار العملية، ظللت ممسكا بيد ليليان، كالعادة كانت ليليان قوية ،منطقية في توقع أســـوأ الاحتمالات، كنت حذرا في الكلام عن أي توقعات سيئة ،استمررت في الدعاء والتمنيات أمام ليليان بشفاء والدها.

طلبت إدارة المستشفى من ليليان توقيع أوراق رسمية بالموافقة على العملية، طلب منى أيضـــا التوقيع شـــا هدا، عندما اطلعت ســـكرتيرة المســـتشـــفى على هوية ليليان وعلى هويتي وجدت في ســـجلاتها حادثة محاولة انتحار باســـم ليليان، أخذت الأوراق إلى مدير المستشفى الذي طلب مقابلتنا:

- تفضـــلي مدام ليليان ... إن شـــاء الله ســـتتم العملية بخير وتطمئني على والدك.

- إن شاء الله.

- سيده ليليان، مجرد صدفة وجد عندنا في سجلات الحوادث ما يوضح أنك تعالجت عندنا قبل أسابيع في حادث تسمم وا...!! كيف كانت معاملة الأطباء والممرضين، أ كانت طيبة؟.

- شكرا يا دكتور ... كانت جيدة جدا.

- لكن لم ترجعي لمراجعة وضعك الصحي بعد خروجك من المشفى، البيانات هنا تتطلب حضورك بعد أسبوع من خروجك... أنت ما شاء الله طالبة طب، لو تكرمتي، بعد عملية والدك سنقوم باللازم نحوك، نتأكد من صحتك ،نقفل الملف نهائيا.

- لا مانع يا دكتور، لك الشكر.

التفت مدير المستشفى نحوي، كان في عمري، يبدو أنه ليس طبيبا، ربما يكون ابن صاحب المستشفى ،قال بتهكم:

- يا خالد ... بعد توقيعك الرجاء تحرير شيك بمبلغ خمسين جنيه إسترليني، عبارة عن تكاليف العملية للسيد الشاهر والد زوجتك، إن شاء الله كل شيء يتم بالسلامة.

- حاضر يا دكتور ... دعني أحضر دفتر الشيكات من السيارة،

تركت ليليان في مكتب المدير، خرجت من مبني المستشفى، أحضرت دفتر الشيكات من سيارتي، قبل تحرير الشيك، قالت ليليان في حالة من الغضب الواضح الذي حاولت إخفاءه، مدير المستشفى ظل صامتا على الكرسي:

- لا تكتب الشيك الآن يا دكتور خالد.

- لماذا يا ليليان العملية ستتم الآن.

- لا تكتبه ،سأخبرك بعد العملية.

خرج مدير المستشفى مسرعا قبل خروجنا من مكتبه بطريقة لم أفهمها، توجهنا إلى حجرة العمليات ،سمح لنا بمشاهدة العملية من خلال شباك زجاجي صغير، استمرت العملية ثلاث ساعات، خرجت الممرضة؛ لتبشرنا بنجاح العملية، طلبت منا الانتظار ساعة، لحين عودة الوعي الكامل لوالد ليليان؛ طيلة تلك الساعة

لم تتكلم ليليان كلمة واحدة، كانت واجمة أشــعرتني ثمة شــيء حدث في مكتب مدير المســتشـفى، لكن تفكيري توقف عن التجميع تماما، انصــبَّ في شــيء واحد، هو خروج والد ليليان ســليما من العملية.

بعد مضــى ســاعة وربع، ســمح لنا بالدخول، وقفت ليليان على يمين السـرير الذي يرقد عليه والدها، وقفت خلفها عندما فتح السـيد الشاهر عينيه لأول مرة:

- بابا ... بابا ... الحمد لله على سلامتك.

- الحمد لله يا ابنتي ... أين السـيد اللواء إبراهيم وأين الدكتور خالد.

- معي هنا الدكتور، لكن طلبت من الســيد إبراهيم وزوجته الرجوع إلى الفندق للراحة كانوا معنا لآخر لحظة.

تقدمت خطوة نحو السرير الذي يرقد عليه السيد الشاهر، حتى أصبحت محاذيا لليليان:

- سلامتك يا حاج، نحمد الله على نجاح العملية.

- لله الحمد والشـكر، يا ابني الدنيا ما معروفة، خليك حريص على ليليان ،ربنا يوفقكم، أبوك وقف معنا في أعمالنا ،ساعدنا بما فيه الكفاية، له احترامنا وتقديرنا يا دكتور.

- اطمئن يا حاج، بإذن الله ليليان ســتكون معي في الحفظ والصون.

(٣٢)

عندما سمعت ليليان ما قاله أبوها ضغطت على يدي بشدة كأنها تريد أن تقول: «نعم» للمرة الثالثة ،تؤكد نجاح مخططنا، همست لي أن الممرضة في انتظارها؛ لتحليل الدم الذي تجاهلته سابقا، تركتني مع والدها الذي استرسل في الحديث عن نفسه ونجاحاته،

أنه الوحيد الموزع لشركات الأقمشة اليابانية والصوف الإنجليزي في السودان، له فروع في بورتسودان ،شندي ،الدامي الأبيض بجانب الفرع الرئيس في الخرطوم، وهو الوحيد الذي يفوز بعطاءات وزارة الداخلية بمباركة ومساعدة والدي في توريد الملابس والمستلزمات السنوية لجهاز الشرطة، بيني وبين نفسي أتساءل، كيف يستوي ما قاله هذا الرجل المنافق في رسالته لليليان وما يقوله لي الآن!!!، مجتمع يعيش على الكذب والشكليات والمظاهر.

رجعت ليليان بعد ربع ساعة، وقفت معي بجانب السرير، استمررنا في تبادل المجاملات مع أبيها، فجأة حاول والدها رفع رأسه من السرير؛ ليقول شيئا مهمًا، أسرعت ليليان، أمسكت رأسه أرجعته إلى مكانه وهو ممسك بيدها:

- ليليان أسرعي بإحضار حقيبتي الخاصة من الفندق، هنالك أشياء مهمة أريدك أن تعرفيها، المقدر ما معروف.

- أبي أرجوك أن ترتاح، لا لزوم لأي معلومات الآن، صحتك الأهم.

- لازم، أنت عارفه ما عندي غيرك، أخوك دروش مع الإسلاميين السلفيين ،خلانا، غير معروف أين سافر، أحضري حقيبتي الآن.

أشرت إلي ليليان أن تأخذ سيارتي، السائق منتظر أمام باب المستشفي، طلبت منها أن تخطر والدي في الجناح ١٢؛ ليحضر معها، قبلت ليليان الفكرة ،ذهبت إلى الفندق ،أحضرت حقيبة والدها، حضر أبي معها.

جلس والدي على كرسي بجانب سرير السيد الشاهر بعد أن حمد الله على نجاح العملية، انشغل أبي وأبو ليليان بالحديث عن الذكريات، انصرفت مع ليليان جانبا نراجع وقع الأحداث المتلاحقة، قلت لها:

-دعيني أسلم الشيك لإدارة المستشفى، أرجو ألا يكون قصد أبيك بإحضار حقيبته الخاصة هو دفع تكلفة المستشفى، لا يا ليليان سأقوم بدفع كل التكلفة.

-حبيبي خالد أنا أعرف كرمك وشهامتك ومقدرتك، لكن لا تدفع الآن، ننتظر الغد؛ لمقابلة المدير شخصيا.

-أمرك يا ليليان، لكنني أشعر بشيء لا اعرفه.

-سأخبرك حبيبي، نحمد الله أن الأمور تسير من أحسن إلى أحسن.

قبل أن أردَّ على ليليان، أقبلت علينا الممرضة ، تحمل أوراقًا في يدها:

-نتيجة فحص الدم تمت، ليس هنالك تسمم أبدا، لكن أظهرت التحاليل شيئًا اخر، أبشركم به، مبروك يا مدام ليليان، فأنت حامل.

-نعم ... أنا حامل!؟!

-هذه هي النتيجة ،ألف مبروك.

استلمت الأوراق من الممرضة بين المصدق والمكذب، وقع المعلومة كان مفاجأة لم أتوقعها، رغم إرهاصات ليليان السابقة، كان لابد لي أن أقول شيئًا لليليان التي ظلت صامتة، ممسكة ببطنها الضامر، تنظر باستغراب:

-مبروك علينا يا ليلإيان ... الحمد لله أن المعلومة وصلت ونحن وحدنا دون علم أبي وأبيك.

-كنت أمزح معك في موضـــوع الحمل، فها هو الآن حقيقة، ماذا نفعل يا خالد، أبي مريض الآن، ودراســة الجامعة ورعاية أمي وأهلي؟!

-لا تهتمي يا ليليان ... ما دامت لنا المقدرة على حل مشــاكل الأخرين، فهذا الموضوع مقدور عليه، لنترك الخبر السار بيننا يا حبيبتي.

انتحيت مع ليليان جانبا بعيدا عن رؤية أبي وأبيها، ضممتها إلى حضني بحنية، قالت بعفوية:

- اعمل حســابك يا خالد لا تضــغط على ابنتي، أحبها شــبيهة لأمك الجميلة إن شاء الله.

- بإذن الله ستكون أجمل طفلة أو طفل في الوجود، تصـوري لو كنا بجانب سرير أبيك وسمع الخبر من الممرضة!!

- أي نظريـة خلقت هذه الظروف يـا ربي هـل هـذا حلم أم علم؟!

- قصـــتنا يا ليليان تذكرني بملحمة جلجامش الأســـطورة الســومرية التي دونت على ألواح من الطين قبل ســتة وعشــرين قرنًا قبل الميلاد.

- اترك الأســاطير جانبا يا خالد، ماذا يقول ماركس في كتابه رأس المال عن هذا الوضـع الذي نحن فيه، ما أعرفه أن الإسلام يأمر برجمنا سويا، يا إلهي.

نادى عليَّ والدي، طلب اســتعمال الحمام، ذهبت معه خارج الحجرة، تركت ليليان مع أبيها ،حقيبته لاتزال بيده، بعد رجوع أبي من الحمام، طلبت إدارة المستشفى مغادرة الزوار، ودع أبي السيد الشاهر كما ودعته أيضا، حاولت ليليان مع إدارة المستشفى؛ ليسمح لها بالمبيت مع والدها، لكن قوانين المســتشــفى لا تســمح، ودعت ليليان أباها أيضــا، قبل مغادرتها، ســلمها أبوها، حقيبته الخاصــة، طلب منها مراجعتها.

خرجنا من المستشفى ،أوصلنا والدي إلى الفندق ،توجهنا سويا إلى الفيلة، كانت ليليان مرهقة إلى درجة أنها نامت على كتفي في السيارة، تمكن مني العناء أيضا، لكن ضخامة الأحداث جعلتني متيقظا أستعرض وقعها على ليليان ووالدها، بجانب مسؤوليتي التي بدأت تتضخم بشكل غير متوقع بحمل ليليان.

أيقظت ليليان على باب الفيلة، دخلنا الحمام سويا، ساعدتها في أخذ حمّام دافئ، شعرها وصدرها بلطف وحنية، وضعت يدي على بطنها الضامر:

- ارتاحي على يدي ابنتي الجميلة.

ضحكت ليليان، انقشعت الهموم والأحزان عن وجهها الملائكي، بدت كالوردة التي تقبل شمس الصباح، حملتها على بشكير كبير، وضعتها في السرير، طلبت منها أن تنام من عناء ما جري منذ صباح هذا اليوم، لكنها بعد الاستحمام الدافئ استعادت حيويتها مرة أخرى:

- أريد أكل جبن مع عيش، أنا جوعانة يا خالد، أنت لم تأكل أي شيء منذ الصباح.

- حقا ... هيا بنا إلى المطبخ.

دخلنا المطبخ ، وجدنا أم محمد قد أعدت المائدة كالعادة تحسبا لحضورنا، أحضرت ليليان حقيبة والدها معها، بعد العشاء بدأت في تفقد محتوياتها كما طلب منها.

أخرجت ظرفًا به كمية من الجنيهات الإسترليني.

حسابات والدها في البنك الفرنسي اللبناني، وديعة بمبلغ ثلاثة آلاف جنيه فرنك.

حساب جاري به ثلاثة آلاف ليرة لبنانية.

البنك العثماني بالخرطوم حساب جاري عشرة آلاف جنيه مصري.

بنك طوكيو المركزي حساب جاري بالإسترليني خمسة آلاف جنيه.

بنك مصر اثنين ألف جنيه مصري.

فتحت الظرف وجدت به خمسة آلاف جنية إسترليني، رفعت ليليان راسها بعد المراجعة، ضحكت:

- يبدو يا خالد، أن أبي أغنى من حكومة السودان.

- أعتقد ذلك، ما شاء الله على والدك، من المؤكد أنه كان يعمل بجد.

- لابد من إخبار أمي بما حدث، لا بد من تحديد مكان أخي؛ ليعلم بوضع الوالد ... الأعمار بيد الله، ماذا أفعل إذا رحل والدي عن الوجود؟!

- لا ... لا يا ليليان، أبوك بخير بعد العملية، علينا الاتصال بخالك؛ لتوضيح ما صار اليوم، هو يخبر أمك بطريقته، أما أخوك فسأعمل المستحيل مع مكتب الاستخبارات في القاعدة؛ ليساعدونا في تحديد مكانه.رددت على التليفون كانت محاسن:

- أهلاً

- أهلا محاسن .

- طمئني يا خالد كيف حالة الحاج الشاهر؟

- الحمد لله العملية تمت بسلام ... أترك ليليان؛ لتكلمك.

تناولت ليليان سماعة التليفون:

- حبيبتي محاسن، الحمد لله كل شيء على ما يرام.

- الحمد لله رب العالمين ... ربنا يطمئنك يا ليليان، بالله أرجوك مروا على الصبح عشان أزوره.

- إن شاء الله ... كيف هادية.

- بخير لكن لم تعد تحب الذهاب إلى المدرسة.

- أكيد ستحب المدرسة يوما ما، لا تخافي عليها ... كلنا كنا مثلها... لك الشكر حبيبتي محاسن.

(٣٣)

حرصت على نوم ليليان بعد تعب هذا اليوم العاصف، خاصة أنها حامل، استعدادًا لقيامنا في الصباح بزيارة والدها في مستشفى السلام، تركتها في حجرة النوم ،نزلت إلى مكتبي في الدور الأرضي؛ لمراجعة برنامج عملي في الجامعة، الانتهاء من ترجمة تخص المركز الأمريكي لمقالة كتبت في الأهرام المصرية بعنوان:

- «حرب البترول» .

اتصلت أيضا بمحمد خميس في الصومال، لم أجده في المستشفى، اتصلت بالأستاذ بكري؛ لمعرفة ما تم في موضوع محمد، فقرأ لي على التليفون التقرير التالي الوارد من مكتب المحامي «عبدي حرسي»:

- إلى حضرة الأستاذ المحامي بكري الجعلي، بعد التحريات التي قام بها مكتبنا بالتعاون مع النيابة والشرطة، اتضح أن ابن عم الآنسة حليمة، هو المتهم الأول، تم اعتقاله، اعترف بجريمته من منطلق الدفاع عن الشرف، مدعيا أن حليمة خطيبته؛ لأنها خرجت عن الطوع، بدأت الارتباط بشخص أجنبي، هو المجني عليه محمد خميس، بما أن الطعنات كانت قاتلة، القصد منها قتل المجني عليه، التقرير الطبي أثبت أنَّ إحدى الطعنات أتلفت الكلي اليمنى للمجني عليه، نحن هيئة الدفاع نطالب بنصف دية لصالح المجني عليه، قدرها سبعين بعيرا، الرجاء إرسال مبلغ خمسة عشر جنيهًا استرلينيًا لحساب القضية لحين النطق بالحكم، حسب اتفاقاتنا السابقة سيكون نصيب مكتبنا عشرين بالمائة من مجمل الدية بعد خصم الرسوم والمصاريف الإدارية، مع شكرنا ،الله الموفق، المحامي «عبدي حرسي».

فقلت للأستاذ بكري:

- شكرا أستاذ بكري على مجهودك، سأرسل إليك شيكًا بالمبلغ مع السائق غدا، يعني ذلك أن محمد خميس بخير، نتوقع وصوله هنا في الأسبوعين القادمين؟!

- نعم يا دكتور إذا سارت الأمور بشكل طبيعي، ألف سلامة على والد ليليان، أخبرتني محاسن بالموضوع.

- نعم سنكون جميعنا غدا ،معنا محاسن في المستشفى، هنالك موضوع مهم جدا وهو أن الحاج الشاهر سلم ابنته ليليان أوراق أعمال ومستندات وحسابات البنوك التي يتعامل معها وهو طريح الفراش في المستشفى، فلا أنا ولا ليليان نعرف ما الصفة القانونية التي تترتب على ليليان بهذه المسؤولية الضخمة، للشيخ الشاهر أرصده ومدخرات مالية تفوق الخمسين ألف جنيه إسترليني.

- يا دكتور مرت علينا مثل هذه الحالات، الموقف يدل على أن الحاج الشاهر له شعور بدنو أجله، كما تعلم هو فوق الخامسة والثمانين سنة، إذا سلم ليليان المستندات طوعا، معناه تفويض قانوني، يجب على الحاج الشاهر التوقيع عليه لصالح ابنته نيابة عنه، مع كل الجهات التي يتعامل معها، إذا لا قدر الله . رحل قبل التوقيع، فهنالك طريق آخر لكنه أطول ،مكلف، ربنا يجيب العواقب سليمة.

- شكرا على المعلومات ،سأخبر ليليان بالتفاصيل.

- من جانبي سأخبر أحد العاملين بمكتبي؛ لتحضير التفويض، خاصة أن صور بطاقة وجواز ليليان عندنا في المكتب منذ تسجيل الزواج المدني لكما قبل أسبوعين في مكتب البلدية، سأرسلها لكم.

- ألف شكر، أرجو ألا تفهم ليليان، أن الوثيقة طمع منى في أموال أبيها.

- لا أعتقد ذلك يا دكتور، ليليان شابة متفتحة، قوية، واقعية كما عرفتها، فأنت لك من المال ما يغنيك عن أي مطامع.

- شكرا أستاذ بكري، الى اللقاء غدا.

بعد إنهاء محادثاتي التليفونية وإرسال الترجمة بالفاكس إلى المركز الأمريكي، صعدت إلى الطابق الثاني ، دخلت حجرة النوم بحذر شديد، خوفا من إزعاج ليليان ،هي تغط في نوم عميق، تسللت إلى السرير دون إزعاج، كان نومي متقطعا وأنا أستعرض شريطًا مزعجًا من تراكم الأحداث ،ضخامة المسؤوليات أمامي ،فوق كل ذلك، ليليان حامل.

في الصباح أفقت من نومي متأخرا، وجدت ليليان سبقتني إلى المطبخ تراجع محتويات حقيبة أبيها ،أمامها كوب من القهوة، جلست بجانبها، ضممتها، قبلتها، شرحت لها ما دار بيني وبين الأستاذ بكري، وجدتها على وفاق معي، بعد خمس دقائق جاءت أم محمد تحمل الوثيقة التي أرسلها الأستاذ بكري مع سائقه إسحاق حسب اتفاقنا ليلة البارحة، قرأت ليليان الوثيقة:

- هذا منطقي يا خالد، لكن يصعب على تقديمها لوالدي، ماذا يقول!؟!

- مدرك موقفك يا ليليان، مادام هذا شعورك، ليس من الضرورة تقدميها إليه، ربنا يحفظ أباك.

- أدعو الله؛ ليظل أبي بصحة جيدة، عمر أطول، ليرى ابنتي الجميلة القادمة.

تلمست بطن ليليان الضامر من تحت معطف النوم، قبلتها:

- إن شاء الله.

رجعت ليليان إلى حجرة خزانة الملابس؛ لتحضير نفسها للذهاب إلى المستشفى، جلست وحدي في المطبخ أتناول قهوتي التي أعدتها أم محمد، يرن التليفون ،كانت محاسن:

- أهلاً محاسن

- يا خالد أسرع ولا تكلم ليليان بالتفاصيل، اتصل المستشفى الآن برقم ليليان الخاص، يقولون الحاج الشاهر حالته متأخرة جدا، يريدون حضور ليليان فورا

- لا حول ولا قوة إلا بالله ... ما هذا الخبر؟! فورا سأكون في المستشفى.

- سأحضر بسيارتي.

- مع السلامة، ربنا يستر.

دون إخبار ليليان بالخبر، لبست بسرعة، خرجنا سويا إلى البوابة حيث انتظرنا السائق، أحضرت ليليان معها حقيبة والدها الخاصة، في أثناء المشوار كانت ليليان تتكلم بتردد في موضوع الوثيقة، التي من المفترض عرضها على أبيها، وأفقتها بعدم تقديمها؛ لعلمي أن الحاج بحالة متأخرة.

وصلنا ،اتجهنا سويا إلى حجرة العناية المركزة، فوجئت ليليان بوقوف الأطباء حول سرير أبيها، لكنه كان صاحيا، عرفت منهم أن حالته تحسنت نسبيا بعد ضخ دم إضافي، رفع الحاج الشاهر يده أمسك بليليان:

- الأعمار بيد الله يا ابنتي، أحضري ورقة وقلمًا ،اكتبي ما أمليه عليك.

نيابة عنها أحضرت الورقة؛ لأنها كانت في قبضة أبيها، بلغة قانونية رصينة ،بصوت محشرج، أملى الحاج الشاهر وصيته، أنا أكتب نيابة عن ليليان، كانت الوصية بنفس المعنى الذي صاغه مكتب الأستاذ بكري، بعد الانتهاء طلب أبوها قلما للإمضاء عليها، فكت ليليان يدها من قبضة أبيها، في عملية ذكية سريعة بدون تردد فتحت حقيبة أبيها الخاصة، أخرجت ختمه الخاص، سلمته الوثيقة المطبوعة، المحضرة من جانب المحامي بكري بدلا من التي كتبتها بالنيابة عنها، ختم عليها في المكان المطلوب، بعد ذلك وقع بقلم أعطته له ليليان كان في حقيبته، قال بصوت متقطع:

- الثلاث عمارات في سوق الخرطوم مسجلة باسمك، عمارة الخرطوم بحري وبورتسودان مسجلة باسم أخيك.

- الله يطول عمرك يا أبي، يحفظك لنا.

- اتصلي بأمك ،أخبريها اليوم، أخوك الله يهديه ساعديه يا ليليان في الابتعاد عن الخرافات الدينية التي يعيش فيها.

- إن شاء الله ... أعدك يا أبي.

- اهتمي يا ابنتي بخطيبك الدكتور خالد... إنه رجل شهم ، كريم ،مهتم بك، أنا آسف على ما قلته عنه ،أستغفر الله لعله يسامحني.

- نعم يا أبي ... هو بجانبي الآن يستمع كلامك.

حضر والدي وأمي مع السائق من الفندق، حضرت أيضا محاسن ، معها الأستاذ بكري، في حجرة الاستقبال في المستشفى سلم الأستاذ بكري على أمي ووالدي الذي يعرفه بكري منذ أن كان طالبا بالجامعة، نظمت الدخول واحدا تلو الآخر؛ لمواساة ليليان ،مشاهدة والدها المريض، ظل الجميع يدعون ،يصلون لشفائه.

عندما دخلت مع أبي، وقفنا سويا في جانب السرير، ليليان تقف من الجانب الآخر، بدأ الحاج الشاهر يردد فضائل أبي عليه، كيف ساعده في توسيع عمله، تسهيل استيراد الأقمشة لملابس الشرطة، في السودان لكل المناقصات السنوية، التي تطرحها وزارة الداخلية.

لاحظت امتعاض أبي وهو يستمع إليه، كأن سرا خفيا كان يربط أبي وكيل وزارة الداخلية بهذا التاجر النافذ، لم أهتم كثيرا إلا عندما قال:

- سيادة اللواء إبراهيم، يشرفني ارتباط ابنك الدكتور خالد بـ ابنتي ليليان، أرجوك تأخذ بالك منهما، الزمن غير معروف، الأعمار بيد الله.

- يا حاج الشاهر اطمئن، ربنا يجيب العواقب سليمة.

يا الله، أبي ينافق ،أبوها ينافق أيضـــا في هذه اللحظات، يا له من عالم لا يستحي، أين الإسـلام ،أين الوقار في هذه السـن؟! لا أنتظر الإجابة من أحد، كدت أقول للحاج الشاهر:

- ألم تصفني، وتصف أبي، بالعبيد، أيها المنافق؟!

في تلك اللحظة كان على أن أنافق مثلهم بأضعف الإيمان، أن أتظاهر بالأدب ،ألزم الصمت.

حتى الخطة التي وضعتها مع ليليان، لمكاسب شخصية، سعينا إليها معا ،حققناها، هي أيضـــا نوع من النفاق، يا الله ... مجتمع مسلم، منافق، لا يعرف الشفافية من قريب أو بعيد، بالرغم من نبل ليليان الشـفيف، وبالرغم من شـخصـي المصـدوم، أنا وليليان جزء من نســيج تاريخ كاذب، ســكت عليه الذين خلفونا ،نحن الآن لا نستطيع السكوت عليه.

ألم نتعلم في الصف الأول من أبجديات الإسلام!!

«إذا بليتم فاســتتروا، اقضــوا حاجاتكم بالكتمان» بدلا عن «إذا بليتم بشـــيء فتكلموا وابحثوا عن العلاج، أو اقضـــوا حـاجـاتكم بالشفافية والوضوح.

« نعم ... ممن الاستتار؟! على من الكتمان؟!

فليس غريبا في ظل مجتمع كهذا، أن تعشـــش العنصـــرية والعبودية، مثل التي عاشتها جدتي مستورة في حوش جدي النايد، مهانة محقرة، رحلت قســرا، نزع من حضـــنها أبي وهو طفلها الوحيد.

بينما أنا ساه، أتجول بفكري مستهجنا المجتمع ،فهمه الخاطئ للممارسات الحياتية، جذب أبي يدي ،هم بالانصراف، أخذته خارج الغرفة، أشرت للسائق بتوصيله مع أمي إلى الفندق، اعترضت أمي، ،طلبت الذهاب إلى فيلتي بدل الفندق لكي يراها أبي بعينيه، اتجهت العربة إلي حي جونيا، اتصلت بأم محمد لتستقبلهما ،تهيئ لهما الطابق الثالث بأكمله.

(٣٤)

في طريقي بعد المحادثة التليفونية، راجعا من مكتب الاستقبال، إلي حجرة والد ليليان المريض، قابلت عرضا مدير المستشفى الذي تفادى الحديث معي، لم أهتم بأمره ،أنا مثقل بهموم لا يعلم بها إلا الله، لكن تأكدت أن ثمة إساءة عنصرية بخصوصي تفوه بها هذا القزم أمام ليليان، شعرت فجأة بدافع قوي يقودني إلي مكتبه؛ لتصفية حسابي معه، بدون مشورة ليليان، بدون معرفة الأسباب، اقتحمت بقامتي الفارعة مكتبه، بدون تصريح، هب المدير واقفا من الخوف أمامي، تظاهرت بالشر والانتقام، كأني عرفت من ليليان ما دار بينه وبينها، قلت له بصوت عدواني أشر:

- لماذا ... لماذا؟!

- أنا متأسف يا دكتور ... لا والله لم أقصد أي شيء ... تقبل أسفي يا دكتور.

- لماذا أتقبل أسفك ؟! لماذا تكلم زوجتي بهذا الأسلوب الفج؟!

- ليس لي ما أقوله أكثر من إنني متأسف.

- إن لم يرق لك لوني الأسود، فستعلم من أنا الآن، ماذا تريد منا غير دفع شيك.

- متأسف ،لا أريد منكم دفع الشيك، أرجوك يا دكتور.

- أنت جبان ،حقير ،ندل ... لا تتفضل على بمالك ... فأنا يمكنني أن أشتريك أيها القزم.

في تلك اللحظة دخلت سكرتيرته، يبدو أنها سمعت صوتي، أمامها بصـــقت على ،جهه وخرجت، وجدت ليليان في الممر تبحث عني، أخبرتها بما حدث، طلبت مني تحرير الشيك ،أخذته معها، اســـتأذنت مني ، دخلت مكتب المدير، مدت له الشـــيك، عندما أحجم عن استلامه وضعته على الطاولة:

- إنك قزم حقير.

خرجت من مكتب المدير، دخلنا ســويا حجرة الحاج الشـــاهر ، تحســن كثيرا بالمقارنة بوضــعه صــباح اليوم، قررت ليليان طلب أمها من تليفون المســـتشـــفى وتحويل المكالمة إلى حجرة أبيها، أخبرتها بما حدث، أعطت التليفون لأبيها الذي استمر في الحديث.

خرجت مع ليليان إلى الممر، من فرط التعب جلسـنا على أريكة جانبية، بمبادرة من ليليان ناقشـــنا ســـويا أســـوأ الاحتمالات، في موضـوع أخيها، قررنا طلب مسـاعدة المسـتر كاسـبر من القاعدة؛ ليوافينا بأخباره عبر الفاكس.

ونحن جلوس، حضـرت سكرتيرة المدير، تحمل مظروفا سلمته إلى ليليان، ثم انصــرفت، كان داخل المظروف نفس الشــيك الذي تركته ليليان على طاولة المدير، بسرعة تلقائية؛ لتصفية حسابها مع مدير المســتشــفى، أخذت ليليان الشــيك، ذهبت إلى مكتبه، مزقته أمامه، رمته على وجهه، رجعت، كانت ليليان تعرف مدى مذاق المر مما نحن فيه من الأمر الواقع، فلم تصـــارحني بما أســـمعه لها مدير المســتشــفى الحقير من العبارات العنصــرية، لم أصــر على معرفة التفاصيل.

مع توقع الأسـوأ للحالة الصـحية للحاج الشـاهر، سـكوتي أمام ليليان، لعدم التفرغ الكامل لأعمال والدها، قررنا ســـويا إيداع المستند الذي أصبحت ليليان بموجبه وكيلة عن أبيها، لدى المحامي بكري؛ لدراســـته ومخاطبة البنوك والوكالات التجارية وشـــركات الأسهم نيابة عن ليليان، في تغيير التوقيعات والملكية،

قررنا إرســال تذاكر لأم ليليان السـيدة ليلي الخاشـوقي ،لابنها يوسف لخالها محمود وزوجته فتحية؛ للحضور في طائرة الشرق الأوسط غدا، فعلا حضروا جميعهم.

تم إلغاء حجز جناح والد ليليان في بيروت هيلتون، تم تخصيص الطابق الأول بالفيلا له ولزوجته، معهم يوسف ابن ليليان أيضا، أما خال ليليان محمود وزوجته فتحية، خصـصـنا لهما الطابق الثاني، أبي وأمي وشـخصـي في الطابق الثالث، ليليان مع ابنها في حجرة واحدة في الطابق الأول بجانب أمها وأبيها، تم المخطط بأكمله، أحضـرنا والد ليليان إلى الفيلة برفقتنا بالإسـعاف، معه ممرضـة خاصـة تتابعه أربعة وعشرين ساعة، جلسنا في المسـاء كلنا في صـالون الطابق الأول نتناول الشـاي والمرطبات؛ لنشـارك الحاج الشاهر التهنئة على سلامته، فتحية وزوجها محمود خال ليليان كانا دائما أروع المستأنسين بالنكات والضحك، أنا وليليان نشرف على الخدمات المقدمة لضـيوفنا ،حسـن أداء خدم الفيلة، في اليوم الثالث من إقامة الجميع في الفيلة، طلبني أبي وهو جالس بجانب الحاج الشاهر:

- يا خالد أنا وعمك الحاج الشـاهر قررنا مباركة زواجك بليليان.

ثم أردف الحاج الشاهر:

- يا ابني الله يوفقكم، ليليان أمانة في رقبتك، كذلك ابنها يوسف، انت يا ابني جدير بالمسؤولية.

تدخلت بكل أدب:

- مع شـكري واحترامي، لا أوافق إلا بموافقة ليليان أولا، فهل يمكن أناديها الآن؟

الاثنان بصوت واحد:

- نعم، ادعها تحضر.

- لا أوافق إلا بحضور كل الأسرة هنا.

في أقل من خمس دقائق دخلت أمي ،فتحية ،أم ليليان، هزت الزغاريد أرجاء الفيلة ثم دخل محمود ،اقترح فورا:

- لنقرأ الفاتحة الآن، ألف مبروك.

رفع الجميع أيديهم إلى الله ،قُرئت الفاتحة، وزعت أم محمد والسيدة مسيلة، الشربات على الجميع، الحاج الشاهر على السرير، بجانبه الممرضة وزوجته، أبي وأمي يتهامسان بارتياح وهما جلوس على أريكة قريبة من سرير الحاج الشاهر، تركت ليليان في وسطهم، دخلت مكتبي، طلبت الأستاذ بكري؛ ليسعفنا بمأذون شرعي بأسرع ما يمكن، فتحت الخزانة، أخرجت الدبل الذهبية المرصعة بالماس التي لبسناها في زواجنا المدني السابق واضطررنا لإخفائها عند زيارة والدي ووالد ليليان.

رجعت إلى مكاني، جلست بجانب ليليان، كانت دموع الفرح تنهمر من مقلتيها، تحتضن ابنها يوسف، قامت أمي ،أطلقت زغرودة مدوية ،قبلت ليليان، قبلتني، ثم تبعتها أم ليليان بزغرودة أخرى، قمت من مكاني ،جلست عن يمين أمي، أعطيتها الصناديق المخملية، بداخلها الدبل، أقبلت ليليان، جلست عن شمال أمي، تحت وابل من الزغاريد والتبريكات والقبل، ألبَستُ ليليان خاتم الزواج الشرعي كما ألبستني هي أيضا، تلك اللحظة التاريخية التي ناضلت من أجلها مع ليليان يدًا بيد، خطوة خطوة، كانت لحظة النصر التي طوعنا فيها المستحيل، توجنا ما خططنا له أمام والدي ووالد ليليان، رغم التعنصر الأجوف من كليهما.

الحالة الصحية التي أقعدت والد ليليان، لم تسمح لنا بإقامة حفل عشاء حول المسبح على السطح كالعادة، قام متعهد بعمل ما يلزم في حديقة الفيلة، حضر بكري ومحاسن ،معهما المأذون، تمت المراسم ، وقعنا على عقد الزواج الشرعي بشهادة أبي وشهادة الحاج الشاهر، أحاطت الزغاريد بنا من كل الاتجاهات، خاصة فتحية التي سيطرت عليها الفرحة أكثر منا جميعا.

في التاسعة مساء اضطررنا إلى حمل سرير الحاج الشاهر إلى حجرته، باشرت الممرضة الفحوصات اليومية والجرعات المقررة له من الطبيب، واصل الجميع الفرح والغناء والرقص بعد وصول صني وجستن ومريم الصومالية وخطيبها، أنا وبكري كنا نشرب سرا مع ضيوفنا خوفا من أبي، في الحادية عشرة استأذن أبي ،انصرف إلى حجرته، أحلو الرقص والشرب حتى الساعات الأخيرة من الليل، تشاورت ليليان بصوت خافت مع خالها محمود:

- ألا تعتقد يا خالي إسلاميا، أننا زوج وزوجة؟!
- نعم أؤكد لك ذلك، هذه ليلتك يا ليليان.
- أتقصد ليلة الدخلة.
- نعم ... لك الحرية فيما تريدين.
- أتسمع يا دكتور خالد!؟!

حان الانصراف، كانت الساعة الثانية صباحا، اقترح الأستاذ بكري مرافقته، قضاء بقية الليل في الطابق الثالث بفيلته، كذلك اقترح جستن وصني نفس الشيء لكن اعترضت ليليان؛ لأسباب أعرفها، استقر الرأي تحت إصرار ليليان الذهاب إلى شقتي في نصف البلد، لكن محاسن لفتت نظرها أن علينا التواجد في الفيلة ساعة الإفطار على الأقل، بعد مسافة الشقة لا يتيح ذلك.

استقر الرأي أخيرا أن يظل كل واحد منا في مكانه، إرجاء قصة الدخلة إلى يوم آخر، ذهبت ليليان ،نامت بجانب ابنها يوسف، دخلت مكتبي؛ لمراجعة بعض الأشياء ،إضافة بعض الفقرات الهامة إلى قصة جدتي مستورة، جهاز الفاكس جمع كمية من المواد للترجمة، بدأت في فرزها، وجدت بين الأوراق

رد المستر كاسبر من فرع المخابرات بما يخص استفساري عن شقيق ليليان ، وجدت:

الاسم – ناصر.

اسم العائلة – الشاهر.

الجنسية –سوداني.

تاريخ الميلاد ١٥ مايو ١٩٣٠.

مكان الميلاد –الخرطوم.

الوضع الاجتماعي – متزوج.

التحق بجماعة التكفير والهجرة في السعودية ثم انتقل إلى أفغانستان.

وجد مقتولا في معسكر التجنيد.

تاريخ وفاته غير معروف.

صورة من شهادة الوفاة مرفقة.

تطلعت إلى شهادة الوفاة، شعرت بصدمة، برغم أني لا أعرف ناصر ،لم أقابله في حياتي، كيف يمكنني نقل الخبر إلى أخته ليليان ولأمه وأبيه؟، هذا يوم زواجي، لا بد من كتمان الخبر على الأقل في هذه الأيام، والجميع ضيوفي، يحتفلون بزواجنا، في البريد المكتوب وجدت تقريرًا مرسلاً من مكتب المحامي بكري بخصوص محمد خميس الموجود حاليا بمدينة هرجيسة في الصومال، مرسل من مكتب المحامي عبدي حرسي، صدمت صدمة ثانية وأنا أقرؤه:

السيد المحامي بكري الجعلي، أرسل إليكم التقرير الأول بعد الجلسة الأولى في قضية المجني عليه محمد خميس، بما أن القضية تُنظر في المحكمة الشرعية في هرجيسة، قابلتنا إشكالية قانونية شرعية مفادها:

مقادير ديات النفوس:

١-دية الرجل المسلم الحر: مائة من الإبل.

٢-دية المرأة المسلمة الحرة نصف دية الرجل: خمسون من الإبل.

٣-دية الكافر سواء كان كتابياً كاليهود والنصارى، أم غير كتابي كالمجوس وعباد الأصنام، نصف دية المسلم: خمسون من الإبل.

٤-دية نساء الكفار نصف دية رجالهم: خمس وعشرون من الإبل.

٥-دية العبد الرقيق قيمته، أي سعره الذي اشتري به أو يحدده السوق، سواء كان ذكراً أم أنثى، كبيراً أم صغيراً.

على ضوء هذه القوانين الشرعية الملزمة، فإن المحكمة تنتظر منا صكا مختوما من المحكمة الشرعية في البلد الذي جاء منه محمد خميس، يبين قيمته المادية أو سعره كرقيق مملوك، من مالكه الشيخ الشمهري.

إفادتكم لنا ضرورية لكي نواصل الترافع في القضية،

مع الشكر المحامي «عبدي حرسي».

يا للحسرة ... شعرت بعبرة تخنقني، غُصة عميقة جارحة رجحت على كفة النصر الذي حققناه أنا وليليان أمام أهلي وأهلها، محت حتى الفرح والبهجة داخل أعماقي، لا أصدق أن الدين قد فرق بين الناس حتى في الممات ناهيك عن الحياة، لابد أن هنالك خطأ ما.

تناولت ملف قصة جدتي، راجعت بعض الشرائع الدينية الموثقة، قمت بإضافات جدلية إلى قصة جدتي مستورة، تربطها بمعاملة المحكمة الشرعية في الصومال حيال المجني عليه المملوك محمد خميس، بذلك تكون قصة جدتي في بابها الأخير، جاهزة للنشر نهاية هذا الأسبوع، جلست مدة نصف ساعة، أراجع ،أتأمل الأحداث البركانية، التي مرت على برامجي هذا الشهر، تسللت بهدوء إلى الطابق الثالث، حيث ينام أبي وأمي، نمت متوترا حتى الصباح.

تقابلنا جميعنا في مطعم الطابق الأرضـــي، أمي تراقب الخدم تدير عملية فطور العريس كما تتبع في العادات الســـودانية، والدة ليليان كانت طيلة الوقت تتعامل بأدب الضـــيفة ،النســـيبة، فتحية المســـاعدة النشـــطة لأمي، لم تتوقف عن الطبخ ،تحضـــير الأطباق الســـودانية الخاصـــة، والد ليليان يجلس على الكرســـي المتحرك، بصـــحبته الممرضـــة، أبي لا يزال في دهشـــته وعدم تصـــديقه لما يجري أمـامـه، لا يتكلم كثيرا ،لا يعلق أبـدا، خـال ليليـان محمود الدينامو المحرك للجميع، كان المشـــجع لي ولليليان على ممارســـة حقوقنا المشروعة، دون خجل أو اعتبار للعائلتين.

أعدت أمي أطباقًا خاصـــة لي ولليليان، أصـــرت على جلوســـنا لصـــق بعضـــنا، بخور الصـــندل يعطر الجو بعبق الفرح والبهجة، شـــعرت ليليان بعدم تركيزي، لكنهـا اســـتمرت في أداء دورهـا كعروس دخلت قفصـــها الذهبي ليلة أمس، أما أنا فلا أزال أعيش هول ما علمته عن موت أخيها في أفغانســـتان، مأســـاة قضـــية محمد خميس، بالرغم من ذلك، تجاوبت مع ليليان بالقدر المســـتطاع ضـــممتها بســـاعدي الأيمن بمرأى من أبيها وأمها ووالدي، انضـــم محمود إلى جانب ليليان الأيسر لتشجيعنا على الأكل.

بعد الإفطار دخلت مكتبي على انفراد، اتصلت بالأستاذ بكري:

- صباح الخير أستاذ بكري.

- أهلا يا عريس ... أرســـلت إليك تقريرًا بخصـــوص محمد خميس وما تم في الجلسة الأولى.

- نعم وصلني ،قرأته، من رأيي ألا نصعد الموضوع.

- أعتقد أيضـــا لا لزوم للمطالبة بالدية ... يقوم محمد بالعفو عن الجاني؛ لنخرج من موضوع الدية.

- أخاف أن ترفض المحكمة الطلب ما لم يكن صـــادرا عن الشـيخ الشـمهري الذي يملك محمد خميس، كأحد أرقائه حسـب الشــريعة، ما يهمني حقاً هو حضــور محمد إلى بيروت، حتى شقيقة مريم ليس بالضرورة أن يتزوجها، أمامه فرص كثيرة.

- دعني أفكر يا دكتور في الموضــوع، لا تهتم، أنت عريس ضع همك كله في ليليان.

- ضحكت ... أكيد أستاذ بكري، لك الشكر.

(٣٥)

على أبواب عطلة الجامعة ،قرب أعياد الكريسماس، اصطحبت ليليان في الصــباح إلى مكتبي بشــعبة الرياضــيات؛ لإنهاء بعض الأمور الإداريـة، في الطريق طرحـت عليهـا فكرة تعيين خـالهـا وزوجته فتحية في إدارة مكتبنا الذي سميناه «الشبكة الدولية لتحرير الرقيق» الذي قررنا تأسـيسـه في شـقتي القديمة، اسـتقبلت ليليان الاقتراح بالفرحة، وافقت أن تقوم بنفســها بعرض الوظيفة، على مبدأ الصــراحة المتفق عليه بيننا، عدم كتم الأســرار، نحن في السيارة بعد تردد، ضممت ليليان بذراعي، بمقدمة موجزة عرضت عليها الوثائق التي توضح موت أخيها في أفغانستان، بكت المسكينة حتى بللت دموع الحزن ملابســها، طلبت مني الرجوع إلى البيت، برغم حزنهـا العميق، اتفقت معي على عدم إخطـار أمهـا وأبيهـا بالخبر في هذه الأيام.

رجعت على الفور معها إلى الفيلة، غســلت وجهها، ملابســها ، ســلمنا على الجميع ، دخلنا المكتب، وجدت رســالة صــوتية من صــديقي مايكل جبير، طلب مني تحضــير الســيدة مســيلا والدة مجدولين للســفر إلى أمريكا بعد أن اكتملت أوراقها، أوضــح أن مستر كاسـبر في القاعدة سـيتصـل بي؛ لمقابلتها ،تسـليمها وثائق سـفرها، ظلت ليليان صــامتة على شـجنها في فقدان أخيها، لم أجد الكلمات المناســبة لأســاعدها، لكن دخول خالها محمود وزوجته ،فتحيه إلى المكتب غيَّر المشهد.

محمود رجل واســـع الأفق، ذو تفكير حر ،طرفة لا تفارقه، لم يعرف بعد عن موت ابن أخته ،قال لي بطريقة عفوية وهو يضحك:

- يا دكتور خالد ... من أين لك هذا؟!

ردت عليه ليليان:

- أتريد يا خالي أن تكون لك ثروة أيضا مثل خالد؟!

- يا ليت ... لقد تعبنا من الكدح والتقشـــف مع الكادحين في السودان.

- هل تقبل أنت وفتحية العمل معنا؟

- نعم ... وفتحيه أراها ملت حياة الفقر الذي نعيشه.

ضحكت فتحية:

- يا ليليان شـــوفوا لنا طريقة، لا نملك بيتًا حتى الآن، غير حوش أهلي ،نحن نعيش معهم:

- شرف لنا لو مثلكم ،بمستواكم يعملون معنا.

- نحن على استعداد

- ستقوم ليليان بتقديم عرض إليكما اليوم، أنا وليليان ممتنون لدعمكم المعنوي لنا والوقوف بجانبنا.

بينما كانت ليليان تكتب العرض على مكينة الطباعة، يرن جرس التليفون ،كان المتكلم الأستاذ بكري:

- أهلاً

- بكري معك يا دكتور.

- أهلا ... كنت في انتظار مكالمتك.

- موضــوع محمد خميس تمت تسـويته، قبلت المحكمة عفوه عن الجاني ابن عم حليمة.

- الحمد لله

- الطريف في الموضـــوع أن والـد حليمـة وجد في محمد الرجل الأنســب لابنته بعد أن أعلن عفوه عن الجاني، بذلك توقع وصوله قريبا بعد إنهاء مراسم الزواج.

- يا إلهي ... رُبَّ ضارة نافعة، أنا سعيد بالنتيجة.

- قبل حضــوره أقترح حجز جناح له في الهيلتون؛ لقضـــاء شـــهر العســل، بعد ذلك له الخيار مع زوجته في اختيار الســكن المناسب لهما.

- فكرة رائعة، سأكون عندك في المكتب غدا للتسوية المالية ... مع الشكر، مع السلامة. بعد الانتهاء من محادثتي مع الأستاذ بكري .

انتهت ليليان من طباعة عقد العمل، ســـلمته لخالها، أعطت نســخة أخرى لزوجته فتحية، لم يصــدق محمود عشــرين جنيهًا استرلينيًا مرتبه الشهري ،مرتب فتحية عشرون جنيها أيضا زائد السكن والسيارة، زغردت فتحية، ضمت ليليان إلى صدرها.

يرن تليفون آخر من بكري:

- ألو دكتور خالد ... وصلتني موافقة البنك الفرنسي ببيروت على تغيير توقيع الحـاج الشـــاهر إلى ابنتـه ليليـان، إذا أمكن حضورها فورا؛ لأن المدير في انتظار إجراء تغيير التوقيع، وإذا كانت هنالك أي إيداعات تريد القيام بها اليوم.

- لا مانع، دعني أسأل ليليان أولا.

- في انتظارك على السماعة.

أخبرت ليليـان، وافقـت على المقـابلـة، اقترحـت أيضـــا اصطحاب خالها وفتحيه لمعاينة الشقة التي سوف تكون سكنًا لهما، المكتب المقترح ونحن في طريقنا إلى البنك، رجعت إلى بكري:

- عفوا أستاذ بكري، لنتقابل فورا في البنك الفرنسي، مسافة الطريق.

ركبنا كلنا مع السائق، أخذت ليليان حقيبة والدها معها، بها النقود، وثائق وسندات مالية، تركنا محمود وفتحية في السيارة، دخلت مع ليليان البنك، تمت كل الإجراءات اللازمة، أخذت دفتر شيكات جديد ،بطاقة بنكية جديدة ، وضعت المستندات المهمة في صندوق خاص في البنك، اتفقنا مع بكري على المقابلة غدا للتسويات المالية بيننا وبينه، توجهنا إلى شقتي التي أدهشت محمود وفتحية، قرر محمود البدء فورا في عمله من يوم الغد، سلمته الملفات الخاصة بمحمد خميس الموجود في الصومال قادما من الخليج مسقط رأسه، السيدة مسيلة والدة مجدولين، ملف الإنشاءات التي يقوم بها عمي في السودان ملفات خدم البيت ،السائق ،العربات التأمينات، كما قررت ليليان ، تسليمه أعمالها التي آلت إليها من والدها المريض؛ لإدارتها حتى تتفرغ للدراسة، أول شيك تحرره في دفترها الجديد كان مقدمًا إلى خالها وزوجته فتحية.

رجعنا إلى الفيلا ،كان الجميع في انتظارنا، أمي كانت في منتهى الغضب:

- يا أولاد، العريس والعروس فيهم الملائكة .، لازم عليكم الراحة في البيت، لا أريد خروج أحد منكما من هذه الحجرة بعد اليوم.

أخذتنا أمي، والدة ليليان إلي حجرتنا الواسعة في الطابق الثاني، الحجرة زينت بستائر جديدة وفرش خاص من الحرير، بخور الصندل يسيطر برائحته علي الطابق بأكمله، ملاية من الحرير غطت سطح السرير، الزهور تناثرت على طاولات الطابق بأكمله.

طلب محمود، السماح له بالرجوع مع فتحية إلى الشقة، لم أوافق على فكرته، طلبت منهما البقاء مع المجموعة، أكدت ليليان نفس الشيء، تحت إصرار محمود؛ ليهيئ لنا يوم الدخلة ،بداية شهر العسل، حمل السائق حقائبهما بأكملها، أصبح الطابق بأكمله متاحًا لي وليليان فقط، يوسف ابن ليليان مع جدته في الطابق الأول، استمرت أمي تحاضر ليليان عن واجبات العروس، كيف تجعل من يوم الدخلة بهجة لها ولعريسها، انفردت أم ليليان بابنتها في الحجرة الثانية، ألبستها قميص نوم أحمر شفاف اختارته من حجرة الملابس الملحقة، قامت بتسريح شعرها ،تدليكها بالعطر والصندل.

بعد ساعة انصرفت أمي وأم ليليان، دخلت ليليان إلى حجرة النوم، كأنها نجمة سـعد متوهجة نزلت من السـماء في تلك الليلة المباركة، ضـحكنا في بداية اللقاء، لكن ليليان تذكرت أخاها المتوفى، بكت، لم تستطع فك جسمها المنكمش؛ ليشرح رغبته ،يفك أطرافه المنكمشة على سرير العرس، لها العذر لم أكن أنانيا شبقا، نامت على ذراعي بعد تململ طويل على السـرير المهول، تغطينا بالملاية المشـبعة بالعطور السودانية.

في الصباح كنا أول من دخل المطبخ، بعدنا دخلت أمي متعجبة من سلوكنا، أمرتنا بالرجوع إلى السرير، لم نرضخ لطلبها، جلسنا معها نأكل ما لذ وطاب من فطور العريس، الذي قامت بإعداده شـخصـيا، حضر الجميع إلا والد ليليان، عرفنا من الممرضة تدهور حالته، لا بد من إرجاعه إلى المستشفى بأسرع فرصة.

(٣٦)

قام البواب بطلب الإسـعاف الذي نقل الحاج الشـاهر، بمسـاعدتي تحركنا بسرعة ،معي ليليان والممرضـة، أبي وأمي وأم ليليان رافقوا السائق أبا إياد، اتجهنا إلى مستشفى السلام، زحمة الطريق لم تمكنا من الوصول إلى المستشفى بالسرعة المطلوبة، باشر الطاقم إسعافاته بعناية كاملة، لكن لفظ الحاج الشـاهر أنفاسـه الأخيرة، أنا ممسـك برأسه، لم تتمالك ليليان نفسها، صرخت بأعلى صوتها أبي لا تتركنا أبي لا تذهب، الممرضـة ،طاقم الإسـعاف قاموا بكل ما يلزم من التدابير في الطريق، لا حراك للحاج الشـاهر، قمت بتغطية وجهه، دخلت ليليان في غيبوبة كاملة.

وصلنا المستشـفى أسرعت مع الممرضـة إلى العناية المركزة، حيث تم التأكد بواسـطة الدكتور المناوب من موت الحاج الشـاهر، اعتنت إحدى موظفات الاسـتقبال بليليان، أخذتها إلى حجرة وحدها، بعد عشر دقائق، وصل والدي ،معه أم ليليان وأمي، نقلت إليهم الخبر بعناية، لم تكن أم ليليان مرعوبة؛ لشـعورها بقرب أجل زوجها منذ شـهور، سـألتني عن ليليان ،أخذتها ممسـكا بكتفها، بدأت ليليان في استيعاب الحدث

حيث كان لها نفس شعور أمها، استمرتا سويا في بكاء ،حزن ذهول، انتابني شعور مفاجئ بالإرهاق اهتزت له عزيمتي ،عيل صبري على التراكم المستمر للأحداث، أمي لم تكتمل فرحتها بكل أسف، أبي ظل متشائما بوضوح من تعليقاته ،ضجره المستمر.

حضر الأستاذ بكري ومحاسن، تم إصدار شهادة الوفاة ،قام مكتب الأستاذ بكري بالإجراءات اللازمة؛ لتحضير الجثمان ،ترتيب نقله إلى السودان، اتصلت بمحمود خال ليليان ،نقلت إليه الخبر، لم يكن مستغربا؛ لأنه يعلم الحالات المرضية الصعبة التي مر بها الحاج الشاهر في الشهور الأخيرة، وصفت له عنوان المستشفى، حضر بعد نصف ساعة ،معه فتحية، احتضن أخته وليليان، كان متماسكا في تصبيرهما، فتحية أجهشت بالبكاء وهي تحتضن ليليان، نقل الجثمان إلى الثلاجة، انصرفنا جميعنا إلى الفيلا بوجوه حزينة ،حيرة مؤلمة.

جلس معي محمود في مكتبي، قمنا بالحجز للجميع مساء نفس اليوم على الخطوط السودانية، قرر محمود البقاء مع فتحية في بيروت؛ لمواصلة العمل نيابة عني ،عن ليليان بجانب الإشراف على الفيلة أثناء غيابنا، حررت له شيكا بمبلغ عشرة جنيهات إسترليني؛ للتصرف في أي طارئ، أمرت السائق وبقية خدم الفيلا بالتعاون معه، قام محمود بالاتصال ببقية أسرته ،نقل إليهم الخبر ،التحضير للمأتم.

دخلت علينا ليليان المكتب، تلبس فستانا أسود، تغطي رأسها، تمكن الحزن من وجهها ،كأنها هرمت عشر سنين في ذلك اليوم المؤلم، كانت كعادتها واقعية تتماسك سريعا بعد مرور الفاجعة، أخبرناها بالإجراءات التي اتخذناها أنا وخالها محمود، لم تعترض على شيء بل قررت إخطار خالها بوفاة أخيها في أفغانستان، أعطته شهادة الوفاة، طلبت منه إبلاغ الخبر لأمها، ترحم محمود على الفقيد، حضن ليليان، لكن طلب إرجاء الخبر لحين الوصول إلى السودان لإرساله في شكل تلغراف أثناء أيام المأتم.

بعد انصـــراف محمود وليليـان، دخـل والـدي إلي مكتبي، قـام باتصالات مطولة بمكتبه، طلب استقبال الجثمان بالمطار، طلب من مدير مكتبه مقابلة الحاج نصـار أخو المرحوم الشـاهر، الاتفاق معه في صـــياغـة عزاء المرحوم، نشـــره في كـل من جريدة الأيـام والصـــحافة والرأي العام، بمســاحة صــفحات كاملة بتوقيع عائلة الشاهر، دفع التكلفة من جيبه.

في التاسعة مساء قام أبو إياد، الأستاذ محمود بتنظيم الانتقال إلى المطار، قام مكتب الأستاذ بكري بتخليص الجثمان من المسـتشـفى إكمال الإجراءات القانونية مع القنصـلية السـودانية والمطار، ودعنا محمود وفتحيه وبكري ومحاسـن، ركبنا جميعنا في الدرجة الأولى، ليليان بجانب أمها في ملابس سـوداء، معهما يوسـف المسـكين الذي لم يسـتوعب الموقف، أمي بجانب أبي، جلســـت في مقعد خلفي وحدي، شـغلت نفسـي بكتابة مذكراتي، مر شـريط الأحداث أمامي منذ جلوســـي في نفس المقعد رقم ٩ ،بجانبي ليليان منذ شــــهور تعارفنا ،ما كان من المفاجآت ،الخطط ،المشاريع ،حب ،أمل ،تطلع للحياة إلى هذا اليوم.

فجأة أحس بربت على كتفي، رفعت رأســي، كانت ليليان تجلس بجانبي:

- أ تذكر هذا المقعد يا خالد!؟
- آه ... كيف لا أذكره يا حبيبتي؟!
- ماذا يخبئ القدر لنا ؟! يا ألله، لا طعم للدنيا في هذا اليوم.
- علينا قبول الواقع، التماسك يا حبيبتي.
- يوم عبوس ... أســرتي العنصــرية ،أســرتك العنصــرية سيتقابلان في المطار.
- لا تهتمي فلقـد انتهى كـل شـــيء ،هـا نحن أمـام الجميع متزوجان.

- نعم يا خالد ... سنصمد سويا ... عفوا ... سأرجع إلى مقعدي أعلن وصول الطائرة.

رجعت ليليان إلي مقعدها، ربطت الحزام، وصلت الطائرة، نزل الجميع، كان اللقاء مهيبا، استقبلني أهل ليليان ،خاصة عمها نصار بأحسن مما توقعت، بعضهم يبكي ،البعض يهنئني ،يهنئ ليليان بالزواج، من الواضح مهد محمود للقائنا مع أهله بتوضيح كل ما هو إيجابي، ربما طالبهم باحترامي ،شرح لهم أثناء وجود المرحوم وزوجته مواقفي المشرفة معهم، سلم الرجال علي والدي بكل احترام واهتمام بصفته وكيل وزارة الداخلية ،كنسيب، شعرت ليليان براحة نفسية عندما ضمها عمها، بارك لها ثم ترحم على أخيه.

تم استقبال والدي ببرتوكولات وزارية رسمية، بجانب أصدقاء أبي وعمي أبكر ومعه بعض طلاب الجامعة، توجهت عربة من وزارة الداخلية خاصة لحمل الجثمان ،عربات فارهة أخرى حملت أهل ليليان وأهلي إلي بيت المرحوم الضخم المطل على النيل الأزرق، أقيم سرادق عزاء أغلق الشارع بأكمله، في الواحدة صباحا، أصر عم ليليان علي والدي بالانصراف، قضيت ليلتي نائما مع بعض شباب عائلة ليليان على الأبسطة في السرادق، تم الدفن الساعة التاسعة صباحا بحضور أبي ،كبار رجالات وزارة الداخلية ،مدير مكتب أبي، بعد الصلاة على المرحوم في جامع فاروق.

ظل المأتم ثلاثة أيام، حسب عادة أهل ليليان التابعين للطريقة الشاذلية، قضيت الأيام الثلاثة معهم دون انقطاع، في اليوم الرابع كما هو متفق، أرسل محمود تلغراف خبر وفاة أخ ليليان، بالنسبة لي ولليليان كان الخبر عاديا ،لكن كان لابد لنا من مواصلة الحزن، والدته أغمى عليها، نقلت إلى المستشفى بعد سماع خبر الوفاة، أشرف عليها أحد زملائي ـــ الدكتور حسن ـــ أخصائي بمستشفى الخرطوم، بحمد الله رجعت إلى البيت في نفس اليوم.

دخل المأتم في اليوم الســـادس، كنت خلالها أقوم مع ليليان كل صــباح بالاتصــال بخالها مدير مكتبنا ببيروت، في اليوم الســابع اصــطحبت ليليان بســيارة أبي الخاصــة إلى منزلنا بحي المطار، لأول مرة أجلس مع عمي أبكر الذي حضــر؛ لمواســاتي في وفاة نســيبي ، مباركة زواجي في المطار، تعرفت علية ليليان أيضــا، أعجبت بذكائه ، بالطريقة التي شــرح بها ما تم في مشــروع عد الفرسان.

في جلســتنا تلك ،بحضــور عمي أهدت أمي لليليان عقدا من الذهب، عرفت أنه كان من مقتنيات المرحومة آمنة زوجة جدي الناير، الســيدة التي تربى أبي على يديها، العقد عبارة عن منظومة جنيهات ماريا تيريزا النمســاوي من الذهب عيار واحد وعشــرين، برغم أيام الحزن والألم فرحت ليليان بالهدية، تقبلتها بكل حب وامتنان، حضنت أمي، قبلتها:

- أنا ســعيدة جدا يا أم خالد ،لك الشــكر على هذه الهدية التاريخية القيمة.

(٣٧)

لبســت العقد الثمين، تجولت معي في حديقة المنزل الكبيرة، حضّــرت أمي مشــروبات باردة ،شــايًا، أثناء وجودنا حول الطاولة مع أمي وعمي أبكر، أحضــر أحد خدم المنزل التليفون، كانت مكالمة من بيروت، السيد محمود خال ليليان:

- أهلاً

- أهلا يا دكتور، كيف الأحوال ،كيف ليليان.

- الحمد لله بخير، كيف أخبارك وأخبار المكتب؟

- اتصــلت بي ســيدة اســمها شــرين، قالت: إنها مديرة مكتب الشــيخ الشــمهري، تريد مقابلتك؛ لأن الشــيخ موجود في بيروت، يصر عل مقابلتك.

- الرجاء عدم إعطائها أي معلومات، غير أنني خارج بيروت.

- فعلا هذا ما قلته لها، لكنها تتصل يوميا؛ لتعرف أين أنت؟

- لا تهتم بها ،لا تقابلها أبدا.

- الموضوع الثاني، توقع حضور محمد خميس من الصومال، مع زوجته حليمة بطائرة إليتاليا الخطوط الجوية الإيطالية، القادمة من روما يوم الأربعاء أي بعد يومين.

- في موضوع محمد خميس، اتصل بالمحامي بكري الجعلي؛ ليقوم باستقباله في المطار بمرافقتك، هو يعلم بموضوعه، احجز له جناحًا فندقيًا خارج بيروت؛ لقضاء شهر العسل، قدم له كل الخدمات الممكنة، سأتصل ببكري حالا، ليليان تريد التحدث معك.

- قبل الحديث مع ليليان، حسب تعليماتك قامت فتحية بترجمة كل المواضيع التي وصلت بالفاكس من المركز الأمريكي، أرسلناها في نفس اليوم.

- حسنا، ألف شكر، ليليان معك.

أعطيت السماعة لليليان:

- خالي لك التحية ،الشكر على مساعداتك القيمة، تم استقبالنا هنا بصورة جيدة.

- نعم ... لقد أخبرت عمك نصار بمواقف الدكتور خالد ، شهامته ،كرمه، فلا غرابة أن يحسن أهلنا مقابلتكم، على فكرة، أحضر إليَّ مكتب السيد بكري نصوص موافقة كل البنوك على توقيعك، وصلتني أيضا، قوائم الأرباح على الودائع ،مجمل الأرصدة.

- شكرا يا خالي ... كيف أخبار فتحية إن شاء الله مبسوطة؟

- مبسوطة جدًا خاصة بعد أن عرفت أنها حامل.

- ألف مبروك، سنتصل بك غدا إن شاء الله.

استمررنا في الجلوس مع أمي وعمي، ليليان تتفحص عقد جنيهات ماريا تريزا بإعجاب، لحسن الحظ لم تهتم بسؤالي عن الأخبار التي وردت من خالها، لا خبر وصول الشيخ الشمهري إلى بيروت ومعه شرين، أيضا توقع وصول محمد خميس وعروسته إلى بيروت، كل ما ورد اليوم، يحتاج مني إلى بصيرة وتخطيط، تعمدت عدم الانشغال بأي شيء يشتت اهتمامي، ليليان وأمي يجلسان معي، فهما كل شيء يهمني في الوجود الآن.

حضر سائق المرحوم الشاهر، معه مدير الأعمال الأستاذ مرجان؛ لأن ليليان طلبت منه مرافقتها إلى مكتب والدها المرحوم؛ لمراجعة الحسابات، المرور على العمارات المسجلة باسمها، أصرت ليليان أن أرافقها في تلك الجولة.

مدير المكتب مرجان مبروك رجل يكبرني سنا، أسود اللون من سكان حي الموردة، عمل مع المرحوم منذ تخرجه في معهد التجارة بأمدرمان، كان والده كبير الخدم الذين عملوا مع الشاهر منذ فتح متجره القديم في أمدرمان، كان فخورا بنفسه ينظر إلى بإعجاب واستغراب في آن واحد كزوج لابنة المرحوم الشاهر البيضاء ولي نعمته، بعد وصولنا إلى مكتب شركة الشاهر ،أثناء مراجعة الحسابات أمام ليليان، أنا بجانبها أتصفح جريدة الأيام، ورد اسم أبي على لسان مرجان أثناء المراجعة مرتين، المرة الأولى: بخصوص منزل في أمدرمان بيع للعميد إبراهيم الناير قبل سنتين بمبلغ ألف جنيه لم تسدد، المرة الثانية: عمولات دفعت لكبار المسؤولين بوزارة الداخلية تساوي عشرة جنيهًا؛ للحصول على عطاء الوزارة في السنة الأخيرة؛ لتوريد ملابس لشرطة السودان، عندما سمعت ذلك فضلت الخروج من المكتب، انتظار ليليان في مكتب الاستقبال، بعد فترة، خرجت ليليان ،تجولنا في منتصف الخرطوم، شاهدنا العمارات الثلاث المسجلة باسمها، طلبت رأيي في إخلاء عمارة المحطة الوسطي ، تحويلها إلى معهد مهني باسم والدها؛ لتأهيل السيدات المطلقات والأرامل فرعًا للشبكة الدولية لتحرير الرقيق:

- فكرة عظيمة، لكن يجب عمل دراسة قبل بداية المشروع.

- من المؤكد يجب عمل الدراســـة، فهل لك أحد المعارف؛ ليقوم بهذا العمل.

- دعيني أفكر.

- على فكرة أوكلـت إدارة أعمـال مكتـب أبى إلى مرجـان مبروك، رجل أمين ،يعرف إدارة المحلات ،فروعها.

- حسنا ... أنا أيضا أشعر بأنه رجل كفء، من الطريقة التي نظم بها الحسابات.

- أيضا أعطيته صلاحية إمضاء الشيكات نيابة عني، سأقابل معه غدا البنوك التي نتعامل معها.

- ألا تعتقدين استشـارة أمك ضرورة في مثل هذه الحالات؟! ربما يكون عمك أجدر بالإدارة.

- يـا خـالـد أمي توافق على أي شــــيء من عنـدي، لكنني ســأخبرها، أما عمي بكل أسـف ليس بالرجل المناسـب، كان في خلاف دائم مع أبي، بجانب أن له مصالحه الخاصة.

وصلت العربة إلى بيت ليليان، بما أن والدتها لاتزال في الحبس الشــــرعي؛ لإتمام العدة، كان لزاما عليها أن تلازمها هذه الفترة، أوصـلني السـائق إلى بيتنا، أعدت أمي الغداء، حضـر الوالد وعمي أبكر ،معـه بعض طلاب الجـامعـة، مع أبـي بعض كبـار رجـالات الداخلية، أبي كعادته قليل الحديث، يكثر التفكير ،لا يدلي بأي رأى سياسـي، تكلم الضيوف عن الجلاء ،استقلال السودان، البرلمان ، الانتخابات ،الصــراع بين حزب الأمة بزعامة السـيد عبد الرحمن المهدي وحزب الأشــقاء بزعامة السـيد على الميرغني، انتقدوا ما شاء لهم الجبهة المعادية للاستعمار ورئيسها عبدالرحمن عبدالرحيم الوسيلة ونائبها في البرلمان الانتقالي حسن الطاهر زروق.

لأول مرة تتضــح لي يســارية عمي، أعجبني دفاعه عن الجبهة المعادية للاســتعمار، أعجبني منطق زملائه في تلك الجلســة، كان مســتوي النقاش حضــاريا، لم يهبط أحد بالحوار أو يســتفز أحد الآخر، رغم صغر سن عمي وزملائه الطلاب المرافقين له بالنسبة للحضــور، عدا مدير مكتب أبي الذي أبدى تطرفه الديني، ســب الزعيم عبد الناصــر، وصــفه بالشــيوعي الملحد، كان الاحترام المتبادل سيد الموقف، حانت صلاة العصر، توضأ الجميع، صلى بنا مدير مكتب أبي، رجل لم أســترح له أبدا دون أســباب معينة، لاحظت أنه بعد الانتهاء من الصــلاة، واصــل الركعات بالرغم من وضــع كوب الشــاي أمامه حتي برد، كنت أشــعر بتصــرفاته الاستعراضية، يكثر الاستدلال بالأحاديث والآيات في كل حواره.

(٣٨)

خرج الجميع الساعة الخامسة، إحدى سيارات أبي أخذت عمي وصــحبه إلى الجامعة، سيارة أخرى أخذتني إلى بيت ليليان، كانت مقابلاتي معها في المكتب الخاص بالمرحوم في منزلهم الضــخم، شــربنا ســويا القهوة ،فاتحتها في موضــوع أبي ،ما ورد عنه في كشف الحسابات الذي استعرضته مع مدير مكتبها صباح اليوم:

- بصراحة يا ليليان، لنا أجندة واسعة ،مواضيع لا تعد، لكن ما ورد عن أبي في دفاتر حســاباتكم صـــباح اليوم، يحتم على مناقشتك فيه، أنا لست راضيا عن والدي إذا اتضح أنه مرتش.

- لا تقل هذا يا خالد، أعرف مدى الإحراج الذي أصــابك صــباح اليوم، لكن بعد خروجك اتضــح من الحســابات أن والدك سـدد قيمة منزل أمدرمان بشيكات شـهرية، لكن والدي لم يقدمها للبنك حتي الآن، أما بخصوص عمولة رجال الداخلية فعرفت من الأســتاذ مرجان أنه أعطاها لمدير مكتب أبيك، لا توجد صــلة لوالدك بها بتاتا.

- موضوع الشيكات أرجوك إخبار مرجان بتحصيلها فورا ، بدون تأخير، مدير مكتب الوالد وصلته بهذه الرشوة الكبيرة، لا ينقذ أبي من المسؤولية إلا إذا تمت التحريات اللازمة ،معاقبة مدير مكتبه فورا.

- موضوع شيكات بيت أمدرمان، ليست غلطة أبيك ،إنما هو قربان؛ لتقرب والدي المرحوم، أقترح نسيان هذا الموضوع، في النهاية البيت ملكك يا خالد ،أنا أيضا يا حبيبي ملكك، موضوع الرشوة يمكن تتسبب في سقوط الحكومة يا خالد، دعنا نجنح للسلم.

- لا ... لا ... يا ليليان، لا أوافق أبدا، أريد الاطمئنان على كرامة أبي.

- هل يمكن إرجاء الموضوع لحين، حتى تمر هذه الأيام الصعبة،

- اعذريني يا ليليان.

- يا حبيبي أرجوك ... ربما يكون هذا أول خلاف أسرى يقع بيننا، بالله يا خالد، نترك الموضوع.

- لا أريد خلق مشكلة لأحد، لكن أنا شخصيا أعيش في مشكلة، اسمحي لي بحلها بالطريقة التي تحفظ كرامة أسرتي ...، نحن الآن أسرة واحدة يا ليليان، دعينا نتعامل بالشفافية التي عهدتك من أنصارها ... أليس كذلك؟!

- لنترك الموضوع إلى الغد، اسمح لي يا خالد ... سأذهب إلى أمي ،أجلس بجانبها الآن.

- حسنا ... أراك غدا حبيبتي.

ودعت ليليان بقبلة على جبينها، توجهت إلى منزلنا، كنت أغلي من الغضب، لم تطاوعني أعصابي في إدارة غضبي، استحال على إرجاء الموضوع إلى الغد، دخلت البيت، جلست على انفراد مع أبي، سردت عليه بالتفصيل:

- عرفت من حسابات مكتب الشاهر أنك يا أبي لم تدفع سعر بيت أمدرمان ،موضوع عمولة دفعت من شركة الشاهر للفوز بعطاء وزارة الداخلية، سلمها مدير مكتب الشاهر لمدير مكتبك.

بدون انفعال استمع أبي إلى حديثي، أثبت لي مقدرته الفائقة على إدارة غضبه:

- بيت أمدرمان سلمت شيكاته في وقتها تماما، المرحوم الشاهر كان مراوغا ،لم يقدم الشيكات تقربًا مني، فمن الناحية القانونية موقفي سليم، سلمت الأقساط في مواعيدها بشيكات إلى مكتب الشاهر، رصدت ما يعادلها في البنك حتى الآن، بعثت رسائل متوالية للشاهر ، عندي نسخ منها بأن يصرف الشيكات ،لكنه لم يستجب، بخصوص العمولة أوضح لك يا ابني أنني لم أمُد يدي إلى عمولة في حياتي، لكنني الآن عرفت من أخذها، سترى حالا ما سأفعله.

بعد الانتهاء من كلامه قام أبي، دخل مكتبه الخاص في البيت، رأيته يكتب مذكرة على عجل، لكنني لم أعرف فحواها، خرج مع السائق بهدوء، معه المذكرة ،بعض الدفاتر، غاب مدة ساعتين ثم رجع، لم يجلس معي، توجه إلى مكتبه الخاص يرتب أوراقًا ،يكتب يدون، فضلت عدم الكلام معه، جلست مع أمي نتبادل فكرة إقامة حفل عرسي في الدامر بعيدا عن الخرطوم، إذ لايزال الحزن يحيط بآل الشاهر، في الصباح وجدت أبي في الحديقة يشرب الشاي ،يقرأ الجرائد اليومية، لم يذهب كعادته إلى العمل، جلست بجانبه، تناولت جريدة الأيام، قرأت على صفحتها الأولي عنوانًا بالخط العريض:

- وكيل وزارة الداخلية اللواء إبراهيم الناير يستقيل من منصبه، التفاصيل صفحة ثلاثة.

صدمت بالخبر ،أبي يجلس أمامي:

- ما هذا يا أبي !؟ هل فعلا استقلت؟

- نعم.
- لماذا ... هل أنت المعني بما قلته لك أمس؟
- نعم، ما ذكرته لي كنت أحس به ،لا أجد الدليل، مع أن المرتشي هو مدير مكتبي، هذا المتأسلم الحقير «وقيع الله الخير» الذي شاهدته يصلي ،على جبهته ذبيبة السجود، ما فعله هذا المرتشي، لا يعفيني من مسؤوليتي الحساسة في هذه الوزارة،
- لكن استقالتك تدينك يا أبي.
- لا يا خالد... أنا رجل قانون ،أعرفه جيدا، لكي تأخذ العدالة مجراها، لابد لي أن أتنحى أولا.
- بهذه السرعة يا أبي؟
- نعم ...ذهبت بعد التأكد مما قلته، إلى وزير الداخلية في منزله، قدمت استقالتي، شرحت له الملابسات، بعده فورا ذهبت بنفسي إلى جريدة الأيام، سلمتها نسخة من الاستقالة،
- مهما تكن النتيجة، فإن موقفك يدل على نزاهتك ،احترام اسمك، هنالك من يتصيدون في الماء العكر من السياسيين يا أبي.
- لا يهمني ما دام هنالك قضاء عادل، مستقل في السودان، ربك أعلم يا ابني.

على كتفي مشكلة جديدة أضفتها، بالصدفة، لكنها برهنت لي على نزاهة أبي، تأكدت أنه رجل نظيف ،لم يمد يده إلى الصغائر، زاد ميزان ثقتي به، في المساء حضر عمي أبكر يحمل معه جريدة الأيام ، جريدة الميدان السرية التابعة للحزب الشيوعي:

- فضيحة رشوة في وزارة الداخلية ... الإنجليزي الأسود اللواء إبراهيم الناير يستقيل من منصبه،

طلبت من عمي عدم عرض جريدة الميدان على أبي.

انشغلت صحف الخرطوم أسبوعًا كاملاً بموضوع استقالة أبي، كانت هنالك اقتراحات صـــحفية بطرح الثقة في الحكومة، قامت النيابة بالتحقيقات، قدم وقيع الله الخير مدير مكتب أبي للمحاكمة بتهمة ثابتة لم يستطع إنكارها، «استلام رشوة» حكم عليه بالسجن خمس سنوات ،غرامة خمسة آلاف جنيهًا، كما وصل فورا خطاب رســمي إلى مكتب الشــاهر من وزارة الداخلية، مفاده عدم التعامل مع شركات الشاهر، فرضت عليها غرامة عشرة آلاف جنيهًا تحت جناية تقديم رشوة لموظف حكومة، كل ذلك أشعرني بالفخر بأبي، حكومة السودان.

انشــغلت مع ليليان في تنظيم أعمالها ،حســاباتها، متابعة أخبار بيروت، وصـول محمد خميس وزوجته، سـفر السـيدة مسيلة إلى أتلانتا جورجيا، موضوع استقالة أبي من منصبه الكبير، ما قابلها من صدى سياسـي داخل أروقة الدولة، ما كتب عنها في الصحف اليومية، لم يؤثر على علاقتي مع ليليان أو أســرتها، بل أصــبحت فخورا جدا بأبي خاصة بعد رفض وزير الداخلية لاستقالته، إصرار أبي على الاستقالة، حتى بعد نقاشي معه ،محاولات أمي المستمرة، بذلك تحرر أبي من الروتين والقيود الحكومية، أصـــبح حرا طليقا، قررت شراء فيلة ضخمة لا تبعد عن بيت آلـــ الشاهر ؛ لانقل إليها أمي وأبي قبل ميعاد إخلاء بيت الحكومة، لكن أبي رفض رفضــــا باتا بحجة:

- ماذا يقول الناس؟!

تم الاتفاق داخل الأسرة، على إصلاح بيت أمدرمان، بأسرع ما يمكن، أوكلنا الموضـــوع إلى عمي أبكر الذي وفر مبلغا كبيرا من مشروع عد الفرسان يكفي لترميم البيت.

(٣٩)

وجود محمود وفتحية في بيروت حمل عني ،عن ليليان أثقالا معقدة، مما شجعنا على مد إقامتنا في السودان، خاصة ،أن عطلة الجامعة لم تنته بعد، قمت مع أبي وأمي بزيارة إلى الدامر؛ لتنظيم ممتلكات العائلة، تفرغت لمقابلة أصحابي القدامي، سألت عن النور الجيلي، عرفت أنه توفي بالسل العام الماضي، ذهبت مع أصحابي إلى منزل عمه؛ لتقديم العزاء.

الحلقة المفقودة في قصة جدتي، ستظل كما هي، بعد وفاة زميل طفولتي الحاقد النور الجيلي، الذي استفزني قبل سنوات وهو في حالة سكر، عندما قال موجها الكلام إلى في جلسة مع نفس المجموعة من أصدقائي:

- نحن نبيع والعبيد يشترون !!

كنت أريد مواجهة النور؛ لمعرفة المزيد عن جدتي مستورة، الحقيقة أن مندوب أبي اشترى كل أراضي آل الجيلي وغيرهم من أثرياء الدامر، لم يعد موضوع المرحوم النور الجيلي مهما في أجندتي أنا منشغل بما هو أكبر، بل أرسلت معونة مالية كبيرة إلى أسرة الجيلي مع مندوب الوالد مساهمة مني في العزاء، ظل أبي كل صباح، يقابل الفقراء والمحتاجين بصالون منزلنا بالدامر، بمساعدة مندوبه يوزع العطايا والأموال، من بين هؤلاء، جاءت عجوز طاعنة في السن تطلب المساعدة، قالت لأبي إنها كانت ملك يمين لجدي الناير، لكنها هربت فترة من الزمن الصعب، عرضت أوراقها وهي تبكي،

بوجود تلك العجوز المسنة أمامي، عادت قصة جدتي بكل تفاصيلها المؤلمة، طلبت من أحد الخدم توصيل العجوز؛ لتنتظرني في حجرتي، بعد عشر دقائق دخلت حجرتي، كانت العجوز تجلس على الأرض، طلبت منها الجلوس على الكرسي، لكنها رفضت، ألححت عليها ،رفعتها بالقوة ،أجلستها على كرسي، طلبت لها إفطارًا وشايًا، أكلت بنهم وهي تردد الشكر لآل الناير، بعد أن انفرجت أساريرها ،اطمأنت:

- ما اسمك يا حاجة؟

- اسمي الشول، كنت من خدم الشيخ الجيلي الله يرحمه، لكن في سنة الفيضان، اشتراني جدك الناير، لكن يا ولدي أنا ما حجيت بيت الله الحرام ... اللهم أوعدني يا رب.

- إن شاء الله تحجي السنة ، سأخبر عبدالعال؛ ليقوم بكل ما يلزم، لا يهمك.

- الله يبارك فيك يا ولدي، أنا وأختي مستورة حبوبتك نمشي الحج مع بعض كان الله هون.

- تعرفي حبوبتي مستورة كويس؟!

- كيف... يا ولدي أنا وحبوبتك بنات عم لزم، كنا صغار، تربينا في بيت الجيلي، اشترانا من تجار جلابة جو من الغرب، كان الله يرحمه أغنى رجل في الدامر، لكن جدك الناير الله يرحمه، اشترى حبوبتك بعد ما بلغت، أنا حملت من الجيلي ببنت جميلة سموها هديه زي بنات الحور، الدامر كلها كانت تتكلم عنها، الشعراء كتبوا فيها أغاني، الهمباتة قالوا فيها المسادير، لكن قبل ما تصل سن البلوغ، الجيلي باعها لتجار (لا أعرف من أين!!) النور الله يرحمه، ولد الشيخ الجيلي، قبل أن يموت بسنة، جاب لي منها جوابات كتيرة مكتوبة بالإنجليزي، ما لقينا واحدًا في الدامر يورينا الذي فيها.

- عرفتي أي حاجة من الجوابات؟

- بكره أجيب لك الجوابات، أظنها بنتي عايشة في مصر.

- تتذكري كيف كانت حبوبتي أيام صغرها!؟.

- حبوبتك أين مشت يا ولدي؟ والله مشتاقة ليها ،لي زمن ما شفتها، والله الذي أعرفه يا ولدي، الشيخ الجيلي فتقها قبل ما يبيعها للشيخ الناير.

في تلك اللحظة، أنا أمام الشول بنت عم جدتي، اكتملت الحلقة المفقودة في قصة المرحومة جدتي مستوره:

- فتاها الشيخ الجيلي.

صدقت توقعاتي التي لم أتمن يوما أن تصدق، يا للهول جدتي كانت حامل قبل أن يشتريها جدي الافتراضي الناير ،هو رجل عاقر ،لم ينجب من زوجاته الأربع ...

يا للهول ... لماذا سمحت لنفسي بالغوص في عمق الأحداث والتاريخ؟ ماذا أقول لأبي؟ ماذا أقول لأمي؟ انقلب التاريخ أمامي، لا مجال لترميمه أو إنكاره أو إصلاحه، لا مجال لتغيير قصة جدتي التي طبعتها، من المفروض تقديمها في الشهر القادم أمام الكتاب والصحفيين في المركز الثقافي الأمريكي ببيروت، الحقيقة الجديدة، جدتي حملت بأبي من الشيخ الجيلي ،ليس من الشيخ الناير، المفروض أن يكون اسم أبي إبراهيم الجيلي وليس كما يعرف الآن إبراهيم الناير.

نعم تجلت الحقيقة، جدتي المرحومة مستورة هي جدتي بدون شك، لكن الناير ليس جدي، إبراهيم هو أبي بدون شك، لكنه ابن الجيلي، هدية هي عمتي ،بنت الجيلي غير الشرعية ،هي أيضا أخت غير معترف بها لزميلي الحاقد المرحوم النور، النور هو عمي؛ لأن والده الشرعي هو الجيلي، معادلة نسبية صعبة، لا يحل طلاسمها أحد من الذين يعيشون الآن في الدامر، كاد يغمى علي، لكنني تماسكت، لم استغرب، هذه حياة الأرقاء، فرضت عليهم، لا حول ولا قوة لهم.

(٤٠)

بكت الشول عندما علمت بوفاة جدتي، بكيت معها ،حضنتها بجسمها الهزيل إلى صدري، ناديت عبدالعال ،طلبت منه فتح الحجرة الواقعة في الركن الغربي من الحوش الخلفي لمنزل جدي الناير الفسيح، الحجرة التي عاشت فيها جدتي، دخلت مع الشول تتوكأ على عصاة مهترية، كانت الحجرة كبيت الأشباح، لها شباك صغير واحد بني عليه العنكبوت، أقرب إلى السقف منه إلى أرضية الحجرة، لا يوجد بها أثاث أو أثر لأثاث قديم.

على الركن الأيمن من الباب، لاحظت كمية من الجنازير الحديدية الصدئة المثبتة بإحكام في أرضية الحجرة، رفعت طرف واحد من تلك الجنازير، انفصلت منه ثلاث حلقات من شدة الصدأ، لففتها بمنديلي وضعتها في جيبي.

أخبرتني الشول أنها الجنازير التي كان يقيد بها رئيس الحرس والد عبدالعال الجواري في الليل ،يقفل عليهن الحجرة، حكت لي كيف تم كسر الجنازير ذات ليلة، هربت هي وجدتي مستورة بحثا عن ورقة الحرية من الضابط الإنجليزي بالدامر، كيف دفع والد عبدالعال الثمن بجلده وطرده من عمله، منذ ذلك اليوم اعتبرت الشول رمزا لجدتي الراحلة، طلبت من عبدالعال مدير أعمال أبي اصطحابها إلى السوق، شراء الكسوة التي تريدها استعدادا لحج البيت، إصلاح ، تحضير تلك الحجرة القديمة؛ لتعيش فيها الشول، ذكرته أيضا بإحضار الخطابات التي وصلت الشول من ابنتها، لا مجال لذكر ما سمعته من الشول أمام أبي أو أمي، هو عين المسكوت عنه، لكن هل يمكنني السكوت أمام ليليان؟ لا أعتقد.

بعد حوار مقتضب مع أبي، اتفقنا على هدم منزلنا في الدامر، تحويله إلى مستشفى للولادة، أقوم شخصيا بتمويله، عدا المكان المخصص للشول، يترك ،يتم إصلاحه، كانت تلك خطتي لمحو آثار النابر بعد معرفة الحقيقة، لم يعد جدي أبدا، تم تكليف مقاول؛ ليقوم بالهدم والبناء الجديد تحت إشراف زميلي المهندس بشرى، قبل رجوعي إلى الخرطوم حرصت على تذكير عبدالعال، بتجهيز جدتي الرمزية الشول؛ لأداء مناسك الحج على حسابي الخاص، ربط مرتب شهري لها ،تعيين خادمة ترعاها.

اقترحت على أبي إدارة مستشفى الولادة الذي ننوي إنشاءه، لكنه رفض، بحجة أن كل أصدقائه من كلية جردون يتمركزون في أمدرمان والخرطوم، إضافة إلى ذلك كنت أشعر بعدم ارتياح أبي في الدامر ؛لأسباب أعرف بعضها، رجعنا الخرطوم، وجدت ليليان منشغلة بممتلكاتها ،أموالها الهائلة التي ورثتها عن أبيها، لاتزال في لبسها الأسود مع القناع الحريري الأسود الشفاف على رأسها، تلازم أمها طيلة أيام العدَّة الشرعية، كل المخططات تسير بهدوء، عيد الأضحى على الأبواب.

منزل أمدرمان ،تحضيره أصبح الشغل الشاغل لابي، خاصة بعد استقالته الشجاعة من وزارة الداخلية، قرار أمي، العيد هذا العام في أمدرمان، مشروع عمارة ليليان في المحطة الوسطي لم يبدأ، لرفض بعض المؤجرين الإخلاء، دراسة المشروع تسير بحرفية، كان دوامي اليومي مع ليليان بمكتبها في عمارتها بشارع الجمهورية أحيانا لمراجعة الحسابات مع مدير مكتبها مرجان، أو الجناح الذي استأجرناه في فندق السودان؛ لممارسة حياتنا الزوجية حين آخر، الاتصال بمحمود وفتحية ،الأستاذ بكري كان شبه يومي.

حمَل ليليان قد تجاوز الشهرين الآن، عليها مراجعة الطبيب للاطمئنان على صحتها وصحة الجنين، أوكلت المهمة إلى زميلي الدكتور حسن الذي صارحته بكل شيء ،تاريخ حدوث الحمل الذي يتعارض مع وثيقة زواجي الشرعية، سارت الفحوصات بشكل طيب.

قبل الوقفة بيومين، تم انتقال أسرتي إلي أم درمان، تم تسليم منزل الحكومة الذي عشنا فيه سبع سنين وثلاثة أشهر، لم أكن فرحا بالانتقال؛ لبعدي عن ليليان، لكن مجاملة لأمي ،إصرارًا على مشاركتها الفرحة بالانتقال إلي بيتنا، شاركتنا ليليان كل خطوات الانتقال بل خصصت فريقا كاملاً من عمال شركتها؛ لنقل الأثاث، الإشراف الدقيق في نقل الأثاث أشرف عليه مرجان مدير أعمالها، بالرغم من انشغاله في التحضير لزواجه المزمع ثالث أيام العيد.

لم تنته أحزان آل الشاهر، لا تزال والدة ليليان في العدة، خطط والدتي في الاحتفاء بزواجي ظلت مؤجلة، استلم والدي استحقاقاته من الحكومة، قام بشراء سيارة جديدة صالون ماركة هولمان، أودع الباقي في البنك العثماني بأمدرمان، كان معاشه الشهري وما يرد إليه من زراعة أراضي الدامر كافيًا لمعيشته هو وأمي، تغطية مصاريف عمى أبكر، ترحالي بين الخرطوم وأمدرمان يوميا، كان بسيارة أبي الجديدة أو سيارة ليليان أحيانا، كتبت في مدوناتي الشخصية بالقلم الأحمر:

كنت أسـوق سـيارة أبي الهولمان الجديدة في شـارع الأربعين، استوقفني شرطي مرور على وجهه شلوخ الشايقية:

- عندك رخصة؟
- نعم.
- شغال سواق مع من؟
- هذه سيارة والدي.
- هو الشبه دا، أبوه عنده عربيه ذي دي؟! اطلع برا العربية، وريني رخصة العربية.

تمالكت أعصـابي، من الإهانة العنصـرية التي تلقيتها، من ذلك الشرطي البسيط، قررت عدم التهور، إعادة السناريو العنيف الذي انتهجته في بيروت، مع العضـو البرلماني توني فنار، أنا أواجه سـودانيًا يؤدي وظيفته دون ضـوابط تكبح جهويته، ممارسـته العشوائية لا تتعدى أسلوب الجهل الذي اكتسبه من التعامل القبلي في المجتمع السـوداني، ترجلت من السـيارة أعطيته رخصـتي رخصـة السيارة، اطلع عليها، فجأة أظهر الانضباط ،جاء صـوته مهزوما مؤدبا:

- متأسف يا الأخو، عربية وكيل وزارة الداخلية، تفضل.

كان لابد لي من تلقينه درسـا عمليا، كتبت اسـمه من شـارته الشرطية ،رقمه:

- سنتقابل أمام قاضـي المرور، أنت لا تصـلح لهذه الوظيفة، لا تصلح لرعي الغنم يا جاهل.
- والله أنا متأسف، ما كنت عارفك ولد وكيل وزارة الداخلية، ما تقطع على عيشي.
- أنت كلب، الكلب أفضل منك، لا تستحق الراتب الذي تأخذه من الحكومة.

في تلك اللحظة تجمع جماهير الشارع حولنا، سمعوا الشتائم التي كلتها على الشرطي، ترددت أصوات الأجاويد يا ناس العنوا الشيطان.

أدرت السيارة، تركت مشهد التجمهر، واصلت مشواري إلى بيتنا في أم درمان، في الطريق تذكرت جدتي، كيف قابلت الإهانات والذلة في حياتها، وسط مجتمع جاهل، حينها، اقتنعت بأنني أعطيت الشرطي الدرس اللازم، لم أصعد الأمر أكثر من ذلك.

منذ تاريخ رفع الفراش، عن مأتم الحاج الشاهر وابنه، أصبح الجناح بفندق السودان، هو الأنسب لمواصلة أعمالنا وحياتنا الزوجية بدلا من مكتب ليليان، نتقابل يوميا من الساعة الحادية عشرة حتى الثالثة ظهرا، بعدها أصحبها إلى منزلها بسيارة أبي الجديدة بينما يتبعنا سائق سيارتها المرسيدس إلى منزلها، بعد قضاء فترة وجيزة معها أتوجه إلى منزلنا في أمدر مان، كنت حريصا على تناول الغداء مع أمي وأبي كنت أحيانا أصطحب معي ليليان إلى أم در مان.

كانت ضيفة أمي في يوم الوقفة، جارتنا السيدة عزيزة والدة محاسن، صديقتنا في بيروت، كنت سعيدا بلقائها، تجاذبنا الحديث عن بيروت ،عن بكري، لكننا لم نتطرق إلى زواجها أو طلاقها، بعد انصرافها، علمت من أمي أن محاسن ستتزوج بكري ابن عمها، وأنها صرفت النظر عن الرجوع إلى زوجها السابق؛ لأنه هاجر إلى الحبشة، تزوج ،أقام هناك ،انقطعت أخباره.

مساء يوم الوقفة، كنت أتسوق مع ليليان، في محلات مرهج بالمحطة الوسطى، اشتريت عقدًا من الذهب، هدية لها، سبحة محلاة بالفضة لامها، كما اشتريت ستة أساور من الذهب لأمي، مررنا بمحلات زكي، تناولنا المرطبات ،الآيس كريم، قررنا أخذ صورة تذكارية لنا سويا باستديو جردون، من سودان بكشوب حيث تقف سيارتي اشتريت مجلة التايمز اللندنية النيوزويك والديلي ميل، بعد ذلك أوصلت ليليان إلى منزلها، أخبرني البواب بأن أمي اتصلت تريد التحدث معي، دخلت مع ليليان الحجرة المخصصة لنا في الطابق الثاني، اتصلت بأمي، عرفت منها، وصول تلغراف من بعثة الحج السودانية، يحمل نبأ وفاة الحاجة الشول في مكة، دفنت هناك، ترحمت عليها، توجهت حزينا إلى منزلنا.

في طريقي إلى أم درمان تذكرت عبدالعال وكيل أبي في الدامر، لم يحضر لي الخطابات التي وعدتني بها المرحومة الشول، بعد الغداء اختليت بنفسي في حجرتي، اتصلت بعبدالعال، أخبرته بوفاة الشول، طلبت منه إقامة مأتم يليق بمقامها، كما طلبت منه القيام بالواجب نيابة عنا في الدامر، سألته عن الخطابات، أوضح أنه سلم الخطابات لأمي، في مظروف داخل كيس، قبل سفرنا من الدامر في نفس اليوم.

أسرعت إلى المطبخ حيث لاتزال أمي تعد الشاي، طلبت منها الكيس الذي أخذته من عبدالعال، استلمت الكيس، به ظرف مغبر داخله عشرات الخطابات المكتوبة باللغة الإنجليزية، بعضها بالإيطالية، أرسلت في فترات متباعدة بعضها من القاهرة، بعضها من روما، معظمها من مدينة تورينتو عاصمة إقليم أونتاريو بكندا، خطابات أرسلتها ابنة الشول هديه المباعة، لتجار رقيق أجانب، قبل عشرات الأعوام.

(٤١)

قصةً عمتي هدية، أسطورة لا تصدق، أقرب إلى الخيال من الحقيقة، قصة قرأتها بين سطور تلك الخطابات، كأني اقرأ سردا يحبس الأنفاس للكاتبة أجاثي كريستي، ليتني استجبت لطلب المرحوم النور الجيلي في دفع العشرين جنيهًا التي طلبها مني، ليتني ترجمت له الخطابات، الخطابات التي كانت ستغير فقرات هامة من قصة جدتي، في طبعتها الأولى، الخطابات بيدي الآن، لقد هزت كياني وتاريخي.

عمتي الدكتورة هدية كلوني إضافة هائلة إلى قصتي، لكن لا مجال للإضافة بعد أن طبعت القصة، الاتصال بهديه، إخبارها بوفاة أمها غير مناسب الآن، لابد من مقدمات ،تعارف طويل، أجلت كل ذلك حتى رجوعي إلى بيروت؛ لأكتب ملف تاريخ شامل؛ لأعرف نفسي بهديه أولا، بعد ذلك دعوتها هي وزوجها إلى بيروت ؛ لحضور تقديم قصة جدتي الجنازير المقدسة في المركز الثقافي الأمريكي الشهر القادم، ثم التشاور معها في ترجمة القصة إلى الإنجليزية مع إضافتها في الطبعة الثانية

سبحان الله، اكتشفت أنَّ لي عمة، حالفها الحظ وهي جارية صغيرة مصفدة الأيدي والأرجل تحت رحمة النخاسين، اشترتها أرملة إيطالية ثرية كانت تعيش في القاهرة، عاملتها كابنتها، نقلتها معها إلى إيطاليا، مع تنامي الحركة الوطنية بمصر تحت شعار «مصر للمصريين»، مقتل رئيس الوزراء بطرس غالي الذي كان شديد الولاء لبريطانيا، علمتها تلك الأرملة الإيطالية، أحسن تعليم في جامعة ميلانو، حتى أصبحت محاضرة في نفس الجامعة، تزوجها زميلها في الجامعة، شاب كندي من أصول إيطالية، سافرت معه إلى تورينتو؛ ليتولى أعمال والده كلوني وهو من أثرياء تورينتو، هدية واصلت عملها في التدريس ، أصبحت محاضرة ورئيسة قسم الدراسات الأفريقية بجامعة تورينتو، لها بنت وولدان، كل الخطابات التي أرسلتها إلى أمها كانت عن طريق وكيل البوسطة والتلغراف بمدينة الدامر موجهة إلى الشيخ الجيلي، من الواضح أن النور وجد الخطابات بعد وفاة والده، لكنه لم يهتم بتسليمها للمرحومة الشول، إلا قبل وفاته بسنة، بالتالي لم تتسلم هدية أي ردود عبر السنين من أمها الشول.

مر العيد، انتهت أيام العدة لوالدة ليليان، أقمنا حفلا مختصرا لزواجنا بالنادي السوري في الخرطوم، حضره كثيرون من زملائي، أهلي ،أهل ليليان، تحدثت عنه صحافة الخرطوم، حاولت مع ليليان إقناع أمها ليلي الخاشوقجي بالسفر معنا إلى بيروت، لكنها كانت مصرة على الإقامة في بيتها، عزيمتها القوية أن تعيش في بلدها السودان، مهما كانت الظروف، بل اشترطت علينا بقاء يوسف ابن ليليان معها؛ لمواصلة تعليمه في السودان، طلبت مني أيضا مساعدتها في إحضار زوجة ابنها المتوفي من باكستان؛ لتعيش معها في السودان.

مرجان المسكين، بكل أسف لم يتم زواجه في ثالث أيام العيد كما كان مخططا له، خطيبته ليلى التي اختارها كانت بنت الجيران، أحبها منذ أيام الطفولة، تخرجت من معهد الآلة الكاتبة في أمدرمان، اتفق معها على كل التفاصيل، عينها كاتبة منذ سنتين بمكتب المرحوم الشاهر، عرفت من ليليان أسباب رفض والد العروس تزويجها لمرجان، بحجة وصول ابن عمها فجأة من البلد يريد الزواج منها، لكن كما قالت ليليان:

- السبب الحقيقي، العنصرية، مرجان سليل زنوج الموردة المنحدرين من بقايا جنود الفتح، السودانيون الذين دخلوا مع الجيش المصري والإنجليزي، العروس ليلى أهلها من الهاشماب الذين يعتبرون أنفسهم من العرب ،لا يريدون الاختلاط بالزنج، الحقيقة المرة، تم رفضه لأسباب مسكوت عنها في العلاقات الاجتماعية السودانية، رغم الفقر المدقع الذي تعيش فيه الأسرة على مرتب ليلى المتواضع.

تألمت كثيرا لمرجان، لابد لي من عودة إلى هذا الحدث الذي يلامس مشاعري كسليل رق، مادامت ليلى تعمل بمكتب ليليان حاليا.

(٤٢)

لافتتاح المعهد العلمي للبنات الذي شيدناه في قرية عد الفرسان؛ تخليدا لاسم جدتي مستورة، قررت السفر مع ليليان وأبي وعمي أبكر واثنين من زملائه في الجامعة، رافقنا وكيل وزارة المعارف ومساعده، حجزنا ثلاث قمرات نوم درجة أولى في قطار الخرطوم النيل الأبيض، من الأبيض استأجر عمي ثلاث عربات لاندروفر واثنين لوري نقل، حملت معنا المأكولات والعصائر والحلويات والفاكهة لحفل الافتتاح، بجانب العربة الكومر الحكومة التي أعدت لنقل مساعد وكيل وزارة المعارف وبعض الأساتذة، خرجت القرية عن بكرة أبيها لاستقبالنا؛ كان يوما مشهودا في عد الفرسان عندما أزاح والدي ، دامع العينين، الستارة التي نقش عليها:

- معهد مســـتورة لتأهيل النســـاء، افتتحه ابنها اللواء إبراهيم الناير وكيل وزارة الداخلية السودانية بتاريخ ١٨ مارس ١٩٥٨.

بعد مقدمة قصـــيرة، ترحم أبي على روحها، قرأ الفاتحة أمام الحضور، تلاه مساعد وكيل وزارة المعارف بسرد طويل أثنى فيه على جهد عائلة الناير وتمويلها لبناء المعهد، وأن الوزارة قد تولت الإدارة وتعيين المعلمات.

تعمدت أن أكون آخر المتكلمين، بدون تردد قرأت بعض الوثائق التي أحضـرتها من جامعة درم البريطانية ،دار الوثائق السـودانية، التي تثبت اسـترقاق ،حرية جدتي، نزلت مني دمعات وأنا أقرأ آخر وثيقـة، انقلـب الحفـل إلى مـأتم في لحظـات، لكن عمي أبكر كـان حصـيفا ، شـجاعا، وقف بجانب والده يونس زوج جدتي الشـرعي المرحومة مستورة، قدم ليليان أمام الحضور :

- أبشـركم بفجر جديد، لا عبودية بعد اليوم ،هذه ليليان زوجة ابن أخي الدكتور خالد إبراهيم.

في اليوم الثاني رجعنا إلي الأبيض، منه إلى الخرطوم، خلدنا للراحة يومًا كاملاً من عناء السفر في بيت ليليان، ناقشنا موضوع مرجان ،رســـمنا خطة مكتملة؛ لإقناع أهل العروس، اتصـــلت ليليان بمكتبها ،ردت عليها ليلي:

- أهلا ليلى كيف الشغل في المكتب؟

- بخير ،الحمد لله، حمدًا لله على رجوعكم.

- ليلى ... أنا والدكتور خالد ننوي مســـاء اليوم زيارتكم في البيت ..؛ لمباركة العيد ،موضوع زواجك من مرجان، ما رأيك؟

- والله أنا ســـعيدة، كنت أريد التحدث معك في موضـــوع مرجان.

- طيب قولي يا ليلى.
- والله لن أتزوج غير مرجان، مهما عمل أبي أو أهلي.
- طيب ما الحل ؟.
- زيارتك لأهلي مع الدكتور خالد، تغير رأي الأهل، أنا متأكدة.
- طيب خلاص توقعونا الساعة سبعة ونصف.
- شكرا جزيلا، نحن في الانتظار.
- أرجوك لا تكلمي مرجان، مع السلامة.

ذهبنا في الموعد المتفق عليه إلي بيت أهل ليلى، استقبلنا والد ليلى أمام الباب ،معه ابنه، أحضرنا معنا هدايا في أربعة كراتين باتفاق مع ليلي، قام سائق سيارة ليليان بادخالها المنزل، كانت عبارة عن احتياجات أسرتها الفقيرة من الملابس والأكل والحلويات والعطور، جلسنا في حوش المنزل المتواضع ،قامت ليلى وأمها بخدمتنا، والدها عبدالصمد كان متضايقا، لعله فهم الغرض من الزيارة، ظل يردد الشكر والثناء على كرمنا، بعد شرب الشاي واجهته ليليان بسؤال مباشر:

- يا عمي عبدالصمد لماذا رفضت مرجان؟
- لا، والله رجل محترم، وهم جيراننا نعرفهم ويعرفوننا، لكن.
- حرام يا عمى عبدالصمد، مرجان رجل متعلم ومؤدب وليلي قالت لي كل حاجة.
- كلامك صح يا ابنتي لكن ماذا نفعل مع رأي الأهل؟

هنا تدخلت شخصيا، واجهت عبد الصمد:

- يا حاج عبدالصمد، أنا عارف المشكلة؛ لأنها قابلتني شخصيا، ما في لزوم للعنصرية، ليليان زوجتي أمامك وأنا أمامك، أبوها الله يرحمه ما رفضني، هل تريد معرفة السبب؟!

- لا ... العفو يا دكتور، أنت فوق راسنا ومرجان ولدنا.

تدخلت ليليان، وجهت سؤالاً إلى والدة ليلي:

- ما رأيك يا حاجه خديجة؟! وأنت تعرفين ابنتك جيدا.

- والله الرأي رأي الرجال.

- يعني ليلى ما لها رأي؟!

- لها يا ابنتي، لكن الأهل رأيهم أهم، أنا والله ما شايفه أي عيب في مرجان، متعلم ومؤدب ،نعرفه منذ كان وليدًا صغيرًا.

أخرجت من جيبي مئة جنيهًا وضعتها على الطاولة ،أخرجت مئة جنيهًا أخرى وضعتها من فوقها:

- يا حاجة خديجة دي المية جنيه التي دفعها مرجان؛ لسد المال، أرجعتموها، والمئة الثانية إضافة منى ومن ليليان، خلونا نبارك ونقرأ الفاتحة، نريد أن نعمل لمرجان أكبر عرس في الموردة ،ننقل العروس إلى بيتها الجديد في الخرطوم بحري قبل أن نسافر بعد أسبوع، لا نريد منكم أي حاجة، كل التكاليف الأكل والفنانين، أبو داود وأحمد المصطفى.

تدخل والد ليلي وقال:

- والله شاكرين جدا جدا على زيارتكم الكريمة، لكن أعطونا فرصة للرد.

- طبعا من حقكم تتشاوروا، لكم الشكر وربنا يتمم على خير.

ودعنا أسرة عبدالصمد، تركنا المائتي جنيهًا عنوة في مكانهما، بعد ركوبنا السيارة لحق بنا الحاج عبدالصمد ،أرجع المبلغ بإصرار، المائتان جنيهًا تساوي ثمن شراء البيت الذي يسكن فيه بالإيجار، في الطريق راهنت ليليان على موافقتهم عكس توقعي، وفعلا في صباح اليوم التالي، حضرت ليلى إلى المكتب، أخبرت الجميع بموافقة أهلها، عند حضورنا الساعة العاشرة انتظرنا مرجان على الباب مهللا، مستبشرا وقد وزع البارد والحلويات للجميع، باركنا له جلسنا معه ومع ليلى، وضعنا مخطط الفرح، منحت ليليان عطله مفتوحة لليلى؛ لتحضير نفسها للزواج.

في مساء يوم الموافقة، تقدم أهل مرجان مرة أخرى بالشيلة ،سدوا المال برفقتنا، انطلقت الزغاريد من منزل عبدالصـــمد ،نحرت ذبيحه للضـــيوف، بعد يومين، تم الزواج الذي تحدثت عنه الموردة، انتقلت ليلي مع مرجان إلى البيت الجديد الكبير الذي اشـــترته ليليان لهما في مدينة الخرطوم بحري، رحل معها أهلها البسطاء.

(٤٣)

بعد يومين شـــددنا الرحال إلى بيروت، حيث تنتظرنا ملفات شائكة، أهمها ملف محمد خميس، وعروسه حليمة الصومالية، ملف الشـيخ الشـمهري وسـكرتيرته شـرين، الملف الجديد عمتي هدية كلوني، أسـبوعان أمامي لتقديم كتابي، «الجنازير المقدسـة» أمام الصحافة والكتاب العرب والأجانب، في المركز الثقافي الأمريكي.

في مطار بيروت، استقبلنا محمود خال ليليان وزوجته فتحية ، الأسـتاذ بكري الجعلي ،صـديقتنا محاسـن بنت عمه، معهما البطل الأسـطوري محمد خميس وزوجته الشـابة السـاحرة حليمة الصومالية، أختها مريم وخطيبها الأمريكي روبرت بترسن، أخذني محمد خميس بالحضـن ،دموع الفرحة في عينيه، حضـنت ليليان زوجته حليمة، وتشـابكت الأيدي بالتهاني والتبريكات والإعجاب، توجهنا جميعنا إلى فيلتي في حي جونيا، اسـتمررنا في الحديث الاستئناس ،سرد القصص والمفاجآت حتى الفجر، انصرف بكري ومحاسـن إلى فيلته المجاورة، قبل أن نخلد للنوم، أرسلت السـائق معه محمود إلى فندق هوليداي إن في شمال بيروت؛ لدفع الحساب احضـار كل الأغراض التي تخص محمد وعروسـه، وضـعها في الطابق الثالث؛ ليسـكنا مؤقتا معنا، تقابلنا في الصـباح في حجرة الطعام، حيث أعدت أم محمد فطورًا فاخرًا اسـتمر أكثر من ساعتين، راجعنا خلالها أنشطة المكتب والملفات أثناء فترة غيابنا، ودائع محمد خميس البنكية، انفرد محمود جانبا، راجع مع ليليان ودائعها المالية، عرفت من محمود أن محمد قرر شراء فيلا لا تبعد عنا في ضاحية جونيا، سيتم استلامها الأسبوع القادم، تم توظيف مدرسين؛ لتحضيره؛ لشهادة الثانوية العامة.

موضـوع عمتي هدية كلوني، أصـبح الأهم بالنسـبة لي، لا بد من الوصول إليها ،دعوتها هي وزوجها ؛لحضور تقديم كتابي الذي يحمل في صفحاته ما يهمها ويهمني؛ للتأكد من عنوان عمتي هدية تليفوناتها، اتصلت بمايكل جيير لتكليفه بإيجاد معلومات عن عمتي.

التعرف عليها ورقم هـاتفها بـأسـرع ما يمكن، تفهم مـايكل ضرورة وجود هدية مع وزوجها في بيروت، لحضور تقديم كتابي «الجنازير المقدسة» في المركز الثقافي الأمريكي، في صباح اليوم الثاني، وصلتني المعلومات المطلوبة من مايكل، أضـاف أيضـا أن زوجهـا تيري كلوني، من أكبر رجـال الأعمـال في تورينتو، لـه متاجر وسـلسـلة من المطاعم الإيطالية، شـركة إعلانات ضـخمة، تعمل في كل الولايات الكندية يديرها مع أولاده، شــريك في أكبر مكتب قانوني، يعمل ابنه الأكبر رئيسا لمجلس إدارته.

قبل أي خطوة للاتصـال بعمتي هديه، طلبت من فتحية ترجمة مختصـرة لقصـة جدتي مسـتورة، مع ترجمة كاملة لكل الوثائق التي كانت معي بخصـوص اسـترقاق جدتي، أعطيت فتحية يومين فقط، اتصـلت بالمركز الثقافي الأمريكي ببيروت، طلبت تأجيل تقديم كتابي أسـبوعًا؛ لضـرورة حضـور شـخصـيات من كندا يخصـهم موضـوع الكتاب، بكل أسـف رُفض طلبي؛ لأن المركز قام بدعوة رئيس نادي الكتاب الأمريكان ذوي الأصـول الأفريقية، وعضـو من الكونجرس يرأس حقيبة الشرق الأوسط، كلاهما له ارتباطات لا تسمح بالتأجيل.

قبلت الأمر الواقع، ركزت بنفسـي مع فتحيه؛ لإنهاء الترجمة في يوم واحد، تم تجميع ملف معه خطابي الخاص لهدية، الذي ترحمت فيه على روح أمها الشـول المتوفاة قبل أسـابيع في مكة أثناء موسـم الحج، عرفتها فيه بشـخصـي، صـلتي بأمها وبها، أشـرت فيه إلى خطاباتها التي أرسلتها إلي أمها مع نسخ منها، دعوتي لها مع زوجها للحضـور إلى بيروت؛ تشـريفي بتقديم كتابي الجنازير المقدسـة كما أوضـحت لها نشـاطي في محاربة العنصـرية بتأسيس مكتب الشـبكة الدوليـة لتحرير الرقيق، أرفقت عنواني ،أرقـام هواتفي، أضـفـت ملحوظة «إقامتهما على حسابي ،أيضا تذاكر السفر»

اتصلت بالمستر كاسبر صديقي في القاعدة الأمريكية؛ لمساعدتي في إرسال الملف عن طريق الحقيبة العسكرية، التي ترسل طائرة يوميا إلى العاصمة الأمريكية من بيروت، فعلا أرسل كاسبر أحد الجنود إلى منزلي؛ لأخذ الملف.

قام محمود مدير مكتبنا بنقل محمد خميس وزوجته إلى الفيلا التي اشتراها، تم شراء سيارة مرسيدس له مطابقة لمواصفات سيارتي، عين له سائقًا سودانيًا، أصر محمد خميس على مريم أخت زوجته، وخطيبها روبرت بترسن بالسكن معه في الفيلا، أقمنا حفلًا جمع كل الأصدقاء؛ ترحيبا بمحمد وزوجته حليمة.

بعد أربعة أيام، الساعة الواحدة صباحا ،أنا في سرير نومي ،بجانبي ليليان، وصلني تليفون من عمتي هدية كلوني، بعد تقديم نفسها بصوت باك لم أسمع منها إلا نشيجًا أقرب إلى الصمت منه إلى العويل، تجمدت الكلمات على شفتيها بتأوهات تاهت الجمل بينها، لم تستطع الاستمرار في الحديث معي، طلبت منها أن تهدأ قليلا ونعاود الحديث مرة أخرى، لكن زوجها كلوني أخذ السماعة، واصل معي:

- دكتور خالد لنا الشرف للتعرف عليك، رحم الله والدة زوجتي هدية، كم كنت حريصا على رؤيتها يوما ما، وصول ملفك إلى هدية بمثابة مولد جديد لها، منذ زواجنا كانت تبحث عن هذه اللحظة.

- عظيم الشرف لي مستر كلوني، أنا أيضا كرست عمري لما تبحث عنه هدية.

- سنكون عندكم في بيروت بعد ترتيب أمورنا هنا خلال أسبوع، لا تهتم بالتذاكر، وكالة سفر تابعة لأعمالي ستقوم بترتيب الحجوزات لنا، لك الشكر.

- كم أنا سعيد بقبولكما دعوتي، كم لي من الذكريات والتاريخ للسرد عند وصولكما هنا.

- سأحاول مع ابني الأكبر للحضور معنا، هو محام ضليع ، باحث في قضايا الكنديين والأمريكان ذوي الأصول الأفريقية، عمل في مكتب مارتن لوزر كنك باحثا في قضايا العنصرية، منذ وصول خطابك ، علم بما فيه، أعجبته فكرة الشبكة الدولية لتحرير الرقيق، سيطلب موافقتكم على تبني الفكرة في أميركا الشمالية، بفتح فرع في مدينة تورينتو، فرع آخر في مدينة ديترويت بولاية متشجن.

- هذا بالطبع أروع، أتمنى أن تحضر كل العائلة معك.

- ها هي هدية ... قد هدأت الآن، تريد مواصلة الكلام معك.

أخذت عمتي هديه السماعة ،واصلت الحديث معي:

- يا إلهي ...رحم الله أمي، لا أتذكر وجهها لسوء حظي، لماذا أخذها القدر، لا تعرف أين أنا يا خالد ؟!، ما أسعد وأصعب هذه اللحظة !!، أشعر بأني ولدت من جديد، كم أنا حزينة بفقد أمي، سعيدة بعودة تاريخي وجذوري التي لم أنسها يوما من الأيام، يا الله ماذا أقول لك ؟!، لماذا أراد الله لنا كل هذا؟!، لماذا عملت الأديان فينا هكذا؟! يا للهول، أبشرك يا حبيبي خالد أننا سنكون معك في بيروت يوم تقديم كتابك، قررنا ترجمته فورا إلى الإنجليزية، في نفس القسم الذي أرأسه في جامعة تورينتو، قسم الدراسات الأفريقية، سأوصي بتدريسه هنا من ضمن المقررات في العام القادم.

- سعيد جدا، لي الشرف ،هنالك الكثير من الأمور لاطلاعك عليها، أثناء الزيارة.

- زيارتنا ستشمل السودان أيضا، إذا سمح الوقت، بمرافقة زوجتك الجميلة ليليان، فلقد قام زوجي بتأجير طائرة خاصة، ستأخذنا إلى بيروت ثم الخرطوم، من هناك إلى الدامر، بعدها إلى الفاشر؛ لزيارة قبر جدتك، مشاهدة المعهد الذي أنشأته مع والدك في عد الفرسان.

- هذا فوق توقعاتي، أكاد أطير من الفرح، هل أنا في حلم؟!

- هذه حقائق يا دكتور خالد، كما قرر مجلس إدارة شـــركاتنا يوم أمس التبرع لدعم مشـــاريعكم في الســـودان ومكتبكم في بيروت، الشبكة الدولية لتحرير الرقيق.

- هذا كرم لا أجد كلمات لوصفه، معي زوجتي ليليان تتشوق للحديث معك.

أعطيت السماعة لليليان:

- يا لها من لحظة تاريخية يا دكتوره هدية، رحم الله والدتنا الشـــول ،صـــبرنا على فقدها، نحن سـعداء بقبولكم الدعوة، ألف شكر على دعم مشاريعنا الهادفة لمحاربة العنصرية.

- أنا أسعد يا ليليان، أتطلع لمقابلتك الأسبوع القادم، صورتك التي أرسـلها دكتور خالد تظهر روعة شـابة مخلصـة لزوجها ، لقضيته، اهتمي بخالد فهو رقم مهمّ في حياتك وحياتي.

- لا تهتمي فأنا أعيش من أجل خالد.

- إلى اللقاء السبت القادم، ستصلكم تفاصيل وصول الطائرة، مع السلامة.

بعد المحادثة التليفونية مع عمتي هدية، لم نســـتطع النوم، صعدت مع ليليان إلى السطح، جلسنا على طرف حوض السباحة نجتر ما سـمعناه، بدأت الأمور تكبر أمامنا، تقديم كتابي سـيكون غير عادي بلا شك، بوجود عمتي وزوجها، شخصيات هامة من المجتمع الأمريكي والكتاب العرب، في زحمة الأحداث، وجدنا أننا قد أهملنا حياتنا الشخصية ،حياتنا الرومانسية:

- ثلاثة أيام يا خالد ،لم نباشـــر أي نشـــاط حميمي، ماذا أصابنا؟!

- ماذا أقول يا ليليان !؟! ... لك ألف حق، اللوم علي، ما رأيك تحت الماء بدل السرير خاصة ،أن الماء دافيء.

لم تتردد ليليان لحظة في خلع ملابسـها بالكامل، وقفت أمامي تستعرض جسدها البلوري المتقن العاري تماما، قفزت برشاقة داخل الحوض، بسرعة جنونية فعلت نفس الشيء، مارد أسود عار، قفزت بعدها، لم ننطق بكلمة واحدة لمدة نصف ساعة حميمية الإمتاع شعرنا بعدها بالنعاس ، رجعنا إلى حجرة النوم، كانت السـاعة الرابعة صباحا، نامت ليليان ورأسها على صدري بينما انسدل شعرها الذهبي على كتفي في استسلام ملائكي.

(٤٤)

استيقظت منزعجا في العاشرة صباحا على رنة التليفون، كان من محمود مدير مكتبنا ببيروت:

- صباح الخير دكتور خالد، متأسف على إزعاجك .
- خير يا محمود.
- شـرين من مكتب الشـيخ الشـمهري جاءت عندنا في المكتب هنا ،معها مدير مكتب الشـيخ في بيروت، معها مظروف هام جدا قالت وصى الشمهري مدير مكتبه الذي يرافقها بتسليمه لك.
- سأكون عندكم بعد ساعة، شكرا، مع السلامة.

لم تتحرك ليليان من نومتها على صـدري، لكنها غيرت وضـع رأسها على المخدة، توسدت شعرها دون فتح عينيها، ففككت الاشتباك بيني وبينها بحذر ،تسللت من السرير إلى الحمام، ذهبت إلى المطبخ؛ للافطار، بدأت كتابة رسالة لليليان؛ لأوضح لها أنني ذاهب إلى المكتب، قبل إكمالها، دخلت ليليان المطبخ بقميص النوم الشـفاف، بدت عيونها الزرقاء الناعسـة تناور بين النوم والصـحيان كأنها عروس بعد يوم دخلتها، أحضرت لها أم محمد المعطف، ألبستها وهي ملتصقة بجسدي، بدأنا سـويا الإفطار ،أخبرتها بالمهمة التي ذاهب من أجلها إلى المكتب، طلبت منها مرافقتي لكنها اعتذرت، لم تعلق وهي تعرف أنني سـأقابل شـرين الملعونة، في أقل من سـاعة كنت في المكتب، أول من اسـتقبلني بالترحاب كانت شـرين، قدمت لي مدير أعمال الشـيخ الشـمهري في بيروت الأستاذ «مؤيد العجلان»، من لهجته عرفت أنه لبناني من أصول سورية، قدم لي المظروف ذكر لي:

- الشيخ كان حريصا على مقابلتك، لكنه اضطر للسفر إلى بريطانيا؛ لموضوع هام يخص أعماله.

فتحت المظروف المكون من ثلاثة خطابات، خطاب إليَّ شخصيا، خطاب إلى مكتب محاماة في بيروت، خطاب إلى محمد خميس، اندهشت غاية الاندهاش ،لم أتمكن من تخمين أي غرض قد تكون هذه الخطابات الثلاث.

فتحت الخطاب الخاص بي بلهفة، خرجت من حجرة المكتب التي ضمت محمود وشرين والأستاذ مؤيد، جلست في الحجرة الثانية بجانب فتحية، بدأت قراءة الخطاب:

- المحترم الدكتور خالد

بعد التحية:

ربما يدهشك هذا المكتوب، لكن؛ لثقتي في شخصك الكريم بدون معرفة كاملة تمت بيننا، أقول لك منذ تاريخ مقابلتنا في الطائرة ستة أشهر مضت، كنت أقول لنفسي إنني وجدت ضالتي لحل المشكلة التي أعيشها.

في ذلك اليوم الذي تقابلنا بالصدفة معا في الطائرة، كنت راجعا من عزاء رجل سوري يسمى العجلان يعيش بلبنان كان ذلك الرجل، هو مدير أعمال أبي الشيخ عبد الله الشمهري، تسلمت بعد وفاته دفترا أوصى ابنه مؤيد مدير مكتبي في بيروت بتسليمه لي، كان ذلك الدفتر يحمل تاريخ عائلتنا بالتفصيل منذ القرن الماضي حيث عمل والده أيضا وكيلاً لأعمالنا، من ذلك الدفتر اتضح لي بالأدلة والبراهين أنني ابن جارية شركسية من ملك اليمين، كانت تعمل في قصرنا جلبها جدي من شمال سوريا، اعترف والدي بي كأكبر أبنائه السبعة والعشرين، أما محمد خميس سائقي الذي تعرفه، فهو أخي غير الشقيق لم يعترف أبي بأبوته، أمه جارية جلبت من زنجبار، تربت في قصرنا، طيلة حياتي، لم أعرف محمد خميس غير أنه عبد يعمل في قصرنا بجوار والده خميس المنسوب إليه.

بعد معرفتي لحقيقة مسكوت عليها عشرات السنين، بان محمد خميس هو أخي غير المعترف به في القصر، كان من الصعب علي حسب الأعراف المتبعة عندنا، أشاهر نسبي له، وهو يعمل معي عبدًا وسائقًا، لكن ضميري يؤنبني بعد معرفة الحقيقة؛ فلذلك قررت إنصافه لعلي أمسح عنه عذاب الثلاثين سنة المرة التي عاشها عبدًا لا ليس أخًا، أريد إصلاح ما أفسده الدهر ،تقبله العرف القبلي.

محمد الآن في الصومال يبحث عن زوجة، وفرت له ما لزم من المال للزواج، لكنه لم يرجع حتي الآن، قررت إنصاف محمد لعل الله يغفر لي، بعيدا عن الأهل الذين لا يعترفون بما أقوله لك الآن؛ لذلك أريد مساعدتك فيما يلي جزاك الله:

١- البحث عن محمد وإحضاره إلى بيروت؛ ليعيش قريبا منك.

٢- إتمام تسجيل خمس عمارات وثلاث فيلل في بيروت باسمه.

٣- فتح حساب باسم محمد بشيك قدره عشرة آلاف إسترليني تستلمه من مدير مكتبي ببيروت مؤيد العجلان.

٤- أن تقبل إدارة مكتبي ببيروت براتب شهري يساوي ألف جنيه إسترليني شهريا ،تدريب محمد لاستلام العمل وهو شخص ذكي جدا.

٥- مقابلة مكتب المحاماة الذي نتعامل معه في بيروت؛ ليقوم بتسجيل كل توكيلاتي في بريطانيا وأمريكا باسم محمد بجانب تسجيل العقار ببيروت.

٦- بما يخص المدير الحالي مؤيد العجلان والآنسة شرين، الأمر متروك لك ،لمحمد في الاحتفاظ بهما أو فصلهما عن العمل ودفع مستحقات كل منهما.

٧- مرفق نسخة لعلمك من الخطاب الصادر منى إلى مكتب المحاماة.

٨- خطاب موجه إلى محمد خميس شخصيا، أرجو فتحه أمامه وقراءته له.

في طريق عودتي من لندن ســأمر ببيروت؛ لمقابلتك ،أتمنى أن يجمعنا الله بمحمد خميس الذي انقطعت أخباره، مرفق كارتي الشخصي، به أرقام هواتفي.

لك منى الود والاحترام.

الشيخ الشمهري محمد الشمهري.

قرأت الخطاب مرتين؛ لاستيعابه، الدهشة تملكتني بصورة أنستني كل جداول أولوياتي، سلمت الخطاب لفتحية، رجعت إلى مكتب محمود، اتصلت بمكتب الأستاذ بكري الجعلي، أخبرت سكرتيرته بأني في طريقي إليه، أريده أن يفرغ نفسه كل هذا اليوم لموضوع هام جداً، أخذت معي شرين والأستاذ مؤيد، توجهنا إلى مكتب بكري، طلبت من محمود وفتحيه الحضور فورا معي بالسيارة الأخرى.

في غرفة الاجتماعات بمكتب الأستاذ بكري ،معي الأستاذ مؤيد العجلان ،محمود مدير مكتبنا عقدنا جلسة هامة، طلبت من فتحية الجلوس مع شرين في حجرة سكرتيرة بكري لحين الانتهاء من اجتماعنا، جمع بكري المعلومات من خلال الخطاب الموجه إلي من الشيخ الشمهري، نسخة الخطاب الموجه منه أيضا إلى مكتب المحاماة، اتضح أن بكري يعرف جيدا مكتب المحاماة الذي يتعامل معه الشيخ الشمهري، تركنا فتحية وشرين في مكتب بكري ، توجهنا إلى مكتب الشمهري ،هو عباره عن مربع كامل يتكون من أربع طوابق، استلمت الشيك المشار إليه بعشرة آلاف جنيهاً إسترلينياً، توجهنا بعد ذلك إلى مكتب المحماة، استقبلنا المدير بالترحاب بعد أن عرف أننا برفقة الأستاذ بكري الجعلي، تم توثيقي أمام مدير المكتب بتوكيل الأستاذ بكري؛ ليقوم بما هو مطلوب لحين حضور محمد خميس، تركت مكتب المدير وأمامه بكري ومؤيد ومحمود للقيام بما لزم، رجعت إلى الفيلة حيث انتظرتني ليليان بتشوق لمعرفة الأخبار، سردت لها القصة قالت لي إن قصة محمد خميس، أقرب إلى الخيال من قصة عمتي هدية، اتصلت بمحمد خميس، طلبت منه الحضور إلى فيلتي لموضوع خطاب هام يخصه من قبل الشيخ الشمهري، حضر مع زوجته فوراً، بعد تناول المرطبات جلست معه منفردا في مكتب الفيلا، فتحت الخطاب أمامه:

- أخي العزيز محمد

سامحني، عليك أن تعلم بأنك أخي، والدي هو والدك، لكن قدر الله ما حدث لك، أتركك مع الدكتور خالد؛ ليشـرح لك كل شـيء، أتمنى أن تكون قد وفقت في زواجك، في انتظار أخبارك، مرة أخرى أقول لك سامحني.

أخوك الشيخ الشمهري محمد الشمهري.

قرأت لمحمد الخطاب القصير:

- لا أفهم هذا المكتوب.

بدأت له الشرح المطول، بدأ يستوعب الموضوع بهدوء، أخذ الخطاب مني، قرأه بوضـوح، بصـوت مسـموع حينها نزلت دمعات من عيونه:

- حسـبي الله، لماذا أردت يا الله بي هذا التاريخ المر؟!، لأن أمي كانت جارية سـوداء؛ لأن الشـمهري كانت أمه جارية بيضاء؟!

- يا محمد أنا مقدر موقفك، لكن لنترك الموضـوع اليوم إلى الغد؛ لإعطاء نفسك الفرصة للتفكير والتمعن، ثقتك بالله وبنفسك يا رجل.

- عن أي إله تتكلم يا دكتور !!، أنا لا أصـلح للعيش في أي قطر عربي أو إسـلامي، أرسلني إلي بلد في أفريقيا، ابعثني إلى حيث ولدت أمي.

بارتعاش مفاجئ، أجهش محمد يبكي، بحرقة سـيطرت على جسمه، قمت من مكاني، ربت على ظهره:

- اهدأ يا محمد ،لا تنفعل، أراد الشـيخ لك الخير، يريد التسـامح معك، دعنا ننتهي أولا من استلامك لممتلكاتك ،مكتبك، وضـع هذا الشـيك في حسـابك، بعد ذلك سـأسـاعدك، في كيفية التعامل مع عالمك الحر الجديد، مع أموالك الضخمة يا رجل.

قام محمد من الكرسي، توقف عن البكاء ،سألني:

- هل قابلت يا دكتور القوادة شـــرين؟ لا أريد رؤيتها أبدا، سأقتلها إذا ظهرت أمامي.

- نعم قابلتها، ليســت هي أصـــلا طرفا في الموضـــوع ،لا تعرف عنه، الأسـتاذ بكري كمحامي متخصـص، سـيقوم بكل ما لزم لمصلحتك.

تفاديا لذكر الشيخ، أردت الترويح عن محمد.

كيف تسير دراستك هذه الأيام.

- صـــدقني يا دكتور، إنني أكثر علما من الذين يدرســـونني الآن؛ لذلك، طلبت من الأخ محمود تعيين أســاتذة جدد، بحمد الله يمكنني قراءة الجرائد العربية والإنجليزية بكل ســـهولـة، أما الرياضيات، ربما تكون أنت الوحيد الذي يتحداني فيها.

- ما شـاء الله، إنك رجل عبقري، وهبك الله ذكاء غير عادي، ســـأتعاون معك في إدارة مكتبك وأعمالك فترة، أنا متأكد، أنك تملك المقدرة الكافية، لإدارة أعمالك بمفردك، أعتقد أنك تعلم، انشغالي الأيام القادمة، بتقديم كتابي الجنازير المقدسة في المركز الثقافي الأمريكي، بعد ذلك ســـنقوم معا باســـتلام المكتب، بداية الأعمال باسمك.

- أتطلع إلى يوم الخميس القادم؛ لحضـــور الاحتفاء بكتابك، لحين تفرغك لمســـاعدتي، ســـأقوم بالتشـــاور مع زوجتي حليمة، لاستيعاب وضعنا الجديد.

- دعنا نذهب إلى المطبخ؛ لتناول ما أعدته أم محمد.

(٤٥)

اليوم أرى محمد خميس الذي نجحت في تحريره من جنازير العبودية التي فرضت عليه في موطنه العربي، قد ولد من جديد، لكنه لايزال حتى هذه اللحظة، يلبس جلباب العبودية القديم، المسكين يحتاج بعض الوقت؛ لاستيعاب وضعه الجديد، لكي يلبس جلباب الحرية الجديد، لأول مرة، يعرف فيها أنه ابن شيخ، ليس عبدا، كما عاش الثلاثين سنة الماضية، كيف يعيش؛ ليتعامل مع هذه الأموال الضخمة، التي نزلت عليه من السماء؟!.

بعد ساعة انصرف محمد وزوجته ،بقيت مع ليليان وحدنا، دارت فصول مسلسل محمد خميس، في شاشة الذاكرة، محمد السائق البسيط، الذي أراد له القدر أن يظل عبدا، خادما مدة ثلاثين سنة، ضرب الرق عليه الجنازير المقدسة كل هذه المدة، واليوم أصبح حرًا، صاحب أموال، يا الله كيف مكنت السلطات والأديان لأصحاب الرقيق التحكم في مصائر أرقائهم؟!!، كيف تلاعبوا بأنسابهم؟!!، ما أشبه قصتي بقصة محمد، جدتي مستورة تحملت آلام ومذلة السنين، في بيت الجيلي ثم بيت النابر، أين كان الله من هذا كله؟!

تذكرت جملة قالها لي محمد خميس عندما قابلته أول مرة ،كان يبكي بمرارة:

- يا دكتور خالد كم صليت ،طلبت من الله فك أسرى وتخليصيي من العبودية، لكنه لم يستجب لي، ثلاثون عاما من عمري ضاعت، ماذا يريد الله مني؟!!

بينما أنا في دوامة التفكير في قصة محمد خميس، قصة جدتي، تحركت ليليان الجالسة ملاصقة لي، إذا بصدرها الدافئ يضمني:

- حبيبي خلود ... أمامنا ثلاثة أيام للتحضير للاحتفاء بتقديم كتابك الجنازير المقدسة

- نعم ... أيضا علينا مراجعة الكلمة التي سأقرؤها أمام الحاضرين، علينا تحضير الطابق الثالث بالفيلا ؛لاستقبال عمتي هدية وزوجها وابنها بعد الغد، وضع برنامج زيارتهم السودان.

- لا تنس يا حبيبي حصر النسخ التي ستقدم هدايا للحضور النسخ التي ستعرضها دار النشر للبيع.

- لنترك هذا الموضـــوع لمحمود وفتحية، لا ... عفوا، إنهما مشـغولان مع الأسـتاذ بكري في تثبيت حقوق محمد خميس، دار النافذة للنشر ستقوم بما يلزم ،لا يهمك.

- خالي وحده كفيل بالمهمة، لكن فتحية عليها مســاعدتنا، الوقت أزف.

- اتصلي بها الآن يا ليليان، وضحي لها البرنامج.

تركت ليليان في المطبخ، دخلت مكتبي؛ لمراجعة الأحداث التي تراكمت حولي ،انهمكت في تدوينها، أثناء ذلك وصـــلني فاكس يوضح موعد وصول الطائرة الخاصة بأسرة عمتي هدية من مدينة تورينتو كندا.

بعد ساعتين خرجت مع ليليان، إذ كان على تسجيل الكلمة التي ســوف أقدم بها كتابي أمام المســتمعين، للمركز الثقافي الأمريكي الذي يريد تسجيلها لصالح صوت أمريكا للشرق الأوسط، مكتب البعثة السـودانية ببيروت، يريدون تســجل كلمتي لإذاعة هنا أمدرمان.

أول مرة نخرج ،معنا السائق السوداني الجديد، إبراهيم يعقوب من أبناء جزيرة أبا، ســلمه محمود مفتاح غرفته بجناح الخدم، كان قوي البنية، متمكنا يعرف بيروت جيداً، قليل الكلام، في الطريق طلبت منه تعريف نفسه:

- خرجت من السجن قبل ستة أشهر، جريمتي تسبيب إعاقة مستديمة لمخدومي اللبناني، أجلســته على الكرســي المتحرك، نعتني بالعبد الأســود ،صـــفعني، رددت عليه بلكمة أردته على الأرض مشلولا إلى الأبد.

وقتها تذكرت حادثتي مع الخنزير توني فنار النائب البرلماني، قصة تتابعني في هذه المدينة المعدومة الأمان.

في مقر البعثة السـودانية قبل تسـجيل كلمتي لإذاعة هنا أمدرمان، كنت محظوظا بمقابلة أوّلَ قنصل سوداني غير مقيم في بلدانِ الشامِ والمشرق، كان نوبي الأصل حضر وقتها؛ لتلبية دعوتي له بحضور تقديم كتابي، كان رجلا مثقفا من الدرجة الأولي، تبادل معي الآراء عن موضوع العنصرية، عبر لي عن تشوقه لقراءة كتابي بعد استلام نسخته يوم الاحتفاء، بعد رجوعنا إلى الفيلة، اتصل بي الأستاذ بكري؛ ليوضح لي:

- يا دكتور، لقد انتهيت من الإجراءات اللازمة بخصوص محمد خميس، تسجيل الفيلل، العمارات، التوكيلات التجارية، حساب البنك، حضرنا مكتبا له ،مكتبًا لك في عمارة الشيخ الشمهري التي أصبحت الآن من ممتلكات محمد خميس.

- شكرا، سأتصل مساء اليوم بالشيخ الشمهري ،أوضح له ما تم، سأكون معكم جسما وعقلا بعد الانتهاء من تقديم كتابي بعد الغد.

- أكيد يا دكتور مع السلامة.

الساعة العاشرة مساء بتوقيت لندن، اتصلت بفندق ريتس في لندن، خابرت الشيخ الشمهري:

- أهلاً ... دكتور خالد من بيروت.

- يا هلا ... حياك الله يا دكتور.

- أهلا بك شيخ الشمهري، وصلني على مكتوبك، بحمد الله قمت بتنفيذ ما طلبته مني.

- هل استطعت إيجاد محمد خميس؟!

- نعم ... كان هو أصلا معي في بيروت، هذه قصة طويلة سأخبرك بها عند مرورك ببيروت.

- هذا عظيم يا دكتور، أنا ممنون، هل تزوج فعلا.

- نعم ... زوجته الصومالية من أجمل ما تتصور.

- حمدا لله، أنا متأكد أنك خير من يرعى مصالح محمد خميس، لعلك أدركت الآن ماذا كنت أريد منك.

- سـأبدأ فورا في مسـاعدة محمد، بعد الانتهاء من تقديم كتابي «الجنازير المقدسة» بعد الغد في المركز الثقافي الأمريكي ببيروت.

- قرأت أول أمس في جريدة الشـرق الأوسـط اللندنية نبذة عن كتابك، بقلم الناشـر دار النافذة، لو تمكنت من إيجاد حجز إلى بيروت، سأحضر معكم في ميعاد الاحتفاء.

- يشـرفني وجودك معنا، فخر لي أن يكون شـخصـك بين الحاضرين.

- فرصة سعيدة يا دكتور خالد، تصبح على خير.

خرجت باحثا عن ليليان، لم أجدها في حجرة النوم ،لا المطبخ، أخيرا وجدتها في المكتب بالدور الأرضـي، قامت برسم جدول ينظم الاسـتقبال بالمطار لعمتي هديه القادمة من كندا مع أسـرتها بطائرة خاصـة، نظمت عدد المدعوين؛ لاستقبالها، حفل الاستقبال في الفيلا بحضـور ضـيف الشـرف السفير السـوداني، بجانب تنظيم السائقين والعربات، كانت ليليان على الهاتف باسـتمرار، تنسـق مع خالها محمود وزوجته فتحية، شعرت بالارتياح، جلست بجانبها أعيد قراءة ورقة التقديم التي سألقيها بعد الغد أمام الضيوف.

(٤٦)

الساعة العاشـرة صباحا، تجمعنا في صالة كبار الزوار الخاصة بمطار بيروت؛ لاستقبال عمتي هديه وأسـرتها، معنا كل الأصـدقاء، محاسـن ،ليليان ،فتحية ، الدكتورة صـني الأمهرية، لبسـن الزي السوداني، مريم وحليمة لبستا القنتينو الصومالي، شخصي ومحمود ومحمد خميس، لبسنا الجلباب والعمة السودانية.

وصـلت الطائرة الكندية المؤجرة في موعدها، بمجرد دخول هديه صـالة كبار الزوار عرفتها كأني أعرفها منذ عشـرات السنين، لونها الأسمر الفاتح ،شعرها المنسدل على كتفيها، هي صورة تطابق جمال أمي، من خلفها يسير زوجها كلوني، هرعت، ضممتها بالأحضان إلى صـدري، دموع الفرح والشـوق على خديها ، تردد اسـمي، عانقت بعدها مسـتر كلوني زوجها، بعدي عانقتها ليليان ثم بقية الأصـدقاء، اعتذر كلوني لعدم تمكن ابنه من الحضـور، قام محمود بتخليص جوازات السفر والحقائب.

توجهنا حسب البرنامج، الذي أعدته ليليان إلي الفيلة، كان كلوني زوج عمتي يجلس بجوار السائق، جلست عمتي بيني وبين ليليان تقبلني تارة ،تقبل ليليان تارة أخرى، لاتزال الدموع في عينيها وعلى خديها، في الدور الثالث هيأت أم محمد لهما أسباب الراحة من عناء السفر الطويل من تورينتو عن طريق لندن، ظلت معهما تعد حمام الجكوزي ،ما طاب من مشروبات ومأكولات.

مجموعة الأصدقاء انتظروا معنا في الطابق الأرضي، نأكل، نشرب، نتبادل النكات، عندما أكدت لنا أم محمد بأن عمتي وزوجها قد صحيا من النوم الساعة الثامنة مساء، انتقلنا كلنا إلى السطح حول حوض السباحة، حيث أعد متعهد المناسبات عشاء فاخرًا، قامت فتحية بتنظيم الحفل، نيابة عنا ألقت كلمة ترحيب قصيرة رد عليها المستر كلوني باقتضاب.

جلست عمتي بجانبي طيلة الوقت تتحسس وجهي،كفيَّ ، أصابعي بفرحة وحزن معا، طيلة الوقت كانت تسألني:

- هل أشبه أمي يا خالد؟ أين أمي الآن؟ هل يمكنني زيارة قبرها بمكة؟ هل ماتت ومعها ورقة حريتها؟

جستن ودكتوره صني الأمهرية، جلسا حول المستر كلوني يتناقشون في أوضاع أفريقيا وأثر المجاعة التي ضربت المنطقة، محمد خميس جلس مع ليليان والأستاذ بكري يناقش وضعه الجديد، يشكرها على المجهود الذي بذلناه له، فتحية تتفقد الجميع؛ لتطمئن على راحتهم، محاسن استأذنت ،ذهبت إلى فيلة بكري؛ لكي تسلم ابنتها إلى مربية بنت الأستاذ بكري؛ لتنام، رجعت لتواصل معنا.

نبهني محمود، لإنهاء الحفل مبكرا، لكي يستعد الجميع ليوم الغد، أنا بالذات، اليوم المشهود لتقديم كتابي «الجنازير المقدسة»، انصرف الجميع الساعة الحادية عشرة، قمت ،معي ليليان، أوصلنا عمتي هدية وزوجها المستر كلوني إلى الطابق الثالث، تمنينا لهما نوما هنيا، ثم دلفنا إلى حجرة نومنا في الطابق الثاني، محمود وفتحية بعد توديع الضيوف والسائقين، ناما في الطابق الأول بعد مراجعة البرنامج المرسوم ليوم الغد.

كانت الساعة التاسعة صباحا، عندما فتحت ستارة حجرة النوم، رأيت عمتي وزوجها في حديقة الفيلة، يتجولان بين الزهور والأشجار النادرة، التي لم يعرفاها في جو كندا البارد، يبدو أنهما قد أفاقا مبكرين، لفارق الوقت بين تورينتو وبيروت، لبست بسرعة، نزلت إلى الحديقة؛ لأصبح عليهما، وجدت فتحية بثوبها الأخضر في المطبخ، تحضر باهتمام الإفطار مع أم محمد، أما محمود فكان مشغولا داخل مكتبي يراجع أجندة اليوم، جلست على أريكة تتوسط الحديقة مع عمتي هدية، ارتجلت الخطبة التي سوف أقدمها عصر اليوم، أمام الضيوف، قدمت لي بعض التوجيهات المهمة، لكي أجعل المستمعين أكثر شغفا وانتباها للرواية بصفتي الراوي.

بعد نصف ساعة ظهرت ليليان، تحمل علي يدها باقة من الأزهار النادرة ، قدمتها إلى عمتي، قبلتها بالأحضان، أقدم من الركن الشمالي للحديقة المستر كلوني، يحمل أيضا باقة متنوعة من زهور حديقتنا، قطفها بيده، قدمها لليليان ،طبع قبلة على خدها، أمسكنا بأيدي بعضنا، دخلنا المطبخ، استقبلتنا فتحية ومحمود، بدأ الإفطار، كلنا نستمع مستر كلوني الذي سرد لنا تاريخه باختصار، مع عمتي هدية منذ مقابلتها بجامعة ميلانو، حتى زواجهما و سفرهما إلى كندا، صعدت عمتي إلى الطابق الثالث، أحضرت ألبومًا كبيرًا عرضت علينا صور عائلتها ،منزلها الضخم الذي يقع على مشارف بحيرة أونتاريو.

أنا منهمك في الصور لأول مرة نرى وقتها صوراً ملونة، أحضر محمود التليفون أعطاني السماعة:

- أهلاً

- صباح الخير دكتور خالد ... معك الشيخ الشمهري، حضرت مساء أمس خصيصا؛ لحضور الاحتفاء بتقديم كتابك اليوم.

- أهلا بالشيخ يا لها من مفاجأة جميلة ... لي عظيم الشرف، أين أنت الآن.

- أنا بفيلتي في منطقة غدير.

- يشرفني حضورك معنا هنا في جونيا ... سأرسل السائق؛ لإحضارك.

- هل يا ترى سأقابل أخي محمد خميس اليوم ... لا ضرورة لإرسال سائق، معي سائق سيوصلني.

- محمد ليس بعيدا عن فيلتي ... حالا سأخبره، سأتصل بك إذا وجدته... العنوان معك ،أنا في انتظارك، بالسلامة.

بعد أن وضعت السماعة، شعرت بإحساس غريب، قررت عدم الاتصـــال بمحمد خميس، تخوفت من النقلة المفاجئة التي تجمع الاثنين، في هذا اليوم ،في منزلي كإخوة بعد ثلاثين عامًا، كانا سيداً وعبده، نعم ... تذكرت انفعال محمد، عندما قرأت له رسالة الشيخ الشمهري ثم أخذها منى ،قرأها بوضوح وصوت عالٍ أمامي، ثم قال لا أفهم هذا يا دكتور خالد ثم قال:

- حســبنا الله ... لماذا أردت يا الله بي هذا التاريخ المر؛ لأن أمي كانت جارية سوداء، أنت الذي خلقتها ولأن الشمهري كانت أمه جارية بيضـــاء؟! تبا للأديان، أقول لك يا دكتور خالد برغم الأموال الضخمة التي أعطاني إيّاها الشيخ فأنا لا أسامحه ،أنا مرتد إلى الأبد، سأبحث عن الدين الذي يحترمني ،يقبلني بسواد لوني.

بعد هذا الهاجس، الذي سيطر على تفكيري، اتصلت بالشيخ الشمهري:

- أهلاً ... هلا بالشيخ متأسف ... لم أجد محمدًا في سكنه، لبعد المســافة ما رأيك ننظم اللقاء مباشــرة في المركز الثقافي الأمريكي.

- لا مانع ،أنا لا أزال متعبًا من السفر، سأرتاح قليلا.

- ألف سلامه، لنا اتصال.

حمدت الله على إفشـــال اللقـاء بين الأخوين عمـدا، أزعجني شـــعوري بأني كذبت، تشـــاورت مع ليليان، قبلت تبريري مما أراحني، عليَّ جمع كل طاقاتي وهدوئي لألقى كلمتي عصـــر اليوم دون ضجر، طلبت من محمود وفتحية الذهاب إلى محمد خميس في بيته ، التحدث معه بحضـور زوجته ،إخباره بأن الشـيخ الشـمهري سـيحضـر بروح طيبة للقائه اليوم، أن الشـيخ حضـر خصـيصـا؛ لمقابلته ،للمشاركة في الاحتفاء بكتابي، استمرت جلستنا أنا وليليان مع عمتي وزوجها، ثم خلدنا للراحة لمدة ساعتين.

(٤٧)

تولت ليليان سـاعة الصـــفر بعد الغداء، لبس الجميع، تهيأوا للذهاب إلى المركز الثقافي الأمريكي، كان لزاما على الذهاب، قبل الضيوف بنصف ساعة، أما ليليان فستحضر بصحبة عمتي هدية وزوجها المســتر كلوني؛ للجلوس في الصـــف الأمامي، محمود وفتحيه عليهما ملازمة محمد خميس وزوجته، في المقاعد الخلفية؛ تحسبا لأي تهور، يقوم به نحو الشيخ.

بعد وصولي بربع ساعة، تنسيقي الكامل مع مدير المركز، مدير دار النافذة للنشـــر، توقيعي على النســخ التي ســوف توزع، على الضيوف بالمجان، أفاجأ بطاقم السلك الدبلوماسي، توسطهم السفير الأمريكي ،معه ضـــيف الشـــرف، عميد الكتاب الأمريكان ذوي الأصـول الأفريقية، يليه ضـيف الشـرف الثاني عضـو الكونجرس ،مدير قلم الشـرق الأوسـط، بجانبه قنصـل السـفارة التي تعمل بها محاسن ، الذي لا أنساه ،عن يمينه زوجته ،معهم الشيخ الشمهري، من خلفهم جلسـت محاسـن تلوح لي بيدها ،بجانبها الأسـتاذ بكري، دخل سـفير السـودان ،تسـالمنا بالأحضـان، أجلسـته في مكانه بين سفير مصـر ومدير الجامعة الأمريكية ببيروت، اغتنمت الفرصـة، سلمت على الشيخ الشمهري بالحضن ثم القنصل.

وصلت ليليان، معها عمتي هدية وزوجها المستر كلوني، جلسوا في الصف الأمامي بجوار السفير الهولندي وابنه جستن وخطيبته الدكتورة صني الأمهرية، في الصفوف الخلفية رأيت محمود ،فتحية ، محمد خميس ،زوجته حليمة، أما أختها مريم، كانت مع خطيبها الأمريكي روبرت بترسن، تمنيت لو كان أبي وأمي في الصف الأمامي، لكن أعرف أنهما لا يهتمان كثيرا بموضوع جدتي، فضلا عن أن أبى عارض كتابة الرواية أصلا، على المنصة جلست في النصف، عن شمالي مدير دار النافذة للنشر، عن يميني مدير المركز الثقافي الأمريكي، بعد أن ازدحمت القاعة بالمدعوين، وقف مدير المركز، رحب بالضيوف:

- أيها السادة، يسر المركز الثقافي الأمريكي في بيروت، تقديم الدكتور خالد إبراهيم النابر عميد شعبة الرياضيات بالجامعة الأمريكية، ليسرد لكم ملخصًا مختصرًا لروايته «الجنازير المقدسة» التي ستنزل رسميا يوم الغد في مكتبات، يسر المركز تقديم نسخة مجانية لكل ضيف معنا في هذه الليلة، تبرع بها الناشر «دار النافذة» التي يشاركنا مديرها الأستاذ جيلاني، أرحب بأعضاء السلك الدبلوماسي، ضيوف الشرف المستر جاك هيلي عميد الكتاب الأمريكان ذوي الأصول الأفريقية ،عضو الكونجرس الأمريكي ، مدير قلم الشرق الأوسط المستر روبرت هيج، من كندا أرحب بالسيدة هدية كلوني، عمة الدكتور خالد وزوجها رجل الأعمال الشهير جلبر كلوني، كما أرحب بممثل الكتاب العرب، مديرة النادي السوداني للكتاب، جميع ضيوفنا الكرام، أتمنى لكم جميعا وقتا ممتعا معنا.

وقف السيد جيلاني مدير دار النافذة للنشر:

- لدار النافذة السبق دائما في تبني معظم الكتب والروايات التي تحارب العنصرية بشتى أنواعها، لحسن حظي، كان لي الشرف بالتعرف شخصيا، على دكتور خالد مؤلف هذه الرواية «الجنازير المقدسة» منذ سنين، إذ نشرناها في حلقات بمجلتنا «النافذة»، أتمنى أن تحوز إعجابكم، قبل ظهور الرواية في السوق، اتصلت بنا عدة دور للنشر والترجمة للتشاور في ترجمتها إلى لغات عدة ،أيضا اتصل مخرجون سينمائيون ومسرحيون؛ لإخراجها في مسلسلات أو أفلام أو مسرحيات، دون إطالة سيداتي سادتي، أترككم مع المؤلف نفسه ، شكرا.

وقفت أمام الضيوف، أرفع عاليا بيدي اليمنى كتابي، «الجنازير المقدسة»، في يدي اليسرى رفعت الثلاث حلقات، من الجنزير الحقيقي، الذي أحضرته من حجرة جدتي، حيث كانت تربط مع بقية ما ملكت أيمانهم من المسترقات، خوفا من هروبهن في الليل:

- سيداتي سادتي، الضيوف الكرام، انظروا أولا إلى هذه الحلقات الثلاث، إنها من أصل الجنازير المقدسة، الجنازير التي كانت تقيد بها جدتي داخل منزل سيدها المسلم جدي، لكيلا تهرب ، تطالب بحريتها، يغلب على الحزن والفرح اليوم، بتقديم روايتي التي تطاردني أحداثها حتى هذه اللحظة، سعيد بتكوين الشبكة الدولية لتحرير الرقيق بمساعدة زوجتي ليليان الشاهر، قبل إصدار كتابي الذي بين أيديكم، فتحنا فرعنا الأول في بيروت ،الثاني في الخرطوم ، الثالث في أتلانتا جورجيا بالولايات المتحدة ،الرابع في تورينتو ولاية أونتاريو بكندا، نأمل في فتح المزيد من المكاتب في جميع أنحاء العالم؛ لمساعدة الأرقاء المملوكين، الذين عانوا فظاعة التفرقة والقسوة والمذلة والهوان كجدتي مستورة بطلة روايتي، الأرقاء الذين يعانون حتى الآن في جميع أنحاء العالم بلا رحمة، بمباركة الحكام والحكومات، ،مباركة الأديان، الجنازير المقدسة ستكشف لكم الكثير الذي لا تعرفونه عن الرق، وما ملكت أيمانكم، ستكشف لكم ظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

استمررت في إلقاء كلمتي أمام الحضور مدة نصف ساعة، بعد ذلك بدأ مدير المركز في تقديم الأسئلة والتعليقات، كانت عمتي هدية أول المعلقين، تقدمت إلى المنصة بصحبة زوجها المستر كلوني، حكت قصتها باختصار ثم أثنت على فكرة الشبكة الدولية لتحرير الرقيق ،أعلنت عن فتح مكتب تورينتو الذي سيقوم بترجمة الرواية، ثم قدم زوجها أمام الحضور تبرعًا بمبلغ عشرين ألف دولار أمريكي باسم شركات كلوني، لدعم الشبكة في الشرق الأوسط، اهتزت القاعة بالتصفيق.

اعتلى المنصة بعد عمتي الشيخ الشمهري، سرد قصته التي أذهلت الجميع، إذ كيف اكتشف أن عبده أصلا أخوه من صلب أبيه من جارية سوداء وهو من جارية بيضاء، قرر أمام الحضور فتح مكتبالشبكة الدولية لتحرير الرقيق في بلده الخليج العربي، قدم شيكًا بقيمة عشرة آلاف إسترليني؛ لدعم رئاسة المنظمة وفروعها في أفريقيا.

في اللحظة التي استلمت فيها الشيك من الشيخ الشمهري إذا بي أسمع طلقًا ناريًا موجهًا من الصفوف الخلفية تجاه المنصة، أصاب الطلق ذراعي اليُمنى، لم أفق بعده إلا صباح اليوم التالي ،أنا في العناية المركزة بمستشفى المركز الأمريكي، حولي ليليان ،عمتي هدية ،زوجها المستر كلوني ، محمود ،فتحية ،محاسن ،الأستاذ بكري، حاولت التحرك وجدت يدي يلفها الجبس، قبل أن انطق بكلمة قالت ليليان:

- الحمد لله يا حبيبي على سلامتك.

- يا لله ماذا حدث.

- تمهل قليلا يا خالد ... ستعرف ... من فضلك اشرب هذا العصير.

(٤٨)

قبل أن أكمل العصير، بدأ الأستاذ بكري في سرد ما دار في تلك الليلة:

- أنبهك بأن ضابطًا من المارينز ينتظر خارج الحجرة؛ لاستجوابك، لعلمك من أطلق النار، هو محمد خميس، هو الآن في الحبس الانفرادي داخل المركز، لكني طلبت منه عدم الحديث إلا بحضوري.

- يا الله لا أصدق الفاعل، محمد خميس.

- نعم إنه محمد خميس ... لكنه كان يقصد قتل الشيخ الشمهري.

- لا حول ولا قوة إلا بالله ... لماذا؟ ماذا حدث للشيخ؟

- الحمد لله لم يحدث له أي شيء، سافر إلى لندن مساء أمس، عليه، بعد استجواب ضابط المارينز لك، سأذهب ؛ لمساعدة محمد.

- ماذا أقول إذا سألوني عن محمد؟

- لكي نخفف عنه الحكم ... قل: إنك أثناء سفرك إلى الخليج، تحرشت بهذا الرجل في مشادة كلامية، هددته... قل: ربما أراد الانتقام منى، القصة كلها ورطة تحتاج تلفيقًا.

قبل أن يأذن بكري لضابط المارينز باستجوابي، اتصل بالدكتورة صني وضح لها التفاصيل، عليها بالحضور سريعا؛ لكتابة تقرير يقلل من خطورة الإصابة، بصفتها دكتورة العائلة، انتهى استجوابي، كتبت دكتورة صني التقرير المطلوب، أسرع بكري إلى الوقوف بجانب محمد خميس قبل استجوابه، من هول المصيبة نسيت آلام ذراعي المكسورة، محمود لم يفارقني دقيقة واحدة، حرص على كتابة تقرير كامل عما حدث في تلك الليلة، وضع التقرير أمامي، خرج ؛لتصريف أمور المكتب ،الفيلا نيابة عنى.

قرأت التقرير الذي وضح:

- محمد خميس أخذ خفية المسدس المرخص من سائق عربته، قال بوضوح إنه سينتقم من الشيخ الذي استعبده ثلاثين عاما، أنه لا يرى أي تعويض لما فقده تحت وطأة العبودية طيلة تلك الفترة غير مقتل سيده الذي أصبح له أخا بالصدفة، طفق يصرخ ويبكي عندما أصابتك الطلقة، كان يعتقد أنك مت.

- ولولا تخليصنا بسرعة للشيخ الشمهري وتسفيره في نفس الليلة، لكان في حساب المفقودين، لحسن الحظ تمكنت فرقة من المارينز السيطرة على الموقف، استلموا المسدس، اعتقلوا محمد خميس، لم تتدخل الشرطة اللبنانية.

كان أسبوعا حزينا بالنسبة إلي، لكل من كان حولي، خاصة زوجتي حبيبتي ليليان ،عمتي هدية وزوجها، الحادث غير برنامج عمتي وزوجها ،رجعا حزينين للغاية مما شاهداه، تأجلت رحلة السودان إلى وقت أنسب في المستقبل، تولى بكري هندسة التحريات مع الضباط الأمريكان الذين عرفتهم عن قرب، تعاملت معهم في المركز، بعد مداولات عدة مع بكري وإدارة المركز، تم إطلاق محمد خميس من محبسه الانفرادي، تمت مصادرة المسدس.

تسرب الخبر إلى الصحافة اللبنانية، كتبت صحيفة الحياة في صفحة الجريمة عنوانًا متوسطًا:

- سودانيون يصفُّون خلافاتهم العرقية في بيروت .

ورد اسمي ،اسم الرواية الجنازير المقدسة مما زاد الإقبال عليها في جميع البلدان العربية؛ لحسن الحظ لم يرد اسم محمد خميس.

تماثلت للشـــفاء، أزيل الجبس من ذراعي، نظم بكري جلســـة مقفلة معي في الفيلة تضـــم محمد خميس ومحمود، اعتذر محمد أمامنا حتي ســـالت الدموع من عينيه، تفهم ما قام به بكري من تغطية لتخليصـه من سجن محتوم، لولا ذلك لقدم للمحاكم اللبنانية ،كانت ستأخذ من عمره على الأقل خمس سنوات، تفهم الورطة الحرجة التي وضـعنا فيها، نحن من قمنا لنصـرته وتحريره من العبودية، بعد سماعه بإنصات مركز لما ذكرناه، قال محمد:

- لن أصفح عن الشيخ الشمهري، طال الزمن أم قصر، لي حساب معه، هل ممكن أن يتخيل واحد منكم يا أساتذة، ثلاثون عاما في العبودية، هذا يساوي حكم بالإعدام، لقد أعدمني الشمهري، على إعدامه، بعد كل السنين التي قضيتها في جنازير الرق، فأنا لا أخاف من شيء في هذا العالم الظالم، سامحوني ... أنا صاحب ثأر.

- يا محمد، الرجل لم يعرف أنك أخوه طيلة هذه المدة.

- ليس هذا مهما يا دكتور خالد، بصـــرف النظر عن أنى أصـــبحت أخا حقيقيا له، مرارة الهوان الذي ذقت، أحس بها في حلقي حتي الآن، لست بشرا عاديًا، الشمهري، خلق منى مسخا شـــيطانيًا، عليه بتحمل نتائجه، أنت الذي حررتني من الرق يا دكتور خالد، ليت الشمهري لو ظل بعيدا عني، بوجوده لا أشعر بالحرية، فزواله من هذه الدنيا لابد منه.

تدخل الأستاذ بكري:

- لا يا محمد، لســـت مســـخا شـــيطانيا، عليك بابتلاع مرارات الماضـي كما فعلنا نحن، ما ينتظرك أهم، زوجتك ،أطفالك في المستقبل، نحن أصدقاؤك، تذكر من يحتاج لوجودك.

- يا أســـتاذ بكري أنا أتعلم منكم، لكنكم لم تلبســـوا جلباب الرق الذي لبسته ثلاثين عاما.

- لا يا محمد، كلنا مررنا بنفق العنصرية، ذقنا مرارته ،تسامحنا مع أنفسنا، قررنا العيش؛ لمحاربته.

- اعطوني فرصة التفكير مع نفسي ،مع زوجتي، لعل الوقت يلعب دوره في تغيير المواقف.

- الله يوفق الجميع، تذكر غدا موعدنا في مكتبك للقيام بتسليمك المهام الجديدة.

- نعم أتذكر، لكن الرجاء حضورك يا دكتور خالد، ترى بدونك أنا لا أساوى شيئًا.

انصرف الجميع، تفرغت للجلوس مع عمتي وزوجها ،معنا ليليان، سألتني عمتي:

- هل يمكنني الجلوس مع محمد خميس مدة ساعتين؟ أريد التعرف على قصته مع الشيخ، الفكرة أنني أريد إخراج فيلم أو مسلسل للتلفزيون الكندي بعنوان ثلاثون عاما من العبودية.

- حقيقة الفكرة رائعة، لكن محمد خميس يعيش هذه الأيام في وضع غير طبيعي بعد محاولته قتل أخيه يوم أمس.

- هذا ما أحتاجه، إذا قبل الحديث معي وهو بهذه الحالة، فسيكون صادقا، أنا معي جهاز تسجيل الصوت.

- لا مانع ،سيكون معكم مساء الغد؛ لأنه سينشغل في الصباح باستلام ممتلكاته ومكاتبه.

في هذه الأثناء دخل السائق، أحضر الصحف اليومية كالعادة، قرأت في الصفحة الأولى:

- سقوط طائرة الخطوط الجوية البريطانية الرحلة رقم ٠٢١ بعد إقلاعها مساء أمس من مطار بيروت.

اتصلت فورا بمحمود، الذي أكد لي أنها نفس الطائرة التي سافر فيها الشيخ ليلة أمس، أصابني ارتباك ،أسفت على الشيخ الشمهري،

خرجت من الفيلة ، اتجهت إلى مكتب بكري؛ لمرافقته مع محمد خميس ومحمود؛ لإتمام عملية استلام المكاتب ،تنصيب محمد بديلا عن الشيخ الشمهري، لحسن الحظ لم يكن هنالك أحد سمع عن سقوط الطائرة، موت الشمهري لم يؤكد بعد.

بإشراف الأستاذ بكري الجعلي، تمت عملية التسليم والتسلم، تم تحرير محضر يوضح أن محمدًا هو صاحب المكتب ،رئيس مجلس الإدارة ،اعتماد توقيعه لدى الدوائر المختصة والبنوك، حضر مع محمد عديله المحاسب القانوني، المستر روبرت بترسن المعيد بالجامعة الأمريكية، أوكلت إليه بعد الاجتماع مراجعة الحسابات؛ لأقوم بإعانة محمد في ترتيب أموره ،تدريبه على الطرق الإدارية، حسب طلب الشيخ استلمت قمة الهرم الإداري للشركة.

انتهى اجتماعنا في الثامنة مساء، حسب طلب عمتي هدية، أخذت محمد معي إلى الفيلة؛ لمقابلتها ،التحدث معها عن تاريخ الثلاثين سنة التي أمضاها في عبودية أخيه، تم اللقاء بصورة درامية، إذ فضفض محمد بكل ما يجيش في صدره مدة ثلاث ساعات باللغة الإنجليزية الواضحة، استعملت عمتي المسجل الصوتي على شريط ممغنط، في نهاية التسجيل، طلبت عمتي من محمد التوقيع على تفويضها في إنتاج فيلم سينمائي بعنوان «ثلاثون عاما في العبودية» يحكي مأساته، وقع محمد على التفويض بكل سرور.

مما لفت النظر في اعترافات محمد خميس أثناء سرده، البكاء عندما ذكر أنه أمر ثلاث مرات من جانب آل الشمهري بقتل بشر، من الذين أمر بقتلهم، كانت أخت الشيخ الشمهري نفسه التي أعادوها بعد هروبها إلى لندن مع السائق الهندي، لكنه رفض الانصياع فعوقب بالجلد والسجن.

بعد الانتهاء من الجلســـة ،خروج محمد، اتفقنا جميعنا بأن محمد يحتاج علاجًا نفســـيًا للخروج من أهوال الماضـــي القديم كعبد يؤمر فيطيع، ثم تحول فجأة إلى سيد يأمر حسب وضعه الجديد، على ضوء ذلك اتصلت بصديقي الدكتور حسن المتخصص في علم النفس، طلبت حضـــوره إلى بيروت بأســـرع ما يمكن؛ لمعالجة محمد، طلبت منه إحضـــار عمي أبكر تلميذه بكلية الطب جامعة الخرطوم؛ لزيارتي في بيروت؛ لأنه لا يعلم أي شـــيء عن السـفر بالطائرات، حضـر دكتور حســـن ،معه عمي أبكر بعد ثلاثة أيام، بدأ علاج محمد الذى تعرف على عمي الذي يقاربه عمرا أثناء مرافقة دكتور حســـن في جلســـات العلاج.

على وعد حضـــور الكريســـماس القادم مع عمتي هديه في كندا، ودعناها في الصـــباح الباكر وزوجها المســـتر كلوني في مطار بيروت بالدموع، أقلعت طائرتهما في تمام العاشـرة صـباحا، من هنالك اتجهت فورا إلى مكـاتـب محمـد خميس، حيـث عرف الجميع بموت الشـــيخ الشمهري في حادث الطائرة بعد ظهور التفاصيل بأسماء المفقودين في الصحف.

دخلت على محمد وقد سمع الخبر، فقال لي:

أول مرة يستجيب الله دعائي.

لم أســاير محمد في الكلام، اســتلمت منه رســالة كتبها بخط يده، أمر فيها بإنهاء خدمات كل من شـرين الباز والأستاذ مؤيد العجلان مدير عام الشـــركة، أقنعته بإيقاف الأمر حاليا، إذ لابد من معرفة ملفات المذكورين والتحري عنهما قبل إخلاء الطرف، فلربما هنالك أشياء هامة جدا يجب الوقوف عليها قبل التخلص منهما، بحكم أنهما كانا الأقرب إلى المرحوم الشيخ الشمهري.

بعد ساعة من التشاور مع محمد، دخلت علينا السكرتيرة:

- السيد نكولا زكي المحامي رئيس مكتب المحاماة التابع للشيخ ينتظر في قاعة الاجتماعات ،لديه موضوع هام جدا،

ذهبت مع محمد؛ لمقابلته، بعد الترحم علي المرحوم، أحضر نكولا مظروفًا ،قال: إن الشيخ وصى بفتحه بحضور محمد في حالة مرضه أو وفاته، على الفور استدعيت الأستاذ بكري للحضور قبل فتح المظروف، عند حضوره فتح نكولا المظروف كانت فيه وصية الشيخ، قرأها أمامنا:

- يرث محمد خميس كل ممتلكاتي في الوطن والخارج في حالة وفاتي، تفاصيل الممتلكات ملحقة مع الوصية.

استلم بكري الوصية بصفته مدير مكتب المحاماة الجديد الذي يدير أعمال محمد خميس.

ملامح وجه محمد لم تتغير بعد قراءة الوصية، التي ربما تضيف عشرات الملايين إلى ثروته، من الواضح أن محمد لايزال يعيش في جلباب عبوديته ،لا يستوعب الأوضاع المالية ،لا أهميتها وسط المجتمع، من هذا تأكدت أن الإسراع في علاجه أصبح ضرورة.

رجعت مع محمد خميس إلى المكتب ، طلبنا بعض الملفات من بينها ملف شرين الباز وملف المدير العام الأستاذ مؤيد العجلان للدراسة، طلب محمد من عديله المستر روبرت بترسن المعيد في شعبة المحاسبة وإدارة الأعمال بالجامعة الأمريكية استلام قسم الحسابات فورا ،عليه أيضا مراجعة الفيلات التي طلبناها، جلسنا إلى ساعة متأخرة من الليل نراجع الملفات، معنا الأستاذ بكري الجعلي، بعد أسابيع من المداومة في مكاتب محمد خميس، حسب المراجعات التي قام بها مستر روبرت، اتضح لدى مؤيد العجلان عهدة مالية في بنك باركليز فرع نيقوسيا تساوي خمسين ألف جنيه إسترليني؛ لتنفيذ مشروع الكناري للشاليهات الفاخرة

في جزيرة قبرص، تمت مراجعتها، تم إيقافه عن مواصلة المشروع، عين شخص آخر؛ لإدارته، أحيل مؤيد للتحقيق المالي لعدم ثبوت مصروفات وصلت إلى ألف جنيه، أما شرين فاتضح أنها تعمل جاسوسة على مكاتب الشيخ في بيروت، بتفويض منه بمسمى سكرتيرة خاصة، الشقة التي تملكها كانت هدية لها من الشيخ، لكن لم تسجل باسمها، أوقفت عن العمل بدون حقوق ،إخلاء الشقة بعد شهر بأمر من محمد، لعدم ثبوت اسمها في جداول الشركة.

ردا لجميل قامت به الآنسة جوليا في إحضار والدة مجدولين وهي الشابة الجميلة التي قابلتها في الهيلتون الخليجي ،وعدي لها بإيجاد وظيفة شريفة، استدعيتها للحضور للمقابلة ،معها أوراقها الثبوتية والصحية، دخلت جوليا مكتب محمد خميس، سلمت بكل أدب على ، على محمد بالحضن ،كانت على عينيها دمعة فيها مزيج من الفرح والحزن، لاحظت أنَّها لم تعد ضامرة كما عرفتها سابقا، قام بمعاينتها المستر روبرت، عينها في قسم الحسابات مساعدة له.

لأن محمد خميس رفض العودة إلى بلده؛ لأسباب نفسية، بالإضافة أنه يواصل جلسات العلاج مع الدكتور حسن، فلقد تقرر سفر بكري الجعلي مع روبرت إلى موطن محمد خميس في الخليج العربي؛ لاستلام التركة التي وصى بها الشيخ الشمهري.

(٤٩)

تمر الشهور ،ليليان على أبواب الولادة، لزمت البيت في الأيام الأخيرة، بما أن تاريخ حملها يرجع إلى شهرين قبل زواجنا الشرعي، قررنا السفر إلى تورينتو؛ لاستقبال المولودة في كندا؛ لعدم لفت أنظار معارفنا وأهلنا ؛ لحضور الكريسماس مع عمتي هدية حسب وعدنا سابقا، تولى محمود وفتحيه كل أعمالنا في بيروت بجانب مكتب محاربة العنصرية الشبكة الدولية لتحرير الرقيق، كان في استقبالنا في مطار تورينتو عائلة عمتي

لأول مرة أقابل ابنها روبير وابنتها ســلين، كلاهما يحمل جمال عمتي ،لون أبيهما الإيطالي الأصل، شعر أسود سبيبي أبعد عنهم الجينات الأفريقية، كان الاستقبال دافئا، درجة البرودة كانت عشرة تحت الصـــفر، اتجهنا إلى منزل عمتي الفخم المطل على بحيرة أونتاريو، مع فارق الوقت بين بيروت وتورينتو لم ننم طول الليل، عمتي وعائلتها حولنا نتبادل الأحاديث، ألحت سـلين على ليليان أن تنام معها في غرفتها، عندما شعرت أنها متعبة وهي حامل، أما أنا فاستمررت مع البقية نتكلم حتى الفجر.

بعد انتهاء أعياد الكريســماس، قام نادي الكتاب ذوي الأصــول الأفريقية في أمريكا الشمالية بدعوتي للتحدث معهم وجهًا لوجه عن روايتي الجنازير المقدسة التي ترجمت إلى ست لغات عالمية، قامت زوجتي ليليان بتقديمي، رفعت كتاب كارل ماركس رأس المال ،معه قلم الحبر الشهير، قالت تعرفت على زوجي بهذا الكتاب وهذا القلم في مطار الخرطوم، سردت قصة زواجنا.

تلتها عمتي، التي أصـــبحت جزءًا من الرواية، عند إعادة طبعها باللغة الإنجليزية، ثم ختمت حديثها، أعلنت عن تقديم فيلمها الجديد الذي تناولت فيه قصة محمد خميس بعنوان «ثلاثون سنة في العبودية»، الذي سيعرض بسينما سنتر تورينتو الشهر القادم بحضور محمد خميس نفسه، أهديت متحف العبودية بنادي الكتاب، الثلاث حلقات من الجنزير الحديدي الذي قُيدت به جدتي كجارية في مدينة الدامر.

أنا وليليان، شـعرنا براحة البال والهدوء في كندا؛ فلذلك اشــترينا مزرعة في إحدى ضواحي لندن أونتاريو بها منزل كبير استقبلنا فيه يوسف ابن ليليان وأمها، كذلك أمي ووالدي ومحمود وفتحية، في عيد رأس السـنة اسـتقبلنا مولودتي الجديدة، سـميناها ليليانه تيمنا بجدة ليليان، التي سبيت من ألبانيا ،عاشـت جارية من ملك اليمين في بيت هاشمي في الأردن، يوسف ابن زوجتي ليليان، واصـل دراسـته في كندا، اقنع جدته بالإقامة معنا، أمي من قررت ملازمة حفيدتها، أقنعت والدي فأصبحنا أسرة ممتدة تنعم بالسعادة والحب، أما محمود وفتحية فرجعا إلى بيروت؛ لمواصلة العمل.

خوفا من جرح مشـــاعر والدي، أو إحراج والدتي، لم تصـــارح هدية أبي بأنها أخته ومن أب واحد وهو الجيلي، استمرت عمتي في دورها كابنة للشـــول رحمة الله عليها، تم تعيين أبي مديرا لمكتب الشبكة الدولية لتحرير الرقيق في تورينتو ،أصبح روبير ابن عمتي مسؤولا عن مكتب ديترويت متشجن.

ليليان لم تنس دعوة تلميذتها مجدولين، من أتلانتا جورجيا ،معها طفلها الأول خالد، زوجها مايكل جبير، أمها مسيلة، أقاموا معنا شهرا كاملا أعدنا فيه ذكريات بيروت، في حفلة أقمناها بمزرعتنا لكل الأهل والأحباب، قدم المســـتر كلوني زوج عمتي، وظيفة لمايكل جبير، قبل مايكل الوظيفة، اشـتري منزلا بالقرب منا مما شـجع ليليان ومجدولين على الخروج معا بالأطفال ليليانه وخالد للعب معا، بعد مرور خمس سنين واصلت ليليان دراسة الطب في الجامعة.

محمد خميس تم علاجه، أصـــبح إمبراطورا في مملكته، التي امتدت إلى أفريقيا، حيث تمكن من معرفة أهل أمه، في قرية أواســا حول بحيرة أواســا في إثيوبيا، غمرهم بالعون المالي المســـتمر في تطوير الزراعة، بني لهم المدارس والمســتشـفيات، في الصــومال وفي مدينة هرجيســة مسقط رأس زوجته، قام ببناء قصـر لنسـيبه، شيد مدرسة ثانوية مختلطة، مستشفى، شركة مواصلات برية.

(٥٠)

قبل يومين من تدشـــين فيلم «ثلاثون ســـنة في العبودية» الذي أخرجته عمتي هدية ،الذي يحكي قصة محمد خميس، حضر محمد وزوجته حليمة إلى مدينة تورينتو أونتاريو بصحبة الدكتور حسن؛ لحضور أول عرض، حجزت لهم ثلاثة أجنحة في هوليداي إن التي لا تبعد كثيرا عن مزرعتي، فُوجئت وأنا أســـتقبلهم في المطار، بحضــور عمي أبكر والآنســة جوليا معهم، في طريقنا من المطار، عرفت من محمد خميس انه عين عدة مســتشـــارين وخبراء لكنه عين عمي أبكر معلمًا خاصًا، حافظ سره بعد سفري، واصل عمي دراسته في الجامعة الأمريكية ببيروت، بدلا من جامعة الخرطوم

أما جوليا ، طلب عمي أبكر حضـــورها مع المجموعة؛ لأنه ينوي الزواج منها، كدت أجن عندما عرفت من محمد موضـــوع عمي وجوليا، لم أستطع الانتظار، في نفس اليوم، في جلسة خاصة مع عمي أبكر في أحد مقاهي لندن أونتاريو التقليدية تناقشنا في موضوع جوليا:

- أرجوك يا عمي الابتعاد عن هذه المرأة.
- لماذا ... هل يوجد فيها عيب؟!
- قرأت في سيرتها الذاتية أن لها مولودًا؟!
- أعرف ذلك ... هل هذا عيب؟!
- أتعرف من أب الطفل؟
- هل هذا يفرق!؟!
- أعتقد ذلك.

- يا دكتور بعد كل الذي ورد في روايتك الجنازير المقدســة عن أمي مستورة، هل تعتقد علاقات جوليا السابقة، مشكلة بالنسبة لنا؟!

- أكيد ... أرجوك الابتعاد عنها، مهما كانت الأسباب.
- حتى إذا أحبتني وأحببتها؟!
- نعم حتى إذا أحببتها.

- بعد كل هذا الزخم والنضال ضد العنصرية الذي تقوم به، ما كنت أعتقد أنك عنصـــري حتى الآن، هل تتذكر يا دكتور، السنة الماضية حين قابلتها في الهيلتون.

- هل قالت شيئًا عني؟!
- نعم يا دكتور.
- ماذا قالت لك؟

- قالت إن طفلها ليس ابنك، أنه ابن محمد خميس، نعم ... هو ابنه، سمته خلدون تيمنا بك.

- ابن محمد خميس؟! ... ماذا تقول يا عمي؟!

- أقول لك ... انه ابن محمد خميس.

- كيف عرفت ذلك

- لأنها قالت لي، أنا أصـــدقها، فضـــلا على ذلك، أنه يحمل ملامح محمد خميس.

تسمر جسمي في الكرسي تماما، طأطأت رأسي أمام عمي أبكر، تمنيت أن تخسف بي الأرض في تلك اللحظة، حمدت الله أنه ليس ابني، كان عمي متأكدا من نفسه، يتكلم بكل جدية، راودني شعور أنني على حافة الهاوية ، نهاية كل ما بنيته من عز واســـم، أن ليليان زوجتي ســـترفض حتما زواج عمي، لابد لها أن تعرف كما عودتها، فقدت المنطق تماما أمام عمي، طلبت منه الذهاب سويا؛ لنأخذ معنا جوليا إلى منزل عمتي هديه في تورينتو لنتحدث معها في هذا الموضـــوع، رفض عمي طلبي، أصر على الذهاب أولا إلى الفندق؛ لنتكلم مع جوليا أنا وهو فقط، لم تكن لي حجة غير الموافقة على رأيه، دخلنا الجناح الذي يسكن فيه عمي معها، كانت وقتها في الحمام، خرجت علينا في معطف الحمام، كأني أرى الماضـــي بعيني أمامي الآن، يا للهول، ماذا أقول؟! سلمت على بكل أدب ،جلست، جمعت شتاتي:

- عفوا ... لماذا لم تخبري محمد خميس يا جوليا بالمولود.

- لم أر داعيًا لذلك؛ لكيلا أهز مضـــاجعه وهو في عالم امرأة أحبته وأحبها،

- هذا نبل منك، لكن أمر المولود أهم يا جوليا.

- لقد قررت العيش معه على قدر حالي ...بعد أن طردتني أسرتي /خلدون من المنزل، السبب بكل أسف كان لونه، لكن لك الشكر، لقد تذكرتني ،عوضتني بهذه الوظيفة الكبيرة، أحببت أبكر دون مقدمات، أحبني، حقيقة لم أعرف أنه عمك إلا بعد فترة.

بكت جوليا ،استمرت دموعها على خدودها المحمرة، استأذنت ، ذهبت إلى الحمام؛ لتجفيف دموعها ، رجعت مرة أخرى، ربت عمي على كتفها، واصلت الكلام معها دون جرح لمشاعرها:

- كيف خلدون ،أين هو الآن؟

- يعيش مع خالتي في الضيعة ... إنه طفل جميل والله إنه جميل.

- صدقيني يا جوليا، لو علم محمد خميس لما تركك وحدك لحظة واحدة.

- كيف يا دكتور وهو متزوج، هل يضمني زوجة ثانية؟ وانا مسيحية!

- لا أقصد ذلك يا جوليا.

- هل تمانع إذا تزوجت عمك أبكر؟

- لا أمانع،

التفت إلى عمي أبكر ،الذي كان مستمعا، لم يشاركنا النقاش:

- ما رأيك يا عمي؟

- أولا أنا لست متدينا ،لا علم لي بالشرع، شرعي هو المنطق، جوليا تريد الزواج مني ،أنا أريد الزواج منها، أمي أو جدتك يا دكتور، التي كتبت عنها روايتك الجنازير المقدسة هي المرجع الذي تعلمت منه منهجي، لم يكن لها حول ولا قوة فيما فعلته في الحياة فقد كانت ملك يمين فلا يمكن أن تحاسب على فعل أي شيء آنذاك، لكن بعد الحصول على حريتها ،زواجها بأبي صارت مسؤولة عن أفعالها، بالرغم من تغير الزمن، فجوليا ليست ملك يمين، لكن أرغمها المجتمع والبيئة التي تربت فيها مع الحاجة التي جرتها لأفعال أنت تعرفها يا دكتور، لكن حررتها الوظيفة التي تشغلها الآن، فهي الآن مسؤولة عن نفسها وأفعالها.

- أنت على حق يا عمي أبكر، كيف يكون نسب خلدون في المستقبل؟

- ليس هذا مهمًا في نظري، ابن محمد خميس، أو كان ابن غيره، فهل الزنوج الذين تدافع عنهم الذين باعوهم تجار الرقيق إلى أمريكا أو للعالم العربي يحملون شجرة نسب؟ هل أنت بنفسك يا دكتور تحمل شجرة نسب؟ أنا أحمل شجرة نسب من ناحية أبي بالمفهوم الديني في قريتي عد الفرسان التي ولدت فيها ،يرجع تاريخها لآلاف السنين، لكن هل هذا مهم، خلدون سيحمل اسمي.

- اقتنعت بمنطقك يا عمي ،أبارك زواجك.

قامت جوليا من مكانها، ضمت عمي أبكر إلى حضنها، قبلته قبلة طويلة:

- لا أريد مصارحة محمد خميس، في هذا الأمر يا دكتور، سأظل مخلصةً لزوجي، صديقة لأسرتك ،لأسرته إذا قبلت.

- سامحيني يا جوليا إذا أخطأت في حقك.

- لا ... لقد كنت رجلا كريما ،عطوفا، لولاك لما وجدت أبكر، هذا الرجل العظيم، سأصلي اليوم في الكنيسة المجاورة، لأشكر الرب علي توفيقي، أطلب غفرانه فيما اقترفت في حق نفسي سابقا.

- لنذهب معك أنا وعمي إلى الكنيسة، بعد ذلك نذهب سويا؛ لزيارة عمتي هدية.

بعد حضور القداس في الكنيسة، ذهبنا إلى عمتي ،بعد شرح موضوع عمي أبكر وجوليا، تفهمت الوضع بصدر رحب، طلبت مني إخطار زوجتي ليليان في نفس اليوم، لكنني طلبت منها مرافقتي ؛ لمساعدتي، أقنعتني أن أقوم بمفردي؛ لمواجهة ليليان بالحقيقة دون تدخل طرف ثالث، وصلت المزرعة متأخرا ، وجدت ليليان منشغلة بإرضاع ليليانه، انتظرت قليلا ،استرجعت الماضي، عندما أصرت ليليان على بمصارحتها بالتفصيل بما فعلته في سفرتي الخليجية مع شرين وجوليا، بنفس العزم جمعت شجاعتي وصراحتي، سردت موضوع مشروع زواج عمي أبكر من جونيا، القصة بأكملها بالتفصيل، استمعت دون مقاطعة، في النهاية، بكت بحرقة، قامت من مكانها، أخذت طفلتها إلى حضنها:

- مرة أخرى يعود كابوس جوليا وشرين يا خالد؟ كيف تسمح لعمك بالزواج من مومس؟!

- ماذا يمكنني أن أفعل؟

خرجت ليليان من الحجرة، ابنتها في يدها، اتصلت بعمتي هدية، تكلمت معها مدة طويلة، لم ترجع إلى غرفتنا ،جلست في الصالون، ابنتها بين يديها، تذكرت قصة رحيلها إلى حجرتها في بيت محاسن في بيروت، تخوفت من إعادة نفس السناريو مرة أخرى استمررت أرغبها بحذر شديد، بعد ساعة صمت مرت كأنها دهر، وصلت عمتي هديه، جلست معها مدة نصف ساعة ثم استدعتني، جلسنا سويا

قد تمكنت عمتي من تطويع ليليان إلى حد ما، سار النقاش منطقيا صريحا، غيرت مكاني ،جلست ملاصقا لزوجتي، سمحت لي بأخذ ليليانه ،وضعتها في حجري، بعدها، ذهبت إلى المطبخ ، أحضرت قهوة ،فطائر ،مشروبات، رجعت إلى مكانها بجانبي، حاولت ضمها بذراعي، لكن شعرت بأنها لا تزال تعيش صدمة الحدث، اكتفيت بوجودي ملاصقا لها.

اقترحت عمتي أن نرافقها سويا إلى بيتها لقضاء الليلة، معنا ليليانة الصغيرة، وافقت ليليان، في بيتها الكبير، هيأت عمتي حجرة في الطابق الأعلى، أخذت ليليانة؛ لتنام معها، قصدت إعطائي الفرصة للتفاهم وجها لوجه مع زوجتي، اختليت بليليان ،سيطر الصمت عشر دقائق ،بعدها:

- أغضبني في كل هذا، يا حبيبي، أنك لم تخبرني أن جوليا هي التي أحضرت مسيلة والدة مجدولين إلى الفيلة، أما الباقي حقا كان مؤلما لمشاعري، لكن سامحتك يا خالد، تذكر أنني أنثى تقتلها الغيرة على زوجها.

- أوافقك، لم أتكلم في موضوع جوليا معك؛ لأن إحضار أم مجدولين كان الهدف ،حققناه، الوضوح يا حبيبتي هو شعارنا، كيف أخفي عنك، أنت تملكين الحاسة السادسة؟! حبيبتي، سامحيني، أنت وليليانة وأمي، أعز ما يملكه قلبي في هذا الوجود.

ارتمت ليليان علي، ضمتني إلى صدرها، بكت في صمت ثم طلبت مني إحضار ليليانة للرضاعة، نامت في هدوء عميق في الجانب الأيمن من السرير تفصلني عنها طفلتنا الصغيرة، في الصباح اتصلت بأمي ، صبحت عليها، ذكرتها مناسبة العرض السينمائي، أكدت لي أن الجميع على استعداد كامل، رجعت إلى الحجرة ، وجدت ليليان انشغلت بتغيير ملابس ابنتها، ضممتها إلى صدري، قبلتها، كانت طيعة، دافئة، زال الحزن عن وجهها الجميل، رجعت تتألق كنجمة صبح تسري داخل وجداني، في طريقنا من تورينتو إلى مزرعتنا:

- أريد رؤية خلدون ربما يكون ابنك.

- لا أعتقد ذلك ،أمه هي التي قالت: إن أباه محمد خميس.

- أريدك أن تتأكد يا خالد، إذا هو ابنك، فأنا أولى به.

- عمي أكد اهتمامه بخلدون ،لا يريد مصارحة محمد خميس،

- جوليا ستظل صديقتنا، سأقابلها اليوم، لأول مرة في دار العرض السينمائي.

ليليان حبيبتي سامحيني، لأني أحرجتك كثيرا بتصرفاتي الرعناء.

- يا خالد أنا اقتنعت أن الرجال من كوكب آخر، لا تتركني في هذا الكوكب وحدي؛ لأني أحبك.

- لن يفرقنا شيء حتى بعد الموت سندفن معًا.

وصلنا المزرعة، انتظرتنا والدتي أمام الباب، أفطرنا جميعنا كالعادة، ثم بدأنا تجهيز أنفسنا؛ لحضور العرض، ركبنا السيارة العائلية الكبيرة، توجهنا إلى منزل مجدولين ،تركنا ليليانة معها، ثم توجهنا إلى تورينتو، الجميع كان في انتظارنا في الصالة، يتقدمهم محمد خميس عمي أبكر ، جوليا ، دكتور حسن، وصلت عمتي وعائلتها بعدنا، من بين الحضور جاء الممثلون ،بطل الفيلم الكندي الجنسية بملامحه المقاربة لملامح محمد خميس، حضر أيضا المخرجون الأمريكان، دور النشر الكندية، التفوا جميعهم حول محمد خميس الذي ظهر بلباسه الخليجي الذي لفت أنظار الجميع.

لأول مرة وجها لوجه تقابل ليليان جوليا، تم اللقاء في انسجام تام، عندما دخلنا دار العرض جلستا سويا، قرأت عمتي أمام الحضور حيثيات إنتاج الفيلم في مقدمة قصيرة، أعقبها ابنها روبيرتو ، بجانبه محمد خميس، صفقت الصالة بالترحاب.

بكلمات مقتضبة تكلم روبرتو عن محمد، بعدها تكلم محمد بنفسه باللغة العربية ،قام بالترجمة عمي أبكر، أعلن محمد خميس تبرعه بثلاثين ألف دولار للشبكة الدولية لتحرير الرقيق، صفق الحاضرون، لزموا الصمت، بدأ فيلم «ثلاثون عاما في العبودية»، لمدة ساعة ونصف، في نهاية الفيلم صفق الجميع، ودعنا بعضنا البعض، انصرفنا.

بعد أسبوع كتبت صحف تورينتو عن الفيلم، حقق إيرادات قياسية بلغت ثلاثة ملايين في أسبوع واحد، حسب العقد كان، نصيب محمد خميس صاحب القصة عشرة المئة، لكنه رفضها تبرع بها لنادي الكتاب السودانيين، في جلسة أسرية بمزرعتنا بحضور جوليا ،عمتي هدية ،محمد خميس، تم إقناع أبي بزواج عمي، أقمنا لهما حفل عرس حضرته الجالية السودانية في تورينتو، تبرع محمد خميس لهما بمبلغ كبير، كما تبرع ببناء دار للجالية .

سيرة ذاتية



- عبد الله الأسد (عبد الله محمد سعيد الأسد) كاتب ، شاعر.
- صدر له : ديوان مزامير مملكة سبأ مكتبة جزيرة الورد، القاهرة ٢٠١٧م.
- رواية الجنازير المقدسة الطبعة الأولى، مكتبة جزيرة الورد ٢٠١٦م .
- من مواليد الجزيرة ، مركز كوستي النيل الأبيض ، السودان في ١٥ مايو ١٩٣٩م .
- تخرج ودرس في مدرسة خور طقت الثانوية ١٩٥٩م .
- المعهد الفني ، جامعة السودان بالخرطوم .
- حصل على الماجستير في سباكة المعادن من جامعة وارسو ، بولندا ١٩٦٧م .
- عمل خبيرًا بهيئة اليونيدو ، الأمم المتحدة .
- أسس مسبك الخرطوم المركزي ١٩٧٣م .
- أسس دار النافذة بمدينة مونتريال كندا ١٩٩٤م .
- أصدر مجلة النافذة الإلكترونية باللغة العربية ١٩٩٤م .
- أسس منتدى النافذة عام ٢٠٠٠م .
- للتواصل مع الكاتب :

asad1939@gmail.com
ASAd1939@gmail.com